فى النّقد الأدبىّ

الدكتور
طلعت صبح السيد

((المقدمـــــــــــة))

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين أفصح العرب لسانا ، وأروعهم أدبا ، وبعد ...

فليس ينكر أحد أن النقد الأدبى قد حظى باهتمام ملحوظ فى مجال الدراسات الأدبية الحديثة ، وأخذ المتخصصون فى البحث الأدبى يتابعون الجديد فى مناهجه وقضاياه ، وأخذت البحوث النقدية تظهر تباعا حاملة جهود النقاد التى تعرفنا بوجهات نظرهم الثرية فى قضايا عصرهم الأدبية والفكرية .

والحقيقة أن ميدان النقد الأدبى العربى له جذور عميقة أصيلة فى تاريخنا الأدبى ، ولسنا مغالين إذا قلنا إن الأسس الفلسفية العامة التى تقوم عليها نظريات الفنون ومذاهب النقد ومناهجه وقضاياه ، والتى تعرض للبحث فى النقد الحديث ، ليست حديثة على النقد العربى القديم فقد عرفت هذه الأسس على يد " الجاحظ " و "ابن قتيبة " و "ابن سلام " و "الآمدى " و "القاضى الجرجانى " و "ابن رشيق " و "العسكرى " و " الباقلانى " و "عبد القاهر الجرجانى " و "ابن الأثير " وغيرهم من نقادنا القدامى . بيد أن كل ما للنقد الحديث من فضل فى هذه الأسس أنه نظمها وفهرسها ، وحدد معالمها .

والأدب فن من الفنون الرفيعة التى شغفت بها الأمم ، وقد حظى هذا الفن عند العرب بالتقدير منذ جاهليتها .

ويتمثل الفن الأدبى عند العرب فى الحكمة المأثورة ، وفى المثل

السائر ، وفى الخطبة البليغة ، وفى الرسالة الأنيقة ، وفى الكلام المنظوم الذى يهز المشاعر ويمتع النفوس ، بقواليه المحكمة ، وموسيقاه العذبة ، وصوره الجميلة البارعة التى تحلق بالنفوس فى آفاق الخيال ، وتطوف بها فى مسارح الجمال ، وبمعانيه الممتازة ، وما تعبر عنه من العواطف الإنسانية التى تبث فيها آلامها ، وتشرح فيها أمانيها وآمالها .

وإذا كان الأدب صورة الحياة بما يرسمه لها من معالم قوية بارزة ، وبما يرودها إليه من قيم ومفاهيم ومثل ، وبما يلقيه من ضوئه الهادى الخالد على جوانبها المعتمة فإن الإنصاف يقتضينا أن نقول إن النقد الأدبى هو تقويم تلك الصورة ، وتوجيه تلك القيم فالنقد ضرورى بالنسبة إلى الأدب ، وإلى قارئ الأدب والأديب على السواء ، ولئن تغيرت معايير النقد وتطورت ، وتبدلت مقاييسه ، فإن هذا لا يمنع من بقائه أبد الدهر موجها للأدب ، لازما له فى جميع ظروفه وحالات تطوره ، ذلك لأنه يقوم من وراء الأدب بدور المتابعة والمعاونة والتقويم ، يتابع خطاه فى يقظة تامة ويراقب اتجاهه فى وعى ، ويعينه على السداد والرشد ، ويمسكه أن ينحرف أو يزل .

والذى لا يشك فيه منصف أنه كان لنهضتنا الحاضرة أثر بالغ فى الدراسات الإنسانية بصفة عامة ، والدراسات الأدبية بصفة خاصة ، فقد أفاد الدارسون من كل تلك التيارات الفكرية والأدبية والعالمية منذ توثقت صلتنا بالدول الأوربية ، وقد شغل النقد الأدبى حيزا واسعا فى دائرة الدراسات الأدبية ، إذ حاول النقاد دعم الوعى

النقدى ووضع نظريات جديدة من خلال دراساتهم لحقائق الأدب وفنونه الشعبية والنثرية التى تهدف إلى دعم الوعى النقدى .

ولقد تقاضانا المنهج العلمى أن نتحدث عن " مفهوم النقد " و " موضوع النقد الأدبى " وأن نلم بنشأة النقد وعوامل تطوره عند العرب ، ووظيفة النقد الأدبى ومقومات الناقد ، وغير هذا وذاك من الآراء التى تمثلتها ، وأبتغى فيها الوضوح ما أمكن ، لاعتقادى أن الكتب تحتاج إلى الوضوح ، حتى تتم الفائدة المرجوة منها .

هذا وأرجو أن تكون محاولتى هذه إسهاما متواضعا فى الدراسات النقدية ، كما أرجو أن تكون خطوة تتبعها خطوات قادمة بإذن الله تعالى ، والله من وراء القصد .

وهو نعم المولى ونعم النصير " .

الدكتور / طلعت صبح السيد
المنصورة فى ربيع الثانى ١٤١١هـ
(نوفمبر ١٩٩٠ م)

تمهيد

معنى النقد

الأدب فن من الفنون الجميلة التى شغف بها العرب ، وحظيت عندهم بالتقدير منذ الجاهلية ، وكانت حفاوتهم بالأدب تفوق حفاوتهم بغيره ، إذ تباروا فى حفظه وروايته وإنشاده ، وجرت روائعه المأثورة على ألسنة الخاصة والعامة منهم .

والحقيقة أن الفن الأدبى عند العرب كان يتمثل فى الحكمة المأثورة وفى المثل السائر ، وفى الخطبة البليغة ، وفى الرسالة الأنيقة ، وفى الكلام المنظوم الذى يمتع النفوس بما فيه من قوالب محكمة ، وموسيقى عذبة ، وصور جميلة بارعة وغير ذلك .

ويمكن القول إنه إذا كان للأدب تلك المنزلة الملحوظة عند العرب (١) فإنه من الطبيعى أن يكون هذا الفن فى حاجة دائما إلى الكشف عن بواعث الإعجاب به ، والبحث عن أسرار تأثيره فى النفوس ، هذا فضلا عن الوقوف على الخصائص المميزة له ، والعناصر الداخلة فى تأليفه ، إذ أن كل عمل من الأعمال الأدبية يقدر بمدى ما يتوفر فيه من تلك العناصر والمقومات قبل أن يوضع موضعه الجدير به بين التراث المأثور فى كل أدب من الآداب الإنسانية .

(١) الواقع أنه لم تكن تلك المنزلة مقصورة على العرب وحدهم ، بل إننا يمكن أن نقول إن ظاهرة تقدير الأدب والاهتمام به ظاهرة إنسانية شملت جميع الامم التى كان لها حظ من هذا الفن الأدبى .

وفى رأيى أن هذا هو السبب فى نشأة (النقد الأدبى) وفى بناء صرحه الذى تكامل على مر الزمان ، وتعاقب العصور. (١)

ومن نعم الله التى لاتحصى على الإنسان أنه عرف النقد أول ما عرفه عملا من أعمال الفطرة (٢) ، فقد وهبه الله القدرة على التمييز بين الأشياء ، وهذه القدرة تعينه دون شك على عملية الاختيار والانتقاء .. وهذا يعنى أن الإنسان ناقد بفطرته ، وأن هذه الفطرة هى التى ترشده إلى اختيار ما يرى أنه أنفع ، أو ما يحس أنه أكثر إمتاعا لنفسه وإرضاء لمشاعره من بين ما يعرض له فى جوانب حياته المختلفة ،إذ فى الواقع أنه كان من الأشياء التى تعرض له ما هو نافع مفيد ، وما هو حسن ، ومنها ما يفقد صفات النفع والحسن .

وقد لاحظنا فيما مر أن عملية النقد إنما هى فى حقيقتها تمييز بين الأشياء وإدراك للقيم الظاهرة أو الكامنة فيها ، وإيثار بعضها على بعض واطراح ما يفقد صفات الجمال والنفع والإمتاع مما لا غناء فيه ، وهنا نأتى إلى سؤال لا محيد عن الإجابة عليه وهو :

ماذا تعنى كلمة "النقد" ؟

إذا رجعنا إلى معاجم اللغة العربية وجدنا العرب تستعمل كلمة

---

(١) انظر الفصل الأول من الباب الثانى من كتاب الدكتور/محمد غنيمى هلال "النقد الأدبى الحديث" . وانظر كذلك " فى النقد الأدبى " د / شوقى ضيف ،ص ٩ وما بعدها ، دار المعارف الطبعة الثالثة .

(٢) فى النقد الأدبى د / سعد ظلام ص ٢٧ مطبعة السعادة ، طبعة أولى ١٣٩٥هـ ، ١٩٧٥م .

النقد في معنى الإعطاء ، وفي معنى أخذ الأشياء وتناولها .

قالوا : " نقدته الشيء فانتقده " أي أعطيته إياه فأخذه .
وقالوا : " نقدته الدراهم " أي أعطيته إياها " فانتقدها "
أي أخذها وقبضها ، والنقد إعطاء النقد أي الذهب والفضة .

ثم استعملت كلمة " النقد " في تمييز الدراهم والدنانير ، ومعرفة صحيحها من زيفها ، وحين انتقل واضعو اللغة بكلمة " النقد " من الأشياء المحسة المجسدة إلى العبارة عن المعنويات وجدناها تشمل كل شيء ، وتشمل الأدب ، من حيث تمييز جيده ، من رديئه ، فقالوا : " نقد الكلام " أي ميزه ، و " انتقد الشعر على قائله وما إلى ذلك (١) .

وهكذا اقترنت كلمة " النقد " بالأدب ، وصارت كلمة " النقد الأدبي " اصطلاحا فنيا ، يقصد به تمييز الأعمال الأدبية ، والحكم عليها ، أو تفسيرها وتحليلها ، وترتيب أصحابها في طبقات متفاوتة ، أو ما يجري على هذا النحو ، ووصف الذين يمارسون صناعة النقد بأنهم " نقدة الأدب " أو " نقاده " .

وعلى هذا فإن كلمة " النقد " صارت تعني " التمييز " وقد اشتهر ذلك الاستعمال وذاع ، حتى سمى قدامة بن جعفر كتابا من أهم كتبه " نقد الشعر " وقد أشار في مقدمة ذلك الكتاب إلى الدراسات التي تتناول هذا الفن فقال :

إن العلم بالشعر ينقسم أقساما هي :

١ — قسم ينتسب إلى عروضه ووزنه .

---

(١) راجع : أصول النقد الأدبي د / أحمد الشايب ص ١١٤ — ١١٨ . نهضة مصر ، الطبعة الثامنة ١٩٧٣م .

٢ — وقسم ينتسب إلى علم قوافيه ومقاطعه .

٣ — وقسم ينتسب إلى علم غريبه ولغتـــه .

٤ — وقسم ينتسب إلى علم معانيه والمقصد به .

٥ — وقسم ينتسب إلى علم جيده ورديئـــه .

وكلام قدامة فى مقدمة الكتاب يدلنا على أهمية النقد ، وعلى ضرورة وجود طبقة خاصة من الباحثين تقدر على مزاولة صناعة النقد ، لأن التعبير الأدبى له عناصر خاصة وخصائص لا يقوم إلا بها ، وهذه الخصائـــص هى التى يمتاز بها عن سائر ضروب التعبير ، ويحتاج استخراجها إلـى ضروب مختلفة من المعارف الإنسانية والفنية .. بالإضافة إلى البصـــيرة الواعية ، والذوق الأدبى الذى يعين على كشف مواطن الجمال ، ومـــا يحتويه العمل الأدبى من المعانى والأخطار ، وما تدل عليه نزعـــات الأديب وخلجات نفسه .

وإذا كان معنى النقد الأدبى (١) هو تمييز القيم الفنية فـــى الأعمال الأدبية فإن هذا التمييز يقتضى (٢) :

أولا : تحليل الأدب ، أى تفسيره وكشف حيويته .

ثانيا : تقويمه ووضعه فى المنزلة الأدبية التى يستحقها والحكم عليه بالجودة أو الرداءة . وهذا يتطلب أن يكون الناقــد صاحب تجارب كثيرة ، وخبرات طويلة ومعرفة واسعــة بالظروف المختلفة التى أسهمت فى النص الأدبى الذى ينقده .

---

(١) راجع النقد الأدبى د / غنيمى هلال ص ٣ طبعة ٣ عام ١٩٦٤م ، وراجع أيضا فى الميزان الجديد د / محمد مندور ص ٦٤ ، ١٦٢ . الطبعة الثالثة .

(٢) راجع قضايا النقد الأدبى الحديث د / محمد السعدى فرهـــود ص ٥ مطبعة زهران ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م .

وأن يكون على معرفة واسعة كذلك بالمعانى والأخيلة والعواطف والأفكار ، والقوالب التعبيرية ونحو ذلك ، مما يعين الناقد على أن يضع أيدينا على ما فى العمل الأدبى من خصائص فنية معتمدا فى ذلك كله على تطبيق الأصول النقدية التى اهتدى إليها من خلال معرفته بأصول الأدب وممارسته وخبرته بعملية النقد ، وغير هذا وذاك من القواعد النقدية ، والتى تقوم عليها صناعة النقد ، وتتحدد بها مكانة العمل الأدبى ، ومن ثم يكون الحكم على الأدب من جهة ، وعلى الأديب بالأصالة أو بالتقليد من جهة أخرى .

ومن النقد الأدبى ما يسمى (النقد التقنينى) وفيه يعنى الناقد بوضع الأصول والنظريات الأدبية التى تقوم عليها صناعة النقد ، ويأخذ يرسم القواعد التى يجب اتباعها فى تأليف الآداب .. وليس من شك فى أن هذه الأصول والنظريات إنما تمثل جملة من المبادىء العامة إن شئت فقل إنها ثمرة خبرة وتأمل فى أعمال أدبية متعددة الأجناس ، أو فى جنس واحد منها .

ومن النقد الأدبى أيضا ما يسمى (بالنقد التطبيقى) وهذا اللون من النقد يعنى بالعمل الأدبى ذاته ، وينظر إلى ما فيه من خصائص فنية ، وبمقدار كثرة تلك الخصائص ، أو قلتها ، تتحدد قيمة العمل الأدبى ومكانته ، والناقد يستعين على ذلك كله بتطبيق الأصول النقدية التى اهتدى إليها بطول ممارسته وخبرته بعملية النقد ، ومعرفته بأصول الأدب ، أو التى أفادها مما اطمأن إليه من آراء النقاد الذين سبقوه إلى الخبرة والممارسة ، ثم وضعوا

خلاصة تجاربهم فى صورة قواعد رأوا أنها تقوم عليها صناعة النقد ، كما رأوا أنه ينبغى — من وجهة نظرهم — أن تكون المركز الذى تنطلق منه عملية النقد ، ويحاسب بمقاييسها الأدباء .

وقد يتجاوز النقد الأدبى ذلك البحث الموضوعى العميق فى العمل الأدبى الواحد ، فيعمد إلى (الموازنة) أو (المقارنة) بينه وبين عمل أدبى آخر من جنسه ، ليستبين فضل أحدهما على الآخر فى النواحى التى أشرنا إليها ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نعفى النقد من ذاتية الناقد وميوله الشخصية ، لكننا نطالب الناقد بأن يكون موضوعيا ، وأن يكون نقده ملما بالظروف المختلفة التى أسهمت فى النص الأدبى مثل شخصية الأديب، وثقافته ،وبيئته ، وسائر الملابسات التى تأثر بها ، كما أننا نطالبه بأن يوضح المنطلق الذى استند إليه فى حكمه ، وأن يذكر بين يدى هذا الحكم النقدى الأسباب والمبررات التى جعلته يميز هذا على ذاك، أو يرجح رأيا على آخر .

وحديثنا عن معنى النقد الأدبى يتضمن عدة أركان وهى :

١ — نشأة النقد الأدبى وعوامل تطوره عند العرب .

٢ — موضوع النقد الأدبى .

٣ — وظيفة النقد الأدبى .

٤ ـ أنواع النقد .

٥ ـ أدوات الناقد .

٦ ـ مقاييس النقد الأدبي .

٧ ـ العلاقة بين البلاغة والنقد .

فكل ركن من هذه الأركان يحتاج إلى شرح مفصل .

نشأة النقد الأدبي وعوامل تطوره عند العرب

لم تكن للنقد الأدبي قبل أفلاطون وأرسطو محاولات منهجية وإنما كانت كل المحاولات المتفرقة غير منهجية ، وكانت تتمثل في المسابقات التي كانت تمثلها حكومة أثينا في أعيادها الدينية ، والتي كانت الأحكام الأدبية فيها غير محللة ولا معللة من الناحية الفنية (١) .

وقد عني أرسطو بإخراج النقد الأدبي مما كان يسوده من اضطراب كما عني في كل آرائه في الأدب (شعره ونثره) بالنواحي الفنية لكل جنس من الأجناس الأدبية ، وأخذ يدعم هذه الآراء بكل ما من شأنه أن يساعد القراء والنقاد على الوقوف على مزايا العمل الأدبي أو نقائصه ، الأمر الذي يجعلنا نقول إن أرسطو قد فتح للنقد ميادين فسيحة كانت ذات أثر بعيد في تاريخ النقد الأدبي .

ولقد تأثر العرب تأثرا بالغا بأرسطو وبآرائه ونظرياته ، وكان حظ كتابه (الخطابة) في التأثير أقوى وأوسع من أثر كتابه (فن الشعر) ، كل ما في الأمر ان نقاد العرب قد أفادوا من كتابي أرسطو دون أن يدركوا النظريات النقدية اليونانية ، ولعل السر في ذلك يرجع إلى أن الفلسفة لديهم كانت منفصلة عن النقد (٢) .

(١ ، ٢) انظر الباب الأول والباب الثاني من كتاب د / محمد غنيمي هلال " النقد الأدبي الحديث " .

ومن الواضح أن مثل هذه الدراسة ليس في استطاعتها أن تؤرخ للنقد العربي ،ولكننا نتطلع من خلالها إلى ذكر نبذة مختصرة عن نشأة هذا النقد ، وعوامل تطوره ، وسماته واتجاهاته العامة ، لكي نكشف عن مصادرها وأصالتها من جهة ، ثم نحاول تقويمها في ضوء النقد الحديث من جهة أخرى .

وحين نتحدث عن النقد الجاهلي نقول إن معظم الذين كتبوا عنه وصفوه بأنه يمثل أحكاما عامة ليس فيها تعليل ، ولا ترتيب نتيجة على مقدمة ، وأن كثيرا مما كان يروى في أسواق الجاهلية كان لا يصدر عن رؤية فنية شاملة ، تكشف أبعاد النص المنقود من نواحيه الجمالية واللغوية والنفسية والبيئة ، أو تضعه في مكانه الطبيعي من خارطة الإبداع متابعة وتقليدا ، أو تمردا وتجديدا ، وما إلى ذلك(1) .

ولكن طبيعة البناء الفني المتكاملة في الشعر الجاهلي ، والتي تتسم بالنضج التعبيري (2) والكمال الفني ، وكثرة الأصوات الشعرية الرائدة في هذا العصر تجعلنا نقول إن هذه القيم الشعرية لا يمكن أن تكون عفوية ، بل إن المنطق يحتم أن تكون كل تلك الأصوات الشعرية الرائدة — والتي أثرت على أمثال النابغة وطرفة ، وغيرهم — لها أصول نقدية عريضة وإن ضاعت مع كثير مما ضاع من تراث في هذا العصر .

---

(1) انظر قضايا نقد الشعر في التراث العربي د / محمد أحمد العزب : 41/1 وما بعدها 1404 هـ 1984م .

(2) وأي نضج في الشعر العربي كهذا النضج الذي يتمثل في المعلقات ثمن الطبيعي ألا يجيء هذا النضج إلا مصحوبا بذوق شعري ناضج .

وفى عصر صدر الإسلام تغير مضمون الإبداع الشعرى ، ومع هذا فقد ظل الشكل على ولائه للقيم الجاهلية فى نظم القصيدة ، ولم توجد حركة نقدية كما ينبغى لها أن تكون ، ولعل خير ما يعلل به ذلك هو أن المد الإسلامى قد أذهل الناقدين عن متابعة الإبداع الأدبى، وحجبهم إلى حد كبير عن الاهتزاز الفنى لما فى بعض الأعمال الأدبية من جمال فنى ، لأن هذا الجمال قد يتعارض مع مضامين الدين الإسلامى .

ويمكن القول إن النقد فى عصر صدر الإسلام كان نقدا ملتزما ، فعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين حكم حكمه النقدى فى شعر زهير ابن أبى سلمى (١) كان ملتزما التزاما إسلاميا ، وإن كان فى نقده ما يشير إلى الحكم الجمالى .

وفى العصر الأموى بدأ النقد العربى يحتكم إلى الظواهر الفنية ، وبدأ النقاد يميلون إلى التعليل والتحليل ، وأخذ كثير

---

(١) انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام : ٦٣/١ . تحقيق محمود شاكر ، مطبعة المدنى ، مصر .

منهم وجهته نحو الموازنات الأدبية بين شعر وشعر ، أو بين شاعر وشاعر ، وظل النقد على ولائه للقيم الفنية التي يرصدها من خلال الاحتكام إلى الذوق ، أو من خلال الاحتكام إلى قوانين اللغة وقواعد الإعراب ونحو ذلك [١] ، ومع ذلك فإن الدكتور شوقي ضيف يقول : " وإذا تركنا الرومان إلى العرب وجدنا النقد عندهم في العصرين الجاهلي والأموي ساذجا فطريا ، يعتمد على الإحساس والذوق البسيط " [٢] .

ولعل من الواجب أن نشير إلى أن النظرة النقدية في العصر الأموي [٣] كانت تقتضي النظر إلى بيئات ثلاث هي (الحجاز) و (العراق) و (الشام) لاختلاف القيم الفنية والنقدية فيها ، ففي الحجاز كانت النظرة تميل إلى الغناء ، وفي العراق كانت

---

(١) راجع أمثلة لذلك ص ١٥٨ من كتاب النقد الأدبي الحديث د / محمد غنيمي هلال .

(٢) في النقد الأدبي ص ٣٠ .

(٣) راجع تاريخ النقد الأدبي عند العرب (النقد في العصر الإسلامي) تأليف طه إبراهيم ، القاهرة ١٩٣٧م .

النظرة أميل إلى اللغة والفخر بالعصبيات ، بينما في الشـــام كانت القيم الفنية تميل إلى فن المديح ، وهذا الفعل النقدي يهدلنـــا على مدى ارتباط الظاهرة الجمالية بمناخها البيئي والفكـــري والسياسي (١).

وفي العصر العباسي كان ولابد أن يستجيب الأدب العربـــي لمطالب المجتمع الجديد الذي اتسم بـــاتساع الحضارة ، نتيجـــة لزيادة اتصال العرب بالثقافات الأخرى ، وتعرفهم على حضـــارات الأمم القديمة والتي من أهمها اليونان والفرس .

وليس يهمنا هنا تفصيل التجديد الذي كان للأدب ، ولكـــن الذي يهمنا هو بيان أثر هذه الحياة الجديدة في النقـــد ، وكيف استجاب النقد لها ، وكيف استحال إلى خضم ملئ بتيـــارات الفكر والحوار الفني ، حوار تشكلت من خلاله اتجاهات نقديـــة بارزة تتعلق بطبيعة الظاهرة الإبداعيـــة ذاتها من حيث : اللفظ ، والمعنى ، والأصالة ، والانتحال ،والمناخ العام ، وغير ذلك .

---

(١) انظر ــ الدكتور حسن جاد ــ دراسات في النقد الأدبـــي ص٤٤ ، ٤٥ ، طبعة ١٩٧٧م .

والواقع أن المد الحضارى الذى شاع فى العصر العباسى قد أثر فى نوعية النقد [١]، وكان من نتائج ذلك كله أن تحددت فى المحيط النقدى قضايا أساسية مثل : (اللفظ والمعنى) ، و (الطبع والصنعة) و (عمود الشعر) و (السرقات) و (الانتحال) و (الموازنات) غير أن قضية (اللفظ والمعنى) أو (الشكل والمضمون) قد استقطبت جهود أجيال من النقاد القدامى ، فخاض فيها أمثال : الجاحظ ، وابن قتيبة ، وقدامة بن جعفر ، والآمدى ، وابن رشيق ، عبد القاهر الجرجانى ، وغيرهم ، مع تفاوتهم جميعا فى طبيعة الموقف النقدى فى هذه القضية .

كما كان من نتائج تعقد الحياة الاجتماعية والثقافية والفلسفية فى عصر بنى العباس ، أن تعاونت بيئات مختلفة على النهوض بالنقد ، فقد بحث الشعراء فى أداة تعبيرهم وصور التأنق فيها ، وحاول اللغويون أن يضعوا الشعراء فى طبقات حسب جودتهم الفنية ، وناقش المتكلمون نظرية البيان والبراعة فى الخطابة [٢]، وحاول الفلاسفة أن يشرعوا مقاييس الجودة والرداءة فى الأدب على هدى من كتابات أرسطو .

---

(١) انظر شوقى ضيف : فى النقد الأدبى ص ٣٠ وما بعدها .

(٢) انظر البيان والتبين للجاحظ .

هذه باختصار هى مجمل خصائص الذهنية العربية الناقدة ، ومجمل ما أثارته من قضايا نقدية صميمة ، على أن أهم الاتجاهات التى وضحت فى النقد فى العصر العباسى كما سبق أن قلنا هى قضية اللفظ والمعنى وخير من يمثل هذا الاتجاه النظرى المتأثر تأثرا محمودا بالنقد القديم هـو الجاحظ الذى كثيرا ما قدم النصح للكاتب والشاعر بالاحتكام إلى ذوق الصفوة من الجمهور والثقة فى ذلك الذوق دون ضرورة التماس تحليل فنى منه (١) .

* * * *

ولعل من الواجب أن نشير هنا إلى أن النقد لم ينفصل منذ نشـأته عن البلاغة ، ولم يخلص منها ، كل ما فى الأمر أن هناك عوامل ومؤثـرات كثيرة فى تطوره ومنها :

١ — ما ظهر فى القرن الثانى الهجرى من حركات نقدية دارت كلهـا حول الشعراء الفحول وكانت بسبب من الخصومات القبلية والسياسية التى أثيرت فى العصر الأموى ، والتى تزعمها جرير والفرزدق والأخطل والحق أن رحى هذه المعارك قد اشتدت وبخاصة فى البصرة والكوفـة ، وقد تعصب كل جماعة لشاعر من الشعراء يحاولون أن يقدموه على غـيره من الشعراء .

والحق أن هذه المعارك وإن انحرفت عن القصد أحيانا ، واندفعت إلى الإسراف فى الثناء أو الثلب والهجاء وإلى أشياء كثيرة ليسـت من النقد فى شئ — إلا أنه كان للمكتبة العربية منها حصاد طيب لا بأس

---

(١) انظر المصدر السابق طبعة وتحقيق عبد السلام هارون : ١/ ٢٠٣ .

به . وقد أثمرت هذه المعارك ذادا نقديا غزير المادة متنوع الجوانب يكشف لنا أمورا كثيرة تتعلق بالشاعر ، ودوافع الشعر ، وغاياته ، وأسلوبه وجوانب الجمال فيه .

٢ — القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف

القرآن الكريم هو كتاب الله الحكيم المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس من شك فى أنه أخذ يغير عقلية العربى ، ويرقق عاطفته ، فأصبح يختار من الكلمات ألينها ، ومن الأساليب أسهلها ، وأخذ يبتعد عن الكلمات الجافية الغليظة .

يضاف إلى ذلك الأحاديث النبوية المتواترة والمروية بألفاظها عن الرسول صلى الله عليه وسلم . هذه الأحاديث هى آية فى الفصاحة والبلاغة والبيان والذين يستمعون إلى أحاديث الرسول الكريم إنما يؤخذون بروعة البيان ودقة التعبير ، وسلامة الألفاظ وجودة العبارة .

وقد ساهم الحديث الشريف بجانب القرآن الكريم فى نشر اللغة العربية وتعليمها للمسلمين من غير العرب ، ونشأت من ثم الدراسات المعتمدة على الحديث من شرح له وتوضيح غريبه . وهذه الدراسات قد وسعت دائرة اللغة فى الاشتقاق وشرح الغريب بلفظ مرادف ، هذا إلى أن ألفاظا وتعبيرات فى اللغة العربية قد شاعت بعد أن تناقل الناس أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

وللقرآن الكريم والحديث الشريف أثر فى الأدب والأدباء ، كما أن لهما أثرا فى تطور النقد ، وذلك يتمثل فى جهود العلماء الذين تعرضوا

لأسلوب القرآن ولأسلوب الحديث ، وبيان الجوانب المختلفة فيهما مستخدمين في ذلك الوسائل التى استخدمها نقاد الشعر ، هذا فضلا عن تسببهما في ترقية الأذواق وترقيقها بما جرى في أسلوبهما من الصياغة الرائقة والصور الجميلة ، بل إن القرآن الكريم صار على مر الزمان فى مقدمة الشواهد الأدبية في كتب النقد والبلاغة .

٣ — وفى العصر العباسى وصل النقد إلى أوجه (١) ، فصار خصبا ، متسع الآفاق ، معتمدا على الذوق السليم ، وقد تصدى لحمل رايته الأدباء وتميز نقدهم بالذوق السليم ، والمنطق السديد ، والموازنة العامة بين الشعراء ، كما عنوا بدراسة الشعر وتقدير رجاله ، وقد يصل الأمر إلى الخصومة في الشعر .

وكان من نتائج ذلك أن جرت معارك أدبية من لون خاص ، كتلك التى كانت بين القدامى والمحدثين من الشعراء كمسلم وبشار ، وغيرهم من أصحاب مذهب البديع ، وقد حاول النقاد أن يتعرفوا على هذه الظاهرة ، فدرسوا شعر شعرائها ، ليعرفوا خصائصها ، ويخرجوا بنظرية كاملة عن هذا الشعر . ومن النقاد من وقف مع هذه الطبقة كابن المعتز ، والصولى ، ومنهم من وقف يظاهرها ويخاصمها كالآمدى والمرزوقى والجرجانى .

---

(١) انظر تاريخ النقد الأدبى للأستاذ طه أحمد إبراهيم .

وكانت هناك معركة كبيرة بين البحترى وأبى تمام ، ومعركة أخرى بين المتنبى وخصومه ، وقد ظهر المتنبى فملأ الدنيا ، وشغل النـاس ، واختصم الأدباء فى شعره ، وتعصب له فريق ، وغض من شأنه فريـق ، ومن الذين رفعوا من مقداره أبو الفتح عثمان بن جنى ، ومن الذيـن غضوا من شعره الصاحب بن عباد ، وقد ألف فيه رسالة سماهـا " الكشف عن مساوئ المتنبى " (١) .

ومما لا شك فيه أن هذه المعارك كانت زادا نقديا غزير المـادة متنوع الجوانب ، فقد تسببت فى ظهور كتب أدبية على جانب كبـير من الأهمية ، هذا فضلا عن أنها قد عرضت لنا قضايا أدبية كثـيرة ، الأمر الذى يجعلنا نقول إن هذه المعارك قد أضافت إلى الحياة الأدبية بصفة عامة وإلى النقد الأدبى بصفة خاصة شيئا ذا قيمة حقيقية .

٤ — ليس من شك فى أن اليونان هم الذين سبقوا إلى وضع أصـول النقد وقواعده ، ولعل ما وصلوا إليه من حضارة هو الذى جعلهـم يتعمقون فى دراسة الفلسفة والمنطق .

---

(١) انظر كتاب " الوساطة بين المتنبى وخصومه " للجرجانى .

وليس من شك أيضا فى أن الترجمة التى بدأها الفلاسفة من العرب لكتب اليونان فى النقد — وبخاصة أرسطو واطلاع بعض النقاد عليها إما فى أصلها أو فى ترجمتها [١] — قد أحدثت أثرا فى نقدنا العربى حتى عصرنا الحاضر، وخير من يمثل هذا الاتجاه هو اتجاه المتكلمين الفلسفى .

وقد أظهر الأثر البيانى للثقافة اليونانية (المراد بالأثر البيانى المنطق والفلسفة) عند المتكلمين [٢] ، ولعل حاجتهم الملحة إلى الفلسفة فى الرد على شبه الطاعنين هو الذى ألجأهم إلى هذا الأثر البيانى .

ومن ذلك اتجاه " قدامة بن جعفر " فى كتابيه (نقد الشعر) ، و (نقد النثر) و (الرمانى) فى (رسائل فى نكت الإعجاز) ، و (الباقلانى) فى كتابه (إعجاز القرآن) و (عبد القاهر) فى (دلائل الإعجاز) و (ابن سنان) فى (سر الفصاحة) .

ولعل من الواجب أن نشير إلى أن الاتجاه إلى الأخذ بالفلسفة اليونانية قد يخرج النقد العربى عن روحه العربية ، ولهذا قوبل هذا الاتجاه بالرفض من المتحمسين للثقافة العربية ، ومن يقرأ " أدب الكاتب لابن قتيبة يراه يدعو إلى بيان عربى ، كما يراه يشير إلى خطورة الأثر اليونانى على ناشئة الكتاب .

---

(١) كان لاطلاع العلماء عن طريق الفلسفة والاطلاع على كتابى (الخطابة) و (الشعر) لأرسطو أثر كبير فى الخروج بالنقد العربى من جوه العربى الخالص إلى جو فيه كثير من العلل والأقيسة العقلية والمنطقية اليونانية .

(٢) وعلى رأسهم المعتزلة .

وقد اتضح هذا عند السيرافى ، والبحترى ، والآمدى ، والمرزوقى وابن الأثير ، والسيوطى ، وغيرهم .. فقد دعوا جميعا إلى الأخذ بأسباب البيان العربى فى العصور المتأخرة ، كما أشاروا إلى خطوق الأثر البيانى للثقافة اليونانية ، ونبهوا إلى ضرورة أن يبعد الاتجاه النقدى عن الأثر اليونانى .. لكننا — ومع هذا كله — نقول إن الكتب التى تأثرت بالأثر اليونانى أصبحت موجودة بين كتب الدراسات البلاغية والنقدية .

يقول الدكتور محمد غنيمى هلال :

" وفى العصر نفسه — يريد العصر العباسى — بدأ الفلاسفة من العرب يترجمون كتب اليونان فى النقد ، وبخاصة أرسطو ، وأخذ يطلع عليها — إما فى أصلها أو فى ترجمتها — بعض نقاد العرب والذى يسترعى الانتباه عناية أولئك الفلاسفة وحدهم بالنقد النظرى لأرسطو ، دون محاولة ممارسته على نحو فعال فى حين لم يعن النقاد بفلسفة النقد ، لأن النقد ظل فى أذهان العرب منفصلا فى جوهره عن الفلسفة — على نقيض ما فعل اليونانيون — ما ظل أثره فى نقدنا العربى حتى العصر الحديث لدى المتخلفين ، وعلى الرغم من ذلك تبدو أثارات فلسفية متفرقة لبعض هذه النظريات العامة فى النقد العربى " (١) .

---

(١) النقد الأدبى الحديث ص ١٦١ .

موضـــوع النقد الأدبـــى

النقد الأدبى هو تقدير النص الأدبى تقديرا صحيحا ، وبيان قيمته ودرجته الأدبية ، وعلى هذا فإنه وإن كانت طبيعة النقـــد واحدة أو تكاد ، فإن النقد الأدبى يختص بالأدب وحده ، ويـــدل هذا التعريف على عدة ملاحظات نذكر منها :

١ — أن الهدف الأساسى من النقد الأدبى إنما هو تقدير الأثـــر الأدبى ببيان قيمته فى ذاته قياسا على القواعد أو الخـــواص العامة التى يمتاز بها الأدب بمعناه العام أو الخاص .

٢ — يدل هذا التعريف على أن النقد يبدأ وظيفته بعد فـــراغ الأديب من إنشاء الأدب المراد نقده ، فالناقد يتقدم للأدب الموجود بالفعل ، ويأخذ يتفهمه ، ويفسره ، ويحلله ، ويقدره وعلى هذا فالنقد وإن كان يزيد الأدب تهذيبا وصقلا فإنه ليس بمكنته إيجاده من العدم ، وإن كان الإنصاف يقتضينا القـــول إن عملية إبداع الأدب وتذوقه ونقده قد تتحقق فى نفـــس أديب واحد موهوب موهبة خاصة .

٣ — لابد للناقد الأدبى — لكى يستطيع أن يؤدى وظيفته خير أداء — أن يكون على معرفة باللغة وأساليب التعبير بها ، وأن يكون واسع الاطلاع فى الثقافة الأدبية ، وأن يكون كذلك ثاقـــب النظر ، مهذب الذوق ، قادرا على المشاركة العاطفية مـــع

الأديب .. ولسنا فى حاجة إلى الإبانة عما تحققه مثل تلك المعارف والصفات للناقد من الفوائد .

٤ — وإذا كان للذوق الأدبى اتصال وثيق بما يصدر النقاد عنه من أحكام فإننا يمكننا أن نقول إن للذوق الأدبى دخلا قويا فى باب النقد ، وهو عدة الناقد ووسيلته الأولى ، وإليه يرجع إدراك جمال الأدب ، والشعور بما فيه من ضعف ،وإليه أيضا نلجأ فى تحليل ذلك وتفسيره ،وبه نستعين فى اقتراح أحسن الوسائل لتحقيق خواص الأدب الرفيع المؤثر وفوق ذلك كله يمكننا أن نقول إن ما ينشئه الأديب إنما هو فى الوهلة الأولى ثمرة ذوقه الأدبى .

وقد اصطلح المحدثون من علماء الأدب على تقسيمه إلى قسمين :

١ — الأدب الإنشائى : وهو مجموعة الأعمال الأدبية التى يؤلفها الأديب شاعرا كان أم كاتبا .

فالقصيدة التى ينظمها الشاعر ، والخطبة التى يلقيها الخطيب على جمهور من الناس ، والمقالة التى يكتبها الكاتب فى موضوع من الموضوعات وكذلك القصة وغيرها .. كل هذه من الأدب الإنشائى ، فكل أديب من هؤلاء الأدباء ينشئ أدبه لينفس عن نفسه بالتعبير عن تجربته ، وليشارك غيره فى عواطفه وانفعالاته ، ذلك لأنه يجد فى مشاركته الشعورية للآخرين راحة لنفسه ،وإرضاء لمشاعره، وقد يعمد الكاتب إلى إبراز الخصائص والمعالم التى تتميز بها شخصية من الشخصيات التى يختارها موضوعا لبحثه ، وهذا لون من ألوان الأدب

الإنشائى ، ويسمى "السيرة الذاتية" .

٢ — الأدب الوصفى :

إذا فرغ الشاعر من نظم قصيدته ، أو الكاتب من إنشاء مقالته ، وكذلك الخطيب ، والقصاص ، والمؤلف المسرحى ، فإن هذه الأعمال تعرض بعد ذلك على جمهور المتلقين بقصد التأثير فيهم ، وتوجيههم الوجهة التى يرضاها الأديب .

وليس من شك فى أن هذه الأعمال تقع من نفوس المتلقين مواقع مختلفة ومن هؤلاء المتلقين من يحاول التعبير عن رأيه بالكلمة ، وهو فى عبارته يفسر ، ويحلل ، ويعلل ، وقد يبين ما فى العمل الأدبى الذى قرأه من مزايا وجودة ، أو رداءة وعيوب ، ويأخذ يعمل على إقناع قارئه بما اقتنع هو به ، ليحمله على التأثر بما أثاره ، فيشاركه الرأى بما يورد من الأسباب والبراهين .

ومن فنون الأدب الوصفى ما يسمى (تاريخ الأدب) وفيه يفتن الكاتب فى رسم صورة واضحة للحياة الأدبية فى عصر من العصور ، أو فى بيئة من البيئات ، أو فى طور من أطوار الحياة الإنسانية ، أو من خلال اتجاه فنى معين ، أو طريقة معينة من طرق التعبير التى يتناول بها الدارسون الأعمال الأدبية ، وقد يلجأ الكاتب إلى رصد مراحل

الحياة الأدبيــة ، ودراسـة العوامل الزمانية والبيئـية التـــى أثــرت فى حياة الأدب والأدباء إن ازدهارا وقوة ، أو انحـدارا وضعــفا .

وفى ضوء مثل هذه الدراسات يمكن رد العمل الأدبى وصاحبه إلى الزمان والبيئة ، فيصبح مرجعا لمن أراد أن يتعرف على ما كـان للسابقين من أعمال أدبية من جهة ، وعلى ما بين هذه الأعمـــال من الصلات التى تقرب بعضها من بعض ، والخصائص التى يتمـيز بها بعضها عن بعض من جهة أخرى ، وهذا بلا شك جانب لـــه أهميته فى جلاء نواحى الأصالة فى الأدب أو الأديب ، ثم فـــى الكشف عن طبيعة التجديد واتجاهـاته ، وهذه التأثيرات هـــى محور دراسات كثـيرة ، وعلى وجه الخصــوص فى عصر نهضتنـــا الحاضـــرة .

وليس من شك فى أننا لاحظنا منذ وقت مبكر التطور الهائـــل الذى طرأ على الدراسات الأدبية بشكل كبير ، فقد ظهرت دراسـات يمكن أن نعتبرها دراسات أدبية جديدة تحتفل بالمنهج الجديد ، وتتأثر بالمناهج الحديثة فى الدراسات الأدبية الحديثــــة وخاصة فى المناهج الأدبية الأوربية ، ونحن لا نغفــل أن أصحـــاب هذه الدراسات قـــد أتيـــح لهـــم أن يحتكـــوا بـــآداب

الغرب ، وأن يقفوا على مناهجهم فى الدراسات الأدبية وغيرها (١) .

وعلى ضوء ذلك كله يمكننا أن نقول إن النقد جنس من أجناس الأدب ، وهو لون من ألوان الأدب الوصفى ، يختلف عن الأدب ـ الإنشائى الذى ينشئه الأدباء المنشئون ويؤلفونه ، وفيه ـ أى النقد ـ يعبر الناقد عن رأيه فى العمل الأدبى ، ويرى فيه الجودة أو الرداءة .. وعلى هذا فموضوع النقد هو الأدب نفسه : القصيدة التى ينظمها الشاعر يعبر فيها عن أحاسيسه ومشاعره ، والمقالة التى يكتبها الكاتب فى موضوع من الموضوعات التى تشغله أو تشغل الناس ، والخطبة التى توجه الناس الوجهة التى يرضاها الخطيب وكذلك المسرحية والقصة والسيرة الذاتية .

والذى يعنينا من هذا كله أن الناقد لا يقدم على تفسير أو تحليل إلا بعد أن يفرغ الأديب من أدبه ، وبعد ذلك يوضع هذا اللون الأدبى بين يدى الناقد ، فيكون مادته التى يدرسها ويتذوقها ، ويطبق عليها الأصول والنظريات التى تعلمها ، ويستفيد فى ذلك كله بتجاربه وخبراته ، وبتجارب وخبرات الآخرين ، ثم يجتهد ليضع اللون الذى يتصدى لنقده فى موضعه .

---

(١) انظر تطور النقد العربى الحديث فى مصر ، د / عبد العزيز الدسوقى ، ص ١٧٥ وما بعدها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧ .

وإذا كنا لا نستطيع أن نعفي الناقد من ميوله الشخصية ، إلا أننا نريد أن نقتنع بسلامة رأيه فنطالبه بأن يكون موضوعيا ، فيلم بالظروف المختلفة التي أسهمت في النص الأدبي ، وغير هذا وذاك من الصفات التي ينبغي أن تتوافر في الناقد ، حتى يستطيع أن يؤدي وظيفته خير أداء ، تلك الوظيفة التي تؤدي فائدة للأديب منشيء الأدب ، وللمتلقي الذي يسمعه أو يقرؤه ، هذا فضلا عن الفائدة الكبرى التي تخدم الحياة الأدبية بصفة عامة .

وإذا كان النقد سبيلنا لإصلاح ما فسد ، والوسيلة المثلى التي تهدي الباحثين إلى أهدى السبل وأسمى الغايات ، فإنه ينبغي أن يتخلص من الأحكام العامة المرتجلة ، وأن يكون نقدا مبنيا على معرفة ، وحينئذ تكتب المقالات النقدية ، وتؤلف الكتب في نقد الأدباء ، وإنزال كل منهم المنزلة الجدير بها .

ومن ألوان النقد الأدبي :

١ ـ النقد التاريخي : وهو لون نقدي يقف على الصلة التي بين الأدب والتاريخ ، ويتخذ من حوادث التاريخ بجميع صوره وسيلة لتفسير الأدب ، وهذا ما يسمى (بالمنهج التاريخي) .

٢ ـ النقد الفني (المنهج النقدي) .

٣ ـ النقد الشخصي (المنهج الشخصي) .

والنقد الفنى هو أخص الألوان النقدية وأقواها لمن يريد فهم طبيعة الأدب ، وبيان عناصره ، وأسباب جماله وقوته ، وهو كما يقول الأستاذ أحمد الشايب عنه : " هو النقد حقا ، وما سواه من الطريقة التاريخية أو الشخصية تفسير ، وإن كان - بلا شك - يعين على صحة النقد ، وعلى سلامة أحكامه من الغموض والضلال " (١).

* * *

(١) أصول النقد الأدبى ص ١٤٥ .

وظيفة النقد الأدبي

يحمل بعض الناس على النقد الأدبي وعلى جماعة النقاد ، فيعدون النقد عملا لا غناء فيه ، ويعدون النقاد متطفلين على الأدباء الذين ينشئون الأدب ويبتكرونه في أجناسه المختلفة .

ونحن إذا سلمنا بذلك لكنا قد سلمنا بخطأ كبير وهو ذهاب النقد الأدبي ، يقول الأستاذ أحمد الشايب : " ماذا يحدث لو ذهب النقد الأدبي أو النقد مطلقا ؟ لا شك أن الحياة تنطوي إذ ذاك على خطأ كبير ، وضلال مبين ، وتخضع في سيرها لآراء أو نظريات طائفة خاصة غير معصومة ولا متناسقة الجهود ، وتمر فاترة وقد تموت فيها المواهب وينادى بذلك الأدباء والفنيون أكثر من كل أحد ، وإلا فمن يرشدهم إلى الحق ، ويعينهم على الكمال ويصرفهم عن الضلال ، ويصل بينهم وبين الناس لعل الناس ينتفعون بالفنون والآداب نفعا سليما عميقا ، ولو ذهب النقد العلمي تعرضت الحياة لمآس مهلكة ، ونتائج زور ، وعاش الناس في ضلال وأوهام " (١)

ويقول أيضا : " وربما كان النقد الأدبي أحق من سواه بالعناية ، لأن الأدب نفسه أكثر شيوعا ، وأمس بالحياة الاجتماعية ، وأجمع لخلاصات الجهود الإنسانية من سائر الفنون ، وهو بعد ذلك صريح واضح ، درجة الإيجاز والرمز فيه أقل منها في الرسم والموسيقى والتصوير

---

(١) أصول النقد الأدبي ، ص ١٦٩ .

لذلك كان أبعد أثرا فى حياة الناس . وكان أحق بالنقد والتعقيب، ومن بين الأدب ونقده تتجلى الحقائق وترسم المثل العليا ، وتتقدم الحياة وتصقل المواهب الإنسانية حتى قال بعض النقاد : إن الحياة الاجتماعية لأمة من الأمم تعرف من آراء النقاد أكثر مما تعرف من الأدب نفسه ، أى أنه يمكن أن يعرف الإنسان من ملاحظات النقاد على الكتاب والشعراء صحة مطابقتها للأخلاق والعادات من عدمها ، لأن النقاد يرون ما لا يراه الكاتب نفسه فتكون آراؤهم أقرب إلى الصواب من آراء الكاتب . وهذه الآراء تبين أفكار الكاتب وحكمه على المجتمع الذى يعيش فيه . لهذا قيل : إن الحكم على الأدب نفسه هو صورة الاجتماع ، أى أن المؤرخ الذى يريد أن يأخذ شيئا من كتابة الأمم للحكم على مدنياتها ، عليه أن يجمع آراء النقاد المختلفة ، ويوزن بينها ليستخلص منها صورة صحيحة عن الحالة الاجتماعية " (١).

والحق أن النقد الأدبى صناعة لا غنى عنها مطلقا ، وهذا يدلنا على أهم الوظائف التى تقوم بها صناعة النقد ، ومن هذه الوظائف ما يخدم الحياة الأدبية بصفة عامة ، ويعمل على إثرائها وتنشيطها ، ومنها ما يخدم الفن الأدبى ، ومنها ما يخدم الأدباء أنفسهم — وبخاصة الناشئين منهم — كما يفيد القراء ، وغير ذلك .

---

(١) أصول النقد الأدبى ، ص ١٦٩ و ١٧٠ .

ومن تلك الوظائف :

١ ـ أما من جهة أنه يفيد الحياة الأدبية ، فليس من شك فى أنه يؤدى إلى احتكاك الآراء ، واختلاف وجهات النظر ، والأخذ والرد من النقاد الذين تختلف مقاييسهم النقدية ، كما يؤدى إلى تصادم أفكار الأدباء من ناحية والنقاد من ناحية أخرى ، وزيادة تعقب النقاد للأدباء .

وهذا بدوره ينشط الحياة الأدبية ، فالأدب لا يزدهر إلا بالنقاد وهم الذين يوجهونه ، وهم أيضا الذين ينيرون المسالك للأدباء ويوجهونهم نحو الآفاق التى تشرق فيها مواهبهم ، وهذا بدوره أيضا يجعل الأديب يبسط سلطانه على النفوس ، ويبين صلاته المتعددة بالزمان والمكان ، ويجعله يتبوأ مكانه اللائق به بين العلوم والفنون وبخاصة فى عصرنا الحديث الذى انصرف الناس فيه إلى الماديات .

ويهمنا أن نقول فى هذا المقام إن عدة النقاد فى هذا الدور الذى يقومون به مع الأدب والأدباء تتمثل فى ثقافتهم العريضة ، وأذواقهم الرفيعة ، وعقولهم الواعية ، وأفكارهم وتجاربهم التى قبسوها من حياتهم الحافلة بالاحتكاك والتصادم ، والتى أوقفتهم على كل جميل بديع ، وعلى كل ضعيف متخلف .

٢ ـ أما من جهة أنه يفيد الفن الأدبى والأدباء فمن الوجوه التالية :

أ — أن النقد السليم يقوم الأدباء ، ويوجههم الوجهة الصحيحة ، وينظر في مقدار ما وفقوا في إبداعهم ، فإن كانوا صائبين روج لطريقتهم ووطدها ، وإن كانوا على غير صواب نبههم للخطأ ، وأوقفهم على طريق الصواب .

ب — أنه يقدر العمل الأدبي ، ويحكم عليه بالجودة أو الرداءة وفقا للمقاييس النقدية الصحيحة ، وتلك وظيفة كبرى من الوظائف التي يقوم بها النقد الأدبي ، ما دامت للفن الأدبي منزلته الرفيعة بين الفنون ، فهو فن لا بد أن يحظى بعناية بالغة توقف على روائعه ، وتبعد عنه النماذج غير الرفيعة .

جـ — أنه يفسر الآثار الأدبية ، ويحاول تحليلها وتعليلها ، وبيان الأصول اللازمة لفهمها ، كما يحلل الدوافع النفسية التي كان لها سلطان على الأديب وهو يؤلف عمله الأدبي .. وهذا كله عمل يمثل حلقة وصل بين الأدباء من جهة وبين المتلقين من جهة أخرى وقد يكون هذا النقد تسليطا للضوء على أديب مغمور لا يعرفه الناس .

وفي هذه الحالة لاتكون غاية الناقد تقويم العمل الأدبي ، أو إصدار حكم عليه ، وإنما تكون غايته أن يصل بين الناس وبين الأدباء المغمورين ، فيمكن لمنزلتهم في

النفوس ، ويجعلهم يشتركون فى الحياة الاجتماعية مؤثرين ومتأثرين ، فيزداد نتاجهم بذلك خصبا ، يؤكد ذلك أن كثيرا من الأدباء قد يعتبون على النقاد إن أهملوا أعمالهم أو أعرضوا عنها .

د — أنه يعكس للأدباء رأى الناس فيهم ، وهذا من شأنه أن يكمل الدائرة ، وأن يوثق بين الأديب والناقد والمتلقى ، مما يعين على الفهم ، ويساعد على الإفادة ، فإذا بالأدب يكون واضحا جميلا ، وفنا نافعا مفيدا ، وفى هذه الحالة قد يتعدى الأمر إلى اقتراح ما ينهض بالأدب ، ويوسع فى آفاقه من فنون جديدة ، أو أساليب ممتعة ، أو أفكار خصبة وغير ذلك .

٣ — ومن جهة أخرى فالنقد الأدبى هو الوسيلة الوحيدة والمثلى لوضع حد للفوضى فى الإنشاء [1] ، فكثير من كتبنا التراثية الرفيعة كانت بمثابة رد فعل للثورات النقدية .

٤ — يعد النقد الأدبى تلخيصا مفيدا للقراء ، فهو يوفر لهم كثيرا من الوقت والجهد ، ذلك لأنه يعرض عليهم خلاصات تتصل اتصالا قويا بدراساتهم ، ويبين لهم نواحى

---

(١) يمكن القول بأن التيارات النقدية التى ظهرت فى القرون الأولى كانت سببا فى تأليف الكتب والفصل فى الخصومات ، وهذا بدوره يضع حدا للفوضى فى التأليف .

الكمال إن كان فيها كمال ، أو نواحي الضعف إن كان فيها نقص ، وفضلا عن ذلك كله فإنه لما كان قراء الأدب طبقات مختلفة الكفايات كان النقد الأدبي هو الطريقة المثلى التي تمثل الوسيط الجيد الذي يصل بين النفوس بقصد تقريب الآثار الأدبية إليهم .

٥ ـ والحق ان النقد الأدبي ظاهرة اجتماعية لاغنى عنها مطلقا ، ما دام للفن الأدبي حياة ، وما دامت له تلك المنزلة الرفيعة بين الفنون الإنسانية ، وما دام له ذلك التأثير في حياة الأمم والشعوب . (١)

---

(١) كان ذلك لأن الأدب في أزهى صوره هو النشاط الإنساني المعبر عن الحياة ، أو هو التعبير عن الحياة ، أو بعضها بعبارة جميلة ، أو هو العبارة الفنية عن موقف إنساني (انظر النقد الأدبي للأستاذ أحمد أمين : ١/١ ط ٣ ، وانظر أيضا في الميزان الجديد ، الدكتور محمد مندور ص ١٢٥ ، وأنظر أيضا : النقد المنهجي للدكتور مندور أيضا ، ص ١٣ ، وانظر أيضا : معالم النقد الأدبي للدكتور عبد الرحمن عثمان .

يقول الدكتور طه حسين :

" والمهم أن الأديب مهما يكن أمره كائن اجتماعي لا يستطيع أن ينفرد ولا أن يستقل بحياته الأدبية ولا يستقيم له أمر إلا إذا اشتدت الصلة بينه وبين الناس فكان صدى لحياتهم ، وكانوا صدى لإنتاجه وكان مرآة لما يجدون من لذة وألم ومن نعيم وبؤس ، وكانوا مرآة لما يذيع فيهم من رأى وخاطره وما يغذوهم به من هذه الآثار الأدبية على اختلاف ألوانها ، وهو في حاجة إلى أن يشعر بهذه الصلة وإلى أن يراها قوية متينة مترددة بينه وبينهم كما يتردد الرسول بين المحبين ، وذلك يدفعه إلى العمل وينشطه للإنتاج ، ويغذو نفسه بالمعاني ويثير فيها الخواطر والآراء ، ويشيع في النقد القوة والجدة والنشاط ، ويلائم بين هذه اللغة وبين قلوب الذين يقرأونه ويسيغونه على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم في جمهور الناس . ومن هنا ينشأ لون من الأدب هو الذى يحقق الصلة بين المنتج والمستهلك ويحفظها على أتم وجه وأقواه وأنفعه ... " (١)

هذه هي وظيفة النقد الأدبي ، وهي وظيفة تظهر مدى ارتباطه بالأدب ارتباطا عضويا آسرا وقويا ، الأمر الذى يجعلنا نقول إن الحياة الأدبية لا يسعها أن تستغني عن النقاد ، لأن هذه الحياة لا تزدهر إلا بهم ، فهم الذين يوجهون حركتها .

وعدة الناقد في ذلك الزاد الذى يقدمه للأدباء هي موهبته

---

(١) الثقافة : العدد الأول عن أصول النقد الأدبي ص ١٧٣ و ١٧٤ .

الخاصة ، وقدراته الذاتية ، وحتى يكون حكمه على الآثار الأدبية صحيحا ومقبولا ومستساغا لابد له من أن يأخذ بشئ من العقل في حكمه وبشئ من المنطق أيضا ، ولا بد له من أن تكون لديه أدوات النقد حتى يتمكن من معرفة القواعد التي يستطيع بها الحكم على العمل الأدبي من حيث حسنه أو قبحه مع بيان درجته منهما ، ومعرفة الوسائل التي تمكنه من تقويم ما يعرض عليه من الآثار الأدبية بالشرح والتحليل والتفسير .

وعلى هذا الأساس عظم الدكتور طه حسين من أمر النقد والناقد معا فقال : " فالناقد آخر الأمر أديب بأدق معاني الكلمة ، والنقد آخر الأمر أدب بأصح معاني الكلمة أيضا ، وربما أتيحت للناقد مزايا لا تتاح للأديب المنشئ ، فالناقد مرآة لقرائه كالأديب ، والقراء مرآة للناقد كما أنهم مرآة للأديب أيضا ، ولكن الناقد مرآة صافية واضحة جلية كأحسن ما يكون الصفاء والوضوح والجلاء ، وهذه المرآة تعكس صورة الأديب نفسه كما تعكس صورة القارئ ، وكما تعكس صورة الناقد ، فالصفحة من النقد الخليق بهذا الاسم مجتمع من الصور لهذه النفسيات الثلاث ، نفسية المنشئ المؤثر ، ونفسية القارئ المتأثر ، ونفسية الناقد الذي يقضي بينهما بالعدل ، ويزن أمرهما بالقسطاس " (١)

---

(١) فصول في الأدب والنقد ، ص ١٠ ، دار المعارف بمصر .

والحق أن للناقد في العمل الأدبي موقفين :

- الموقف الأول هو التفسير .
- الموقف الثاني هو التقويم .

وكل من هذين الموقفين يتناولان النص الأدبي من جهتي (الشكل والمضمون) . فمن ناحية التفسير نقول إن نقاد العرب القدماء شاع عندهم النظر إلى الأدب على أن له جانبين ، الجانب المعنوي ، والجانب اللفظي ، ومع ذلك فقد ذهب بعض نقاد الأدب المعاصرين إلى تحليل الأدب إلى عناصر أربعة وهي : الفكرة ، والعاطفة ، والخيال ، والعبارة .

والواقع أن ما يسميه بعض النقاد "بعناصر الأدب" ليست عناصر متميزة يمكن فصل بعضها عن بعض ، فكل عنصر من هذه العناصر يتوقف على العناصر الثلاثة الأخرى ، وإن شئت فقل إنها تمثل في مجموعها وحدة متكاملة هي أولا وأخيرا وحدة الانفعال أو الشعور ، هذه الوحدة هي أول ما يطالعك حين تقرأ نصا أدبيا ، ويمكن القول إن الأديب إذا نجح في أن ينقل إليك هذا الانفعال أو الشعور ، ونجحت أنت في أن تتلقى هذا الانفعال ، فقد تحققت اللذة الفنية .. وهذا يدفعنا إلى القول بأنه من الأولى بنا أن نتصور عناصر الشعر كما نتصور أبعاد الجسد الواحد .

وأيا كان الأمر فإننا — ومن خلال معرفتنا لخصائص الأدب ، وخصائص النقد — لا بد وأن نكون على يقين من أمرين :

الأمر الأول : أنه إذا كان الأدب ضرورة لفهم الحياة والاستمتاع

بها ، فإن النقد الأدبي ضروري لفهم الأدب والاستمتاع به .

الأمر الثاني : إذا كان الأديب المنشئ للأدب يبذل جهدا في إبداعه ، فإن الأدب يحتاج لتذوقه وفهمه إلى جهد ، وهذا يؤكد أن تذوق الأدب متوقف على القراءة المتأنية .

ومن البديهي أن الجهد الذي يبذله المتذوق لا يتساوى في المقدار ، ولا يتطابق في النتيجة مع الجهد الذي يبذله المنشئ ، ومن البديهي أيضا أن النصوص الأدبية ليست سواء ، فمنها ما هو جدير بمثل هذه القراءة ، ومنها ما هو غير جدير بها ، كل ما في الأمر أننا ونحن نبحث عن النصوص الجيدة لا بد وأن نسترشد بتاريخ الأدب ، وبأحكام وخبرات كبار النقاد .

ولا يعني هذا أننا نسلم بكل ما يرونه في الأدب ، لأننا لا نستطيع أن نستعير إحساس واحد من النقاد لنستعين به في قراءة وتذوق نص أدبي ، ولكننا يمكننا أن نستفيد من نظرياتهم في البحث عن مواطن الجمال في النص ، أما الإحساس بالجمال الأدبي فهذا هو شأننا نحن .

أنواع النقد

سبق أن قلنا إن النقد بدأ فطريا ساذجا ، وأن الله سبحانه وتعالى قد وهب الإنسان القدرة على التمييز بين الأشياء ، وإيثار بعضها على بعض وفقا لما تمليه عليه أغراضه وأهواؤه .

وحين أخذ الانسان يترقى ويتدرج فى مضمار الحضارة تحضر العقل الإنسانى ، وانفتح على منابع الثقافة المتنوعة ، وامتد سلطانه إلى الأشياء التى يدركها ، فأخذ يطيل فيها النظر ، ويسبر أغوارها ، ويتعرف على حقائقها ، ويستكشف دقائقها ، ويتأمل فى مقوماتها تبعا لسنة الكون والحياة ، وقانون التطور والتدرج .

ومن المسلم به أيضا أن الأدب قد تطور وتدرج مع الإنسان كنشاط معبر عنه فى مراحل حياته المختلفة ، وفى كل هذه الأحوال راح النقد يتابع هذا التطور ، ويلاحق ذلك التدرج ، ولم تختلف فى ذلك ثقافة عن ثقافة ، ولا أمة عن أمة ، ولا أدب عن أدب .

ونستطيع أن نتبين حينئذ أن الناقد فى هذه الحالة من التطور لا يرضى أن يبنى رأيه ، أو يصدر حكمه متأثرا بعواطفه الخاصة ، أو مستجيبا لميوله وأهوائه ، وانعكاس أثر ما يقرأ أو يسمع على أحاسيسه ومشاعره ، ولكنه يبدى رأيه بعد أن يربط عملية النقد بضوابط موضوعية من داخل العمل الأدبى ذاته ، وبعد أن يقدم الحجج والبراهين التى تؤيده .

وعلى هذا ينقسم النقد الأدبي من حيث العوامل الفعالة في إصدار الأحكام ، ومن حيث الأساس الذى يبنى عليه فى تقدير الأعمال الأدبية إلى قسمين (١) :

١ ـ النقد الذاتي (النقد التأثرى أو الانطباعى) :

وهو النقد الذى تتحكم فيه الدوافع الذاتية ، وهو نقد يعتمد على الذوق المدرب المثقف ، وحس الناقد وشعوره وذاتيته ، دون اعتداد فى عملية التقويم بأية عوامل خارجية ، كما أنه يعتمد إلى حد كبير على الخلفية الاجتماعية والثقافية .

وهذا الناقد يصدر حكمه على العمل الأدبي الذى ينقده على حسب العوامل المؤثرة فى تكوين شخصيته وحده دون لجوء إلى التفكير المنطقى ، أو التعرض للأسباب الموضوعية ، والمعروف أن هذا الأسلوب فى النقد هو الذى غلب على الإنسان فى حياته الأولى ، وقت أن كان الإنسان لا يعرف القواعد والمعايير التقليدية المعترف بها فى الفن والأدب .

ومن هذا اللون النقدى منهج الجاحظ وابن قتيبة والجرجانى وغيرهم من النقاد الذوقيين ، الذين يعترفون بتأثير المشاعر فى

---

(١) أنظر ـ دراسات نقدية فى الأدب المعاصر ، تأليف مصطفى عبداللطيف السحرتى ، ص ١٧ وما بعدها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩م .

الأحكام الأدبية .

يقرر القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ذلك في قوله في الشعر : " — ولسنا ننازعك في هذا الباب — فهو باب يضيق مجال الحجة فيه ، ويصعب وصول البرهان إليه ، وإنما مداره على استشهاد القرائح الصافية ، والطبائع السليمة ، التي طالت ممارستها للشعر ، فحذقت نقده ، وأثبتت عياره ... فأما وأنت تقول : هذا غث مستبرد ، وهذا متكلف متعسف ، فإنما تخبر عن نبو النفس عنه ، وقلة ارتياح القلب إليه " (١) .

ويقول في الحكم على الشعر : " والشعر لا يحبب إلى النفوس بالنظر والمحاجة ، ولا يحلى في الصدور بالجدال والمقايسة ، وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة ، ويقربه منها الرونق والحلاوة ، وقد يكون الشيء متقنا محكما ، ولا يكون حلوا مقبولا ، ويكون جيدا وثيقا ، وإن لم يكن لطيفا رشيقا " (٢) .

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل ، وعلي محمد البجاوي ، ص ٩٩ و ١٠٠ ، طبعة عيسى البابي الحلبي .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

٢ — النقد الموضوعى :

وهذا القسم من النقد يحاول الناقد فيه أن يتخلص من سيطرة ذاتيته ،فيربط عملية النقد بضوابط موضوعية من داخل العمل الأدبى ذاته باعتباره موضوع النقد ، وهذا يعنى أن الناقد يلتمس الحجج والبراهين التى يعتمد عليها ، ويؤيد بها أحكامه على الأعمال الأدبية .

ومن هذا يتضح أن النقد الموضوعى هو الذى توصل النتائج فيه بمقدماتها ، وترتبط الأسباب بمسبباتها ، وقد أطلق عليه هذا الوصف لأنه يقوم على تبين ما فى الموضوع — وهو هنا العمل الأدبى — من أسباب القوة ، أو مظاهر الضعف ،وهذه الأسباب الموضوعية نستخلصها من طبيعة النص مهتدين بالمعالم والأصول التى أفدناها من ثقافتنا النقدية ومن معلوماتنا الأدبية .

ويتضح الفرق بين هذين النوعين من النقد (التأثرى) و (الموضوعى) ، من حيث أن النقد التأثرى يعتمد على العوامل المؤثرة فى تكوين شخصية الناقد ، وأنه يعبر دائما عن رأى صاحبه ومن ثم ففى النقد الذاتى كثيرا ما تتعدد الآراء وتختلف اختلافا بينا ، وينتج عن هذا الاختلاف اختلاف وتباين فى التقدير ، وتتفاوت أقدار الأدباء والشعراء يتفاوت مدى استجابة المستقبلين لأعمالهم الأدبية .

أما فى النقد الموضوعى فإننا لانجد الاختلاف فى التقدير على هذه الصورة الواضحة فى النقد التأثرى ، ذلك لأننا فى النقد

الموضوعى نجده ، يقوم على البحث عن القيم الأدبية بعد الرجوع إلى أصول وقواعد متفق عليها فى الحكم والتقدير ، وجل ما ننشده فى الناقد الموضوعى هو ألا يتنكب الطريق ، وألا ينحرف عن القصد .

* * *

وقد أورد ابن رشيق نموذجا لاختلاف النقاد التأثريين فى تقديم بعض الشعراء على بعض فقال فى باب المشاهير من الشعراء :

" وقالت طائفة من المتعقبين : الشعراء ثلاثة : جاهلى ، وإسلامى ، ومولد ، فالجاهلى امرؤ القيس ، والإسلامى ذو الرمة ، والمولد ابن المعتز ، وهذا قول من يفضل البديع — وبخاصة التشبيه — على جميع فنون الشعر .

وطائفة أخرى تقول : بل الثلاثة الأعشى والأخطل وأبو نواس ، وهذا مذهب أصحاب الخمر وما ناسبها ، ومن يقول بالتصرف وقلة التكلف .

وقال قوم : بل الثلاثة مهلهل وابن أبى ربيعة وعباس بن الأحنف ، وهذا قول من يؤثر الأنفة ، وسهولة الكلام ، والقدرة على الصنعة والتجويد فى فن واحد ، ولولا ذلك لكان شيخ الطبع أبو العتاهية مكان عباس ، لكن أبا العتاهية تصرف ... " (١)

---

(١) العمدة : ١/ ١٠٠ ، تحقيق محى الدين ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٢م .

أدوات الناقد

عرفنا أن النقد يبحث عن الخصائص الفنية ، وأنه يميز القيم الأدبية في كل عمل من الأعمال التي يتناولها . وحتى يكون الحكم على الآثار الأدبية صحيحا ومقبولا ، وحتى يستطيع الناقد أن يؤدي فائدة للحياة الأدبية لابد أن تكون لديه أدوات تمكنه من أن يؤدي وظيفته خير أداء ، ومن هذه الأدوات :

١ — الثقافة :

وحين نتحدث عن الثقافة اللازمة للناقد فإننا لا نستطيع أن نفرق بأي حال من الأحوال بين الثقافة اللغوية والثقافة الأدبية والثقافة بمعناها العام .

فالثقافة اللغوية تعين الناقد في معرفة الألفاظ ووسائل صياغتها ، وما يمكن أن تؤديه من المعاني ، وما تحملته من معان على مر الزمان ، كما تعينه على معرفة أنواع التصرف والمجاز التي اصطنعها أصحاب اللغة أو جماعة الأدباء .. ذلك كله هو سبيل الناقد الوحيد للحكم الصحيح .

والحقيقة أنه قد أشار كثير من نقادنا القدامى إلى ثقافة الناقد ورأوا أنها القاعدة التي يمكن أن ينطلق فيها كل فن مثقف وكل نقد صوابي ، وهذه الثقافة هي التي تؤهل الناقد — أكثر من غيرها — لعملية التصدي لدراسة الإبداع ، وإعطاء أساس نقدي

سليم (١) .

ولسنا فى حاجة إلى الإبانة عن الطريق التى تحقق للناقد تلك الثقافة (٢) ، فهى طرق كثيرة ومتعددة ،منها كثرة الاطلاع وإدامة النظر فى الآثار الأدبية ،فهذا هو السبيل الذى يوصل إلى العلم بالأدب، ويتخرج به الناقد المتخصص الذى يكون رأيه أدعى إلى الاحترام .

يروى الآمدى فيقول :

" قيل لخلف الأحمر : إنك لاتزال ترد الشئ من الشعر ، وتقول : هو ردئ والناس يستحسنونه !

---

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبه ص ٢٠ و ١٨٤ طبع فى مدينة ليدن المحروسة ، مطبعة بريل ١٩٠٢م ،وانظر كذلك طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩٥ وما بعدها ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ،دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة .

(٢) ليس مقصودنا من وجوب الثقافة النقدية أن يلتزم الناقد بكل رأى سلف ،أو أن يكون مقلدا لمن سبقوه فى النقد ، كلا فمثل هذا العمل يقضى على شخصية الناقد ، ويحد من حريته .

فقال : إذا قال لك الصيرفى : إن هذا الدرهم زائف فاجهد جهدك أن تنفقه فإنه لا ينفعك قول غيره : إنه جيد .

وقد عقب الآمدى قائلا :

" فمن سبيل من عرف بكثرة النظر فى الشعر والارتياض به وطول الملابسة ويقبل منه ما يقوله ، ويعمل على ما يمثله ، ولا ينازع فى شىء من ذلك، إذ كان من الواجب أن يسلم لأهل كل صناعة صناعتهم ، ولا يخاصمهم فيها ، ولا ينازعهم إلا من كان مثلهم نظيرا فى الخبرة وطول الدربة والملابسة " (١) .

ومن الثقافة اللازمة للناقد الأدبى المعرفة بأصول النقد وقواعد الأدب ، والمعرفة أيضا بالمدارس الأدبية والمذاهب النقدية واتجاهات كل منها ، والوقوف على التراث النقدى الذى خلفه النقاد القدامى الذين سبقوه ، إذ الحال أنه لاتوجد صناعة من الصناعات إلا ولها ثقافة من جنسها ، وإفادة من التجارب والخبرات التى سبقتها .

ومنها كذلك المعارف الأدبية والإلمام بالعلوم والفنون ، ومعرفة حياة الأدباء وبيئاتهم وثقافاتهم ، ونوازعهم ، وسائر العوامل المؤثرة فى تكوين عملياتهم وتوجيه عواطفهم .

---

(١) الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى : ١/ ٤١٤ . تحقيق السيد أحمد صقر . دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م .

٢ ـ الموهبة :

لا شك أن الموهبة ضرورية في الفنون ، وهذه الثقافات المتوفرة للناقد مع ما لها من أثر في صناعة النقد لا تجدي نفعا إذا لم يساندها طبع أصيل وموهبة فذة ، إذ بدون الموهبة لا ينبغ فنان ولا يصح فنه .

على أن الموهبة على خطرها ، وبعد أثرها لا تكفي ما لم تصقل بثقافة العصر ، والدراية الكاملة بما يجري في المحيط الفني من تيارات ومدارس ومذاهب ، ومن الضروري أن يطلع الناقد على كل هذه التيارات ويحيط بها ، لتتثقف موهبته ، وليتناول فنه حين يتناول وهو واع بثقافة العصر ومحيط بمستحدثاته ، في هذا المجال ، ويعالج كل ما يعرض له بثقة واقتدار ، إذ لا شك أن الذوق المدرب والمثقف هو خير وسائل الحكم النقدي ، ولا يخفى على أحد أن الناقد الخالي الوفاض من كل تلك المعارف يكثر زلله ، ويكون ضرره في الحياة الأدبية أكثر من نفعه .

٣ ـ والذي ننشده في الناقد الموضوعي :

أن يتوفر له ما ينبغي للقاضي من أدب النفس ، وتزكيتها بالفضائل الإنسانية ، من عدالة وإنصاف وعفة ، وأن يكون قادرا على التحكم في نوازع نفسه وأهوائها ، حتى لا يجرفه شعور الحب إلى الإسراف في الثناء ، ولا شعور العداوة على النيل من الأعمال الجيدة .

إن النقد الأدبي السليم هو الذي يضع العمل الأدبي موضعه الجدير به ، وهو دون شك عمل من الأعمال الإيجابية البناءة في صرح الحياة الأدبية ،فإذا تنكب الناقد الطريق ،وفقد روح العدالة وحب الإنصاف ، فإن هذا يعتبر خيانة ،للأمانة التي حملها ، والرسالة التي لم يقدرها حق قدرها ، هذا فضلا عن أن عمله هذا يخفي وجه الحقيقة التي هي مطلب كل إنسان عاقل رشيد .

* * *

ومن هنا نجد أن النقد الأدبي له قيمة لا ينكرها أحد ، كما أنه له أثرا في الأديب المنشئ ، وفي القارئ للأدب .

يقول الدكتور / ماهر حسن فهمي :

" وإذا كان الأدب صورة الحياة بما يرسمه لها من معالم قوية بارزة وبما يلقيه من ضوئه الخالد على جوانبها المظلمة ، فإن النقد هو الجانب الآخر لصورة الحياة بتصحيحه لبعض أجزاء الصورة أو تكميله لها ، أو توجيهه للفنان نفسه ، أو عرض صورته على الناس .

والقارئ لاشك حين يطلع على النقد ، يضم إلى تجاربه تجربة جديدة لفرد أكثر تجارب وأرشد عمقا وأوسع ثقافة " (١).

---

(١) المذاهب النقدية ص ٥ . دار الطباعة الحديثة ،نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٢م .

ويقول الدكتور / شوقي ضيف :

" ونحن لا نشك في أن نقد الآثار الأدبية شيء صعب ، لأنه لا يعتمد في جوهره على قواعد مقررة ثابتة ، ولأنه يحتاج إلى ذكاء ومهارة في العرض ، فلا يكفي أن يكون الإنسان دارسا لنظريات النقد الحديثة ومناهجه ، بل لابد أيضا أن يكون من دقة الذوق وجمال الأداء بحيث يصوغ نقده صياغة تروق القارئ " ، وخذ مثلا تجربة كيميائية يعرضها علماء مختلفون فإن كل عالم كيميائي يعرضها بنفس الطريقة ، إذ يسجل نفس الظواهر ونفس النتائج ، وهذا ما لا يحدث في النقد ، فلكل ناقد عرضه ، ولكل ناقد ذوقه وطريقته في الأداء ، ويتفاوت النقاد في ذلك حسب قدرتهم الأدبية ، ومهاراتهم ، وحساسيتهم ، ووعيهم بما يتطلبه الموضوع منهم وعيا يجعلهم ينوعون طرقهم كلما ألموا بأثر أدبي .

وما أظن صفة ينبغي أن يتحلى بها الناقد تبلغ صفة العدالة في وزنها وقيمتها ، إنه حكم أمين ، فينبغي أن يضع في يده موازين عادلة ورشيدة لا تميل مع أي هوى ولا أي تعصب ، ومن أجل ذلك كان حريا به أن لا ينقد أثرا أدبيا لا يتفق ومثله في الحياة حتى لا يجور عليه في حكمه وتقديره . والناقد الحق لا يرفع شيئا فوق قيمته ، ولا ينزل شيئا دون قيمته ، وإنما يحق الحق للصديق ولغير الصديق ، فلا يثني إلا في مكان الثناء ، ولا يزري إلا في مكان الإزراء وتلك مسئولية عليه أن يتحمل تبعتها ، وينهض بها في غير تقصير " (١)

---

(١) في النقد الأدبي ، ص ٥٧ .

ويقول الأستاذ أحمد أمين :

" فالنقاد كثيرا ما يعطينا وجهة نظر جديدة تماما ، وكثيرا ما يؤدى مساعدة خاصة بأن يترجم إلى تعبير محدد ، إحساسات لنا كنا نحس بها إحساسا مبهما غامضا ليس له قيمة علمية ، فهو أحيانا مستكشف يستكشف أرضا جديدة ، وهو أحيانا رفيق صديق يدلنا على جوانب غير منظورة من الأشياء التى نمر بها فى طريقنا حتى من تلك التى نعرفها معرفة جيدة . وهكذا يعلمنا أن نقرأ ثانية لأنفسنا بذكاء أعظم وبتقدير أعمق ، ثم ليس هذا كل شىء ، فإنه كثيرا ما يؤدى لنا أعظم المساعدة حين يتحدى أحكامنا الخاصة ويعارض آراءنا التى سبق أن كوناها ، ولا يقتصر على التعليم بل الإثارة والاستفزاز ، فإذا قرأناه كما يجب أن نقرأ الأدب الذى يتناوله بعقل حاضر منتبه فطن ، فإنه لن يكون أمرا هاما ، هل نحن نوافق ما يقوله لنا أم نرفضه . ففى كل حالة سوف نكسب من تناوله فى عمق النظرة وفى القوة " (١) .

ويقول الدكتور محمد السعدى فرهود :

" ولا نقبل أن يرسل الناقد نقده على هواه ، أو يغفل التراث النقدى ، فإن للبشرية منذ عهد الإغريق نظرات ناقدة نافذة ، ماتزال إلى اليوم مرادا لطلاب المعرفة ، ومجالا للنقاش والجدال . ولا نريد أن نفرض على الناقد أن يلم بالتراث النقدى كله ، إذ يكفيه أن ينتقى من هذا التراث ما يصنع له منهجا نقديا ، وحبذا أن يقتنع بأن

---

(١) النقد الأدبى ، ص ١٧٩ ، القاهرة ١٩٤٤م .

مسلكه حين ينقد — ونقصد مسلكه العلمى — لا غبار عليه . ولا نمنع أن يجتهد الناقد فيبدى وجهة نظر جديدة ورأيا بدعا ، فهــــذا من حقه ، وإنما نمنع أن يضيع الناقد ذلك التراث النقدى ، لنزوة أو لرغبة تتسلط عليه . ومن هنا نستطرد إلى القول بأنه من غير المقبــول لدينا — ولدى أى منصف — أن نستجيب للدعوات التى تدعونــــا إلى أن نقطع صلتنا بالبلاغة العربية وبالأعمال النقدية العربية القديمة ، بحجة أن وجهات النظر جديدة قد ظهرت فى أوربا ، فعلينا أن ننقلها إلى ميدان أعمالنا النقدية . ولا نظن أن تلك دعوات مستوية ، ولا أن هذه حجة غير منقوضة ، فمن الصعب أن نلغى — أو نهمــل — مئات السنين من عمرنا الفكرى ، بل إنه أولى لنا أن نعيد فى تراثنــا النقدى العربى نظرا ، لعلنا نقف فيه على ذخيرة ، نعيد صياغتهـا ، أو زادا نتفاخر به ..." (١)

---

(١) قضايا النقد الأدبى الحديث ، ص ٦ .

مقاييس النقد الأدبـــي

رأى كثير من النقاد أن الأدب يتكون من عناصر أربعة هـــي : العاطفة ، والمعنى ، والخيال ، والأسلوب (١) . وهـــذا يعني أن أي لون من ألوان الأدب لابد أن يشتمل على هذه العناصر الأربعة ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يخلو من عنصر منها .

١ — أما العاطفة :

فهي التي تمنح الأدب صفة الخلود ، وهي مقياس من أهـــم المقاييس التي يقدر بها فن الشعر بخاصة .

ويتميز الشعراء بحدة عواطفهم وسرعة انفعالاتهم النفسيـــة ، وهم حين يعرضون لحقائق الحياة التي تستثيرهم للتعبير عنهـــا ، لاتعنيهم من ناحية ماهيتها الحقيقية أو الذهنية أو العلمية ، بل مـــن ناحية تأثيرها في نفوسهم ، وإدراكهم إياها بوجدانهم .

وحسبنا أن نقرأ هذه الأبيات التي قالها امرؤ القيس يصـــور فيها الليل من خلال عواطفه وإدراكه الوجداني .

يقول : (٢)

---

(١) انظر : النقد الأدبي لأحمد أمين : ٢٢/١ ، مكتبة النهضـــة المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ ، وأصول النقد الأدبي ، أحمد الشايب ص ١٨٠ ، والمذاهب النقدية ، الدكتور / ماهر حســـن فهمي ص ٩ .

(٢) شرح المعلقات السبع ، الزوزني ص ٢٥ : ٢٧ .

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... على بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيا لك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل

والحق أن هذه عاطفة تكشف عن ألم الشاعر وشقائه، وتعبر عنه أصدق تعبير وأقواه، وليس من المهمومين إلا من يلمس هذا الصدق، وكأن الشاعر عبر عن صنيع جميع المهمومين ومشاعرهم .

فالشاعر نظر إلى الليل بهذا الإحساس فوجده ثقيلا بطيئا لا يريد أن ينجلى، وهو من فرط إحساسه بثقله خيل إليه أن نجومه — من خلال عاطفته — وكأنها ثابتة لا تتحرك بل إنها مشدودة بحبل متين الى جبل راسخ .

ولعلنا ندرك أن إثارة العواطف هي العنصر الظاهر في الأدب ومن هنا نستطيع أن نفرق بين العالم والأديب، بأن العالم يلاحظ الأشياء ويستكشف ظواهرها وقوانينها، وعلاقتها بالأشياء الأخرى، أما الأديب فإنه يضفى على الأشياء من عاطفته وخياله ما يجعل أحاسيسنا كلها ومشاعرنا تتجدد أمام تلك الحقائق .

فامرؤ القيس — بحكم عاطفته — لم يفكر في الحقيقة العلمية لليل أو النجوم، ولكنه تخيله في الصورة التي هدته إليها العاطفة .

وإذا كانت العاطفة عنصرا من العناصر الأصيلة في الفن الأدبي،

فإن لهذه العاطفة الأدبية صفات ينبغى أن تتوافر فيها ، حتى تستطيع أن تحقق التأثير الذى ينشده الأديب فى نفوس المتلقين . وقد جعل الأستاذ أحمد الشايب للعاطفة خمسة مقاييس هى (١) :

١ — صدق العاطفة أو صحتها .
٢ — قوة العاطفة أو روعتها .
٣ — ثبات العاطفة أو استمرارها .
٤ — تنوع العاطفة أو شمولها .
٥ — سمو العاطفة أو درجتها .

وفى أدبنا العربى شعراء أعلام عبروا عن عواطف أصيلة ،قوية ، صادقة ، ولذلك بقيت فى قلوب الناس وهزت مشاعرهم ،ولا عجب فى ذلك ، فالشعراء قد استوحوا فى أعمالهم عواطفهم الصادقة الأصيلة .

٢ — الخيال :

عرفنا من كلامنا السابق أن الشاعر لا يعبر عن الحقيقة من حيث هى حقيقة ، بل من خلال إدراكه الوجدانى لها ،وإحساسه العاطفى بها ، فأى قوة تلك التى تمنح الشاعر القدرة على نقل الحقائق من واقع حسى إلى واقع جديد ؟ (٢)

والخيال هو الرابطة بين عالم الشعور وعالم الإدراك والفهم ،وهو يستمد قوته من العاطفة أو الوجدان ،فكلما كان رصيد الشاعر من

(١) أصول النقد الأدبى ص ١٩٠ .
(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٢١٠ ومابعدها .

العاطفة كبيرا كلما استهوى النفوس بروعة خياله ·

وحسبنا أن نقرأ أبياتا للبحترى يصف فيها الربيع ·

يقول :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا ·· من الحسن حتى كاد أن يتكلما
فمن شجر رد الربيع لباسه ·· عليه كما نشرت وشيا منمنما
ورق نسيم الريح حتى حسبته ·· يجىء بأنفاس الأحبة نعما

فالمعروف عن الربيع أنه فصل من فصول السنة ، يعتدل فيه الهواء ، وتورق الأشجار ، ولكن البحترى يتخيل الربيع وافدا يأتى مزهوا باسما ، ينطق حسنه بما أودع فيه ، فعواطف الشاعر وخيالاته هى التى جعلته يصف الربيع فى هذه الصور الأنيقة التى تخلب ألباب قارئيها ·

وقد حاول الأستاذ أحمد الشايب أن يضع مقاييس موضوعية للخيال ، فقال :

" أما بالنسبة للخيال فمقاييسه تنحصر فى :

١ — قوة الشخصيات المبتكرة ، وملاءمتها للغرض الذى ابتكرت لتمثيله ·
٢ — قوة التشابه بين المشاهد الخارجية وما توحى به من انفعالات ثم ما تبعثه من عواطف ·
٣ — جمال تصوير الطبيعة ذلك الجمال الذى يجعلنا نعشقها ، ونتأمل فى محاسنها ونتفهم أسرارها ·

---

٤ — والجدة في الصور البيانية حتى لاتكون مبتذلة أخلقها طول الاستخدام .

٥ — القدرة على إبراز المعاني بحيث تتراءى كأنها محسة أو مجسمة . وخلاصة ذلك قدرة الخيال على التعبير عن العاطفة في صدق وقوة وجمال " (١) .

٣ — المعاني :

للمعاني قيمة كبرى في الأدب (٢) . ومن الطبيعي أن تكون أول عناصر الشعر الأفكار التي يتضمنها . فكل بيت في القصيدة الشعرية يؤدي معنى جزئيا يتجمع مع غيره ليؤدي إلى المعنى الكلي الذي تؤديه القصيدة ، وإن كان المعنى في الشعر لايمكن أن يكون تقديريا مجردا شأن الفكرة الفلسفية أو العلمية ، بل هو يبرز من خلال وجدان الشاعر ، وينطبع بنظرته وتأثره النفسي .

والإدراك الوجداني للأفكار يصل الحقائق بالعواطف الإنسانية وعلى هذا يختلف مدلول الحقيقة الواحدة من شاعر لآخر تبعا لاختلاف الظروف النفسية ، وكذلك حال القراء والنقاد ، فهم يختلفون حول المعنى في النص بحسب اختلافهم في الإدراك والحالة النفسية .

---

(١) أصول النقد الأدبي ، ص ٢٢٣ .

(٢) أنظر النقد الأدبي لأحمد أمين ص ٤٦ وما بعدها .

والغرض الأول من المعانى إنما هو الإخبار بالحقائق ، وإذ ذاك يجب فى أداء هذه المعانى أن تكون (١) :

١ — غزيرة فياضة ·

٢ — دقيقة ·

٣ — واضحة ·

وحصر معانى الأدب أمر صعب ، لأن موضوع الأدب هو الحياة كلها ، بما فيها من العواطف والمشاعر ، ومدركات الحواس ، ومدركات العقول ، والمعنى الذى يعبر عنه الأديب قد يكون حقيقيا ، وقد يكون خياليا ، والمعروف أن الحقائق لاحصر لها ، كما أنه لاحصر لحدود الخيال ·

وغاية ما يراد فى معانى الأدب أن تكون صحيحة مطابقة لما لاينكره العقل الإنسانى ، وما لا تنبو عنه الطباع ، أو تنفر منه الأذواق · ويعظم الأديب فى أعين النقاد بمقدار ما يوفق إليه من المعانى التى تتسم بالجودة والجدة ، وما يظهر فيها من معالم الأصالة والابتكار ، بالإضافة إلى أناقة التعبير والإبداع فى التصوير ·

٤ — الأسلوب (لغة الشعر) :

إن العواطف والمعانى والأخيلة — وهى المقاييس التى تحدثنا عنها — ليست كافية لبناء الشعر ، بل لابد لهذه العناصر من وعاء

(١) المصدر السابق ، الصفحة نفسها ·

تفرغ فيه وهى الألفاظ ، لأن الشعر كما عرفنا تعبير عن الحياة وسيلته اللغة ، وهذه الوسيلة لاتقتصر على الشعر وحده ، بل هى وسيلة كل الفنون بلا استثناء (١) .

والمراد بالأسلوب هنا طريقة التعبير ، وغاية ما يطالب به كل ناقد منصف أن يتخذ الأديب وسيلة لغوية تؤدى للفكرة بوضوح وقوة ، لأنه لايمكن للنقد أن يضع قوانين مفصلة لتقدير الأساليب ، وذلك راجع إلى تنوع العواطف والأحاسيس .

والحال أنه كلما نضجت التجربة الشعرية فى نفس الشاعر ، وكلما صدر فيما يكتب عن حب وجدانى ، كانت لغة شعره صادقة فى التعبير عن تجربته من حيث احتوائها على ألفاظ قوية الدلالة على المعنى ذات ظلال وإيماءات تفتح آفاقا واسعة للفهم والإدراك ، ومن حيث تنظيم هذه الألفاظ بطريقة تحدث ألوانا من الموسيقى تنساب إلى الشعور ، وتجسم الدلالة على المعنى .

* * *

وبعد هذا العرض نحب أن نشير إلى ما قاله الدكتور / ماهر حسن فهمى حول ضعف هذه المقاييس العامة .

يقول :

" والواقع أن هذه المقاييس بحاجة هى الأخرى إلى مقاييس .

---

(١) أنظر — الأستاذ أحمد الشايب — الأسلوب .

فقوة العاطفة هي التي تثير الشعور ، وهذه مسألة قد لا نتفق عليها فما يثير شعوري غير ما يثير شعورك ، وسمو العاطفة عنده تتصل بالمثل الأخلاقية ، وهذه نظرة غير متفق عليها ، فمسألة الأخلاق في الفن موضع جدل كبير .

فشعر امرؤ القيس وجرير وأبي نواس وغيرهم حاد كثيرا عن الخلق ، ومع ذلك فهو فن باق .

والجمال من مقاييس الخيال ، ولكن ما هو الجمال ؟ إن علم الجمال نفسه لم يستطع أن يضع أسسا كاملة للجميل ، وبذلك ترتد مقاييسنا إلى الذاتية المحضة .

وأما مقاييس الأفكار فكلها مقاييس قديمة ونحن لم نعد ننظر للمعنى الشعري نظرة منطقية ، نصوب هذا ونخطئ ذاك كما كان يفعل أبو هلال العسكري ، أو كما كان يفعل الناقد الجاهلي .

ونظرته أيضا إلى الأسلوب مع مقاييسه التي وضعها كلها موضع تساؤل . فما هو الوضوح ؟ ألا يختلف باختلاف ثقافة القارئ ؟ وما هو الذوق ؟ ألا يختلف باختلاف الأمزجة ؟ " (١)

ثم يقول :

" هذه النظرة التي تتفسخ تحت وطأتها جوانب العمل الفني

---

(١) المذاهب النقدية ص ١٥ و ١٦ .

لم تعد ذات قيمة كبيرة فى نقدنا الآن ، وهذه المقاييس أيضا لايمكن أن تكون موضوعية ،فجانب الذاتية فيها هو الغالب ، ونحن نتعسف كثيرا حين نضع للعواطف مقاييس وللخيال حدودا وللأفكار شروطا وللأسلوب قيودا .

وتتضح صعوبة هذه المقاييس وغموضها فى مجال التطبيق . فنحن لا نستطيع أن نقرر ضعف العاطفة هنا وقوتها هناك ، إن لم يسعفنا المنهج التاريخى الذى يوضح لنا الدافع للإبداع الفنى ، وإن لم يسعفنا المنهج النفسى الذى يوضح لنا نفسية الفنان فترة الإبداع ومن هنا كان لكل مذهب نقدى مقاييسه الخاصة ، بحيث يستحيل تطبيق هذه المقاييس على كل المناهج ، والمقياس العام نفسه الذى تندرج تحته هذه المقاييس الجزئية محل جدل طويل ، كما قلنا فكرة الفن للأخلاق أو للمجتمع أو للفن ذاته بحاجة إلى أن نعرض لها عرضا مستقلا " (١) .

كما نحب أن نشير أيضا إلى أنه قد ظهرت فى العصور الحديثة عدة مقاييس (٢) :

---

(١) المصدر السابق ص ١٦ و ١٧ .

(٢) راجع كتاب " النقد الأدبى " د . سهير القلماوى ، فصل " القيم والميزان " ص ٧٢ وما بعدها ، طبعة معهد الدراسات العربية العالية عام ١٩٥٥م . وانظر كذلك كتاب " مقالات فى النقد الأدبى " د . رشاد رشدى ص ٧٠ طبعة الأنجلو المصرية عام ١٩٦٢م ، وانظر كذلك : المذاهب النقدية د . ماهر حسن فهمى ص ٢١ .

* فهناك مقياس ذاتى ٠
* وهناك مقايس خلقى ٠
* وهناك مقياس المتعة واللذة ٠
* وهناك مقياس المنفعة المادية ٠
* وهناك المقياس الجمالى ٠
* وهناك مقياس الهدف الشخصى ٠

* * *

تعقيب :

ومهما يكن من أمر فهناك حقيقة ينبغى أن نشير إليها وهى أنه قد ظهرت علوم أسهمت إلى حد كبير فى توجيه الدراسات النقدية إلى عدة مسائل ومناهج ، وعلى رأس هذه العلوم :

١ — علم النفس ٠
٢ — علم الاجتماع ٠
٣ — علم الجمال ٠

فقد أسهم علم النفس [١] فى البحث فى عملية الإبداع والخلق ،

---

(١) أنظر عز الدين اسماعيل " التفسير النفسى الأدبى " دار المعارف مصر ١٩٦٣م ، وانظر كذلك " النقد الأدبى ومدارسه الحديثة " تأليف ستانلى هايمن ، ترجمة د / إحسان عباس ومحمد يوسف نجم — دار الثقافة بيروت ١٩٥٨ م (ج ١ ص ١٠ وما بعدها) ٠

والتعرف على شخصية الأديب ، وتحديد إطارها على ضوء دراسة المواقف النفسية ، كما أسهم علم الاجتماع في استكشاف العادات والتقاليد وسائر المعطيات الاجتماعية التي تمثل الخلفية الفنية وراء عمل الأديب ، كما أن علم الجمال قد أسهم في توجيه " الدراسات النقدية إلى عدة أمور (١) :

أ — الأصالة والصنعة .

ب — التفرقة بين الفن وظله .

جـ — تغذية الذوق السليم وتنميته وتكوينه .

د — حسن التقويم .

والحق هذا يؤكد أن العلوم الثلاثة قد دخلت بشكل أو بآخر ميدان النقد الحديث ، وقد أعانت بشكل أو بآخر النقاد في التحليل والتفسير والوصف ، كما أنها أعانت في تربية الذوق الأدبي وصقله مما يجعله أكثر قدرة على التمييز ، وأكثر توفيقا في استعمال مناطق النقد .. والذى نخشاه من هذه العلوم التى لم تستقم لها نظرياتها

---

(١) انظر الأصول الفنية للأدب ، عبد الحميد حسن . نشر الأنجلو مصرية ١٣٦٨هـ ١٩٤٩م ، وانظر كذلك " اتجاهات وآراء في النقد الحديث " د . محمد نايل ص ٢٠ وما بعدها . مطبعة الرسالة ١٩٧١م .

ومبادئها ومسلماتها كلها بعد ، أن يغرق الناقد فيها ، وأن يخضع لها خضوعا ينسى معه المسلمات النقدية التي يجب الحرص عليها وعدم التفريط فيها ، وربما انتزعت منه ما يسمى " بالحاسة النقدية " (١).

---

(١) النقد الأدبي ، أحمد أمين ص ٣١٢ . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٢م .

اتجاهات النقد في العصر الجاهلي

إذا كان الشاعر ناقدا بطبعه فإننا يمكننا أن نقول إن النقد الأدبي قد ولد مع مولد الشعر، ونشأ معه، فالنقد الأدبي ظل الأدب الخلاق، ينظر فيما يستحدث من مذاهب عاطفية أو فكرية. وإذا عز وجود الأديب المبدع على غير مثال محتذى، فإن الفن النقدي يصبح بالتالي غير ذي موضوع " (١).

وإذا كان الشاعر ناقدا بطبعه فإننا يمكننا أن نقول إنه أقدر من غيره على فهم الصنعة الشعرية، وعلى إدراك أسرار الجمال أو القبح، لأنه وهو ينشىء عمله الأدبي كان يفكر ويختار، ولعل هذا يفسر لنا ما ورد من أن النابغة قد أختير حكما بين الشعراء، وكانت تضرب له قبة في سوق عكاظ.

وإذا كان الأدب صورة الحياة بما يرسمه لها من معالم قوية بارزة، وبما يوردها إليه من قيم ومفاهيم ومثل، وبما يلقيه من ضوئه الهادى الخالد على جوانبها المعتمة، وإذا كان أدب كل عصر وكل أمة انعكاسا للبيئة الطبيعية والاجتماعية لهذه الأمة، فإننا يمكننا أن نقول إن الأدب الجاهلي يصدق عليه أكثر من غيره أنه نتيجة طبيعية وصادقا لبيئته، ولحياة الجاهليين التي استلزمتها الصحراء والبادية.

---

(١) مذاهب النقد وقضاياه، الدكتور / عبد الرحمن عثمان، ص٢٠٥ الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.

فعواطف الجاهلى ، وعقليته ،وأسلوبه ، كل هذا نتيجة طبيعية للحياة الجاهلية القاسية المجدبة ، تلك الحياة التى جعلتهم يتنقلون كثيرا ،ويبعدون عمن يحبون كثيرا ، ولهذا ارتبط الشعر بظروف حياتهم ، فحياتهم القبلية جعلتهم يتغنون بمدح القبيلة وهجاء من عداها من القبائل الأخرى ، وكثرة تنقلهم جعلهم يقولون فى وصف المحبوبة ،وفى الوصل والهجر ، وفى الوقوف على الأطلال .

وعلى هذا نشأ شعر الرجز أول ما نشأ ليساير نغمات سير الجمل ، وكان لهذا الرجز أثر سحرى فى نفس الشاعر وجمله ، إذ يجعلهما يسيران مسافة بعيدة من غير أن يتعبا ،ثم تطور الرجز إلى القصائد المختلفة الأوزان .

ومن الأسف أنه لم يصلنا من الشعر القديم شئ ، وإنما وصل إلينا الشعر بعد أن نضج ، وتاريخه يرجع إلى نحو قرن ونصف قبل البعثة لا قبل ذلك " (١).

على أن ارتباط النقد بالشعر قد أتضح بصفة خاصة حينما

---

(١) النقد الأدبى ، أحمد أمين : ٢/٤١٥، النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢م .

ظهر الشعراء المتكسبون (١) بالشعر، والذين يسمون (عبيد الشعر)، فهؤلاء الشعراء كانوا يعاودون النظر فى قصائدهم، وكانوا يراجعونها، ويهذبونها، ويصقلونها .

وكان من شعراء الجاهلية الذين يعتنون بشعرهم الشاعر زهير بن أبى سلمى، فقد كان حريصا كل الحرص على تجويد شعره وتنقيحه وتهذيبه، وهو فى ذلك متأثر بأستاذه أوس بن حجر، إذ كان ينهج طريقته، ويرتضى مذهبه، فلا يظهر شعره إلا بعد أن يطمئن إلى أنه قد بلغ الغاية من الجودة والكمال .

ويقول الرواة : " إنه كان يصنع قصائده فى أربعة أشهر، ويراجعها فى أربعة أشهر، ثم يعرضها على النقاد فى أربعة أشهر أخرى، فلا ينشدها إلا بعد حول كامل، ولذلك سميت قصائده بالحوليات " (٢) .

---

(١) الحق أن العرب ما كانت تتكسب بالشعر، حتى نشأ النابغة الذبيانى، فمدح الملوك، وقبل الصلة على الشعر، وخضع للنعمان بن المنذر (أنظر العمدة لابن رشيق : ١/٨٠، تحقيق محمد محى الدين . دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٢م) .

(٢) أنظر شرح المعلقات العشر، جمع وتصحيح الشنقيطى : ص ٢٨ دار القلم بيروت .

ومعنى هذا أن زهيرا كان من أساتذة هذه المدرسة التي عرفت في تاريخ الأدب الجاهلي باسم " مدرسة المجودين " وكانت تضم من الشعراء الجاهليين أوس بن حجر، والنابغة الذبياني، وزهير، وطفيل الغنوي، ويطلق عليهم الأصمعي " عبيد الشعراء " وهو يعني أنهم يتكلفون إصلاحه، ويشغلون به حواسهم، وخواطرهم.

وإذا كان امرؤ القيس قد ابتدع أشياء استحسنتها العرب، وتبعه فيها الشعراء فإن زهيرا بن أبي سلمى قد امتاز في شعره بأنه لا يعاظل في الكلام، ولا يتبع حوشيه، ولا يمدح أحدا إلا بما هو فيه (١). ولا خلاف بين رجال الأدب ونقاده في أن زهيرا أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء في الجاهلية، وهم: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة، وتدل أخباره على عظم مكانته وعلى أنه قد نال حظه من الشهرة وبعد الصيت، ولم تحم حوله مشبهات الوضع والانتحال، كما حدث لغيره من شعراء الجاهلية.

وزهير خير من يمثل مذهب الصنعة ويفسره في الشعر الجاهلي، فإلى جانب أنه شاعر موهوب، نجده يأخذ شعره بالتنقيح والصقل، والفحص والامتحان، وطول التفتيش، وكان يعيد فيه النظر بعد

---

(١) العمدة : ٩٨/١ .

النظر ، ويجمع له كل ما يمكن من وسائل التجويد ، ولذلك قيل عنه :

"لعل الشعر الجاهلى لم يعرف شاعرا عنى بتحقيقه عناية زهير" . (١) .

وقال عكرمة بن جرير :

" قلت لأبى ، من أشعر الناس ؟ قال : أجاهلية أم إسلامية ؟ قلت : جاهلية ، قال : زهير" (٢) .

والذى لاشك فيه أن المنهج النقدى فى العصر الجاهلى كان يتمشى مع طبيعة العرب الأدبية أولا ، ومع ما أوتوا من ثقافة — وإن كانت محدودة — ثانيا .

يقول الدكتور عبد الرحمن عثمان :

" والمراحل النقدية التى يمر بها النقد العربى القديم تحددها اتجاهاته الذوقية والثقافية فى كل مرحلة من مراحله المختلفة ، ولكن الذوق الفنى سيظل هو دائما المرجع الأول والأخير فى كل دور يمر به النقد العربى " (٣) .

---

(١) تاريخ الأدب العربى د . شوقى ضيف (العصر الجاهلى) ، ص ٣٠٦ . دار المعارف الطبعة السابعة .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق أحمد شاكر : ١٣٨/١ . دار المعارف ، بمصر ، ١٩٦٦م .

(٣) مذاهب النقد وقضاياه ، ص ٢٠٥ .

ومهما يكن من شيء فالنقد قد نشأ في الجاهلية ساذجا فطريا ، يعتمد على التأثر الذاتي والانطباع الفطري ، ذلك لأن الذوق الفني هو المرجع الأول والأخير في الأحكام النقدية في الجاهلية ، ولذلك خرجت الأحكام عامة ، لأن الناقد لم تصقله ثقافة واسعة ، ولم يقع تحت تجربة علمية ، فهو ينقد دون أن يعلل أو يفسر ، فهو إذا استحسن شعرا قال عنه إنه حسن ، وإذا استهجنه أعرض عنه دون إبداء الأسباب والمبررات . وهذا في صحيحه يتفق مع طبيعة العرب ، إذ أنه لم يكن بحاجة إلى الشرح والتعليل ، فالإشارة الدالة أو اللمحة الخاطفة كانت تكفيه ، وتقارب الطبقات في سلامة الفطرة ، وصفاء الطبع ، وانقياد جمهرتهم إلى الذواقين من الشعراء كالنابغة ، جعل الجمال في الفن الأدبي من الأمور التي لا تحتمل الشرح أو التعليل ، ثم إنهم لم ينالوا من الثقافة ما يتيح لهم إعمال الفكر ، والخوض في التفسير والتعليل .

ولم تتوفر أدلة كافية تفيدنا في نشأة الأدب الجاهلي بصفة عامة ، والشعر الجاهلي بصفة خاصة ، ومع ذلك فإننا نربط بين نشأة الأدب الجاهلي ونشأة النقد الجاهلي ، وقد ذكر الجاحظ أن القصيدة نشأت في تاريخ يرجع إلى مائتي عام قبل الإسلام (١) .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ص ٦٨ طبعة بيروت .

أما عن الشعر فإن أول من نهج سبيله ، وسهل الطريق إليه هو امرؤ القيس . يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه للعباس بن عبد المطلب رحمه الله ، وقد سأله عن الشعراء :

" امرؤ القيس سابقهم : خسف لهم عين الشعر " (١)

وأيا كان الأمر فنحن نؤيد ما رآه الجاحظ ، لقربه من العهد ولمشافهته الثقاة من الرواة في أواخر القرن الثاني من الهجرة كما يقول الدكتور عبد الرحمن عثمان (٢) . على كل حال كان لتنقلات العرب إلى العراق والشام وفارس ، وللأحداث السياسية والاجتماعية التي حدثت لهم ، وللحروب التي كانت بينهم أثر كبير في شعرهم ، وعمل كل ذلك عمله في نضج الشعر وصبه في القوالب المعينة ، حتى وصل إلينا ناضجا كما نرى " (٣) .

---

(١) العمدة لابن رشيق ، ١/٩٤ .
(٢) مذاهب النقد وقضاياه ، ص ٢٠٨ .
(٣) النقد الأدبي ، أحمد أمين : ٢/٤١٦ .

ومن ألوان النقد الجاهلى :

١ ـ النقد اللغوى :

وهو القائم على نقد الخطأ فى الاستعمال اللغوى ، ويبدو أن هذا اللون من النقد قليل فى الجاهلية ، وذلك راجع إلى ما سبق أن ذكرناه من أن الجاهلى كان صاحب طبع وسليقة ، وكان استعماله اللغوى من الدقة والإصابة بحيث لا يتاح للأديب أن يجرى على غير طبعه ، أو ينازع سليقته العربية السليمة ، إذ الحال أن للبيئة والنشأة أثرا لا ينازع فى هذا الباب .

ومن النقد اللغوى ما أنشده حسان فى سوق عكاظ أمام النابغة :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى .. وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محلق .. فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فالشاعر يفتخر فى البيتين ، ولكنه أخطأ خطأ لغويا يضعف من فخره ، فقد جمع السيوف على أسياف ، وجمع كذلك الجفان على جفنات ، وهو جمع قلة لا يناسب مقام الفخر .

ولذلك قال له النابغة :

" أنت شاعر ، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك " (١) .

---

(١) أنظر دراسات فى النقد الأدبى ، الدكتور حسن جاد ، ص ٤٠ ، طبعة عام ١٩٧٧م .

ومن النقد اللغوى المبنى على الذوق الفطرى نقد طرفة ابن العبد للمتلمس فى قوله :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره ... بناج عليه الصيعرية مكدم[1]

فقد روى أن طرفة حينما سمع هذا البيت قال قولته المشهورة : " استنوق الجمل " .. لأن الصيعرية سمة وعلامة فى عنق الناقة ، لا فى عنق البعير ، فجعلها المتلمس للفحل من الإبل ، وهذا ما لا يجوز لغويا .

ويروى أنه كان للعرب فى الجاهلية أسواق يجتمعون فيها ، يتناشدون الأشعار ويتدارسونها ، ويتناقدون ، وقد قيل ما قيل عن هذه الأسواق ، وعلى وجه الخصوص " سوق عكاظ " . وفيه برز النابغة الذبيانى فى نقد الشعراء وفى تفضيل بعضهم على بعض ، كما فضل الأعشى والخنساء على غيرهما من الشعراء .

وذكروا أن النابغة نفسه قد أقوى[2] فى شعره حين قال :

أمن آل مية رائح أو مغتدى ... عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غدا ... وبذاك خبرنا الغراب الأسود

---

(١) النقد الأدبى ، أحمد أمين : ٤١٧/٢ . وانظر أيضا تاريخ النقد الأدبى عند العرب ، طه أحمد ابراهيم .

(٢) نقد عروضى .

فالدال فى البيت الأول مكسورة ، وفى البيت الثانى مضمومة ، وقد روى أن النابغة حين قدم المدينة عابوا عليه ذلك ، بأن دعوا قينة وأمروها أن تغنى البيتين ، وأن تمد فى الدال ، ففطن لذلك ، فغير الشطر الثانى من البيت الثانى على هذا النحو :

(وبذلك تنعاب الغراب الأسود) (١) .

ومن النقد اللغوى كذلك " ما فعلته قريش فى أنها وقفت موقف المتخير الناقد تختار من كل قبيلة أحسن ما عندها من ألفاظ وأساليب ، وتبسط سلطان لغتها على القبائل الأخرى " (٢) .

يقول الدكتور عبد الرحمن عثمان عن النقد اللغوى :

" ويبدو أن قلة النصوص النقدية فى مجال اللغة واستعمال الكلمات راجع إلى ما قلنا فى صدر الحديث مما يتصل بالطبع والسليقة ، والاستعمال اللغوى ، كان فى الجاهلية من الدقة والإصابة بحيث لا يتيح للأديب أن يجرى على غير طبعه ، أو ينازع سليقته العربية السليمة ، فإن للبيئة والنشأة أثرهما الذى لا ينازع فى هذا الباب " . (٣)

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٥ .

(٢) النقد الأدبى ، أحمد أمين : ٢ / ٤١٦ .

(٣) مذاهب النقد وقضاياه ، ص ٢١٣ و ٢١٤ .

٢ — النقد الفني :

وهو نقد يقوم في أساسه على الصلة بين الفن والفطرة الباصرة ، ويعتمد على استحسان المعنى الشعري أو استهجانه بالفطرة السليمة التي تهيأت للجاهلي . وليس من شك في أن الجاهلي قد استطاع أن يرقى بفنه الشعري ، وأن يمضي في تطوره على سنن من الفهم الأصيل والثقافة البريئة من التعقيد .

يقول الدكتور عبد الرحمن عثمان (١) :

" كان من نتائج استقرائنا الدقيق لكل ما قيل في هذا الموضوع قديما وحديثا أن اهتدينا إلى حقيقة لها وزنها في النقد الجاهلي من جهة المعنى ، وهذه الحقيقة هي أن العربي بذوقه الفطري وثقافته التي عرفناها له كان حريصا على تطور فنه الشعري كل الحرص ، والصعود به إلى مستوى يراه أليق بهذا الفن الجميل ، ومهما يقال من شروح وتحليل على هدى العقل المثقف ثقافة عالية ، فإن معينها الذي تفجرت منه أولا هو : الذوق الفطري ، والثقافة الفطنة على ما بها من سذاجة ، وبهذا ستظل الفنون دائما تستمد جمالها وخلودها وأصالتها من معينها الذي انفجرت منه ، وصدرت عنه ، حتى في أحفل العصور وأغناها بالثقافة والعقل النشيط " (٢) .

---

(١) مؤكدا ما ذهبنا إليه .

(٢) مذاهب النقد وقضاياه ، ص ٢١٤ .

ويقول :

" وبهذه الصلة القوية بين الفن والفطرة الباصرة ، استطاع الجاهلى أن يرقى بفنه الشعرى ، وأن يمضى فى تطويره على سنن من الفهم الأصيل ، والثقافة البريئة من التعقيد ، وبهذه الصلة التى عقدناها بين الفن والفطرة السليمة ، نستطيع أن نتجاهل — فى غير جهل — تحامل بعض المحدثين من النقاد على النقد العربى للشعر وهو فى جاهليته ، على أنه نقد ساذج لا جدوى فيه ، لأنه لا يفصح عن شىء يفهمه القارىء ، ويستريح إليه ، والفهم والاقتناع من أوليات النقد الأدبى ، وهذا حق ، ولكننا نتجاهله كما قلنا ، فالجاهلى أو العربى بصفة عامة حين ينقد عن فهم لقوم يفهمون ، يشعر أنه فى غير حاجة إلى الإسهاب والتعليل ، لأن السامعين ، فى غير حاجة إلى مزيد من الشرح والإطالة ، لأنهم ذوو سليقة لها من الأصالة ما يحجز الناقد عن الثرثرة فى أمر يفهم باللمح والإشارة وهكذا حدد الجمهور العربى فى الجاهلية مهمة الناقد فاقتصر عليها ولم يزد " (١) .

ومن النقد الفنى (٢) :

أ — المفاضلة بين الشعراء :

وهو نقد بدائى يقف عند بيان مزايا الشعراء أو عيوبهم ، ومن هذا

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٢١٤ و ٢١٥ .

(٢) راجع فى هذا الحيوان للجاحظ (الجزء الأول) . والشعر والشعراء لابن قتيبة . والعقد الفريد لابن عبد ربه (الجزء =

ما روى أن بعض شعراء تميم اجتمعوا فى مجلس شراب ، وكان بينهم الزبرقان بن بدر ، والمخبل السعدى ، وعبدة بن الطبيب ، وعمر بن الأهتم ، وتذاكروا فى الشعر والشعراء ، وادعى كل منهم أسبقيته فى الشعر ، وتحاكموا ، فقال الحكم :

" أما عمرو فشعره برود يمنية ، تطوى وتنشر ، وأما الزبرقان فكأنه رجل أتى جذورا قد نحرت فأخذ من أطايبها وخلطه بغيره ، وأما المخبل فشعره شهب من الله يلقيها على من يشاء من عباده ، وأما عبدة فشعره كمزادة أحكم خرزها فليس يقطر منها شئ " (١)

ب — الموازنة بين النماذج :

ومن ذلك نقد أم جندب لشعر زوجها امرئ القيس ، وابن عمها علقمة ، حين حكماها بينهما :

فقد قالت لزوجها : علقمة أشعر منك ، لأنك قلت فى وصف فرسك :

فللسوط ألهوب وللساق درة .. وللزجر منه وقع أخرج مهذب (٢)

فجهدت فرسك بسوطك ، وأتعبته بساقك . وأما علقمة فقال :

= الرابع) . وتاريخ النقد الأدبى عند العرب للأستاذ طه أحمد إبراهيم .

(١) النقد الأدبى ، أحمد أمين : ٢/٤١٧ .

(٢) الأخرج : ذكر النعام . مهذب : مسرع .

فأدركهن ثانيا من عنانه .. يمر كمر الرائح المتحلب

فلم يضرب فرسه أو يتعبه » (١)

ويقول الدكتور عبد الرحمن عثمان عن هذا الموقف النقدى :

(وما دمنا غير مطمئنين للموازنة التى عقدتها أم جندب بين قصيدتى امرىء القيس وعلقمة ، فإننا فى حل من إنكار هذا النوع من النقد ، فالجاهليون لم يعرفوا عنه شيئا ، إذ هو أدق الأنواع فى المناهج النقدية وأرقاها ، وأشدها وعورة وخفاء ، فليس بمعقول أن يهتدى إليه الذهن العربى بمثل ما يعزى إلى أم جندب ، فإذا شاء أن يثبته ناقد فى الحديث عن النقد الجاهلى ، فإن له ذلك ، ولكن على أن يبطل ما سقنا من أدلة ، وأن يزيل بالحجة كل ما يثور حول هذه القصة من شكوك » (٢) .

وأيا ما كان الأمر فإن نقد أم جندب إذا صح ، فإننا نقول إنه من صميم النقد التحليلى الذى ورد — مع قلته — فى العصر الجاهلى ، نظرا لأنه عصر الملكات والذوق ، والقرائح السليمة .

---

(١) دراسات فى النقد الأدبى ، الدكتور / حسن جاد ، ص ٣٩ و ٤٠ .

(٢) مذاهب النقد وقضاياه ، ص ٢٢٦ و ٢٢٧ .

جـ ـ النظر فى المبالغة :

ليس من الممكن إنكار دور المبالغة فى الشعر ، لكن يشترط فى المبالغة أن تتوافق وحياة الجاهليين التى نشأوا فيها ، فتكون من ثم معقولة ، تتلاءم والطبع العربى ، وعلى ذلك نظر النقاد الجاهليون إلى المبالغة الشعرية ، الأمر الذى يؤكد اعتدال الذوق الفطرى عندهم .

فقد انتقد الذوق الجاهلى مبالغة عنترة بن شداد حين يتغزل بمحبوبته عبلة (١) :

فإذا شربت فإننى مستهلك .. مالى وعرض وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى .. وكما علمت شمائلى وتكرمى

ولم ينتقد مبالغة الشاعر الجاهلى أوس بن حجر فى وصف السحاب الكثيف :

دان مسف ، فويق الأرض هيدبه .. يكاد يلمسه من قام بالراح

وهذا يؤكد أن الذوق الجاهلى ينفر بطبعه من المبالغة اللامعقولة ، ويراها هى والكذب سواء . ولذلك لم يختلف النقاد

---

(١) شرح المعلقات السبع ، للزوزنى : ص ١٥٧ و ١٥٨ .

حول بيت المهلهل :

فلولا الريح أسمع من بحجر ... صليل البيض تقرع بالذكور

في أنه أكذب بيت قالته العرب .

د — النظر في جودة الشعر :

وعلى هذا الأساس فقد نظر أحيحة بن الجلاح إلى قول الشماخ (١) :

إذا بلغتني وحملت رحلي ... عرابة فاشرقي بدم الوتين

وعاب عليه أن يقابل الإحسان بالإساءة في شعره ، وكان الشماخ قد أراد لناقته النحر، وذلك بعد أن تقوم بتوصيله إلى الممدوح ،فعاب عليه أحيحة ذلك وقال له : " بئس المجازاة جازيتها " .

هـ — الربط بين الألفاظ والمعاني :

سبق أن قلنا إن الأدباء والنقاد قد بحثوا منذ زمن قديم عن العوامل والأسباب التي يبلغ بها الفن الأدبي غايته من التأثير في عواطف القراء والمستمعين ،وفي عقولهم .

وقد استطاعوا أن يتبينوا أن هذا الفن إنما يتميز بخاصية لم يجد وهما مجتمعين في أسلوب التخاطب بين عامة أصحاب لغة من

(١) مذاهب النقد وقضاياه ، ص ٢٢٢ .

اللغات ، وأرجعوا إلى هاتين الخاصتين السر فى الإحساس بما فيه من متعة أو منفعة ، وفى الإعجاب بمواهب الأدباء ، وتقدير الفن الأدبى .

وهاتان الخاصتان هما اللفظ الجيد ، والمعنى الممتاز . غير أنهم وجدوا أن الكلام المنظوم فيه عظة وحكمة أعجبت بعض العلماء ، وأعجبت الجاحظ أيضا ما اشتملت عليه من المعانى الجيدة فقال كلمته المأثورة :

" المعانى مطروحة فى الطريق ، يعرفها العجمى والعربى ، والبدوى والقروى " (١) . ومع ذلك فالجاحظ لم يعد صاحب هذا النظم من الشعراء ، لأنه فتش عن معالم الإجادة عنده فلم يلفها إلا فى المعنى وحده .

وقد كان الأمر كذلك فى النظر إلى الصياغة والتركيب . فهناك كلام ليس لصاحبه فيه إلا الظواهر التى تبدو فى صحة الأوزان ، وفى وحدة الأنغام ، واستقامة القوافى ... ووجدوا كذلك أن زخرفة الكلام أمر ليس بعيد المنال .

وهذا جعل العلماء والنقاد يقررون أن الأدب ليس معانى وأفكارا فقط ، وليس صورا وتراكيب فحسب ، وإنما مظاهر الفنية

---

(١) الحيوان : ٢/٤١ . طبعة ساسى ، القاهرة ١٣٢٣هـ .

الأدبية إنما هو فى إجادة صياغة المعانى ، والإبداع فى التعبير عنها ، ولذلك قال الجاحظ بعد عبارته السابقة :

"إنما الشأن فى إقامة الوزن ، وتمييز اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج ، وفى صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من الصبغ وجنس من التصوير" .

وإذا كنا قد قلنا إن عبد القاهر الجرجانى زعيم مدرسة المعنى ، فليس ذلك لأنه يغض من شأن اللفظ والعبارة عنه ، أو لأنه يرى أن التعبير الممتاز كالتعبير المبتذل فى الحكم على الأدب وتقدير الأدباء .

لم يرد عبد القاهر ذلك . وصريح كلامه :

"كيف يتصور أن يصعب مرام اللفظ بسبب المعنى ؟ وأنت إذا أردت الحق لا تطلب اللفظ بحال ، وإنما تطلب المعنى ، وإذا ظفرت بالمعنى فاللفظ معك وإزاء ناظرك" (١) .

والحقيقة أن اللفظ والمعنى لا يبدوان إلا متصلين ، وقد أحسن القدماء حين شبهوا المعانى بالأرواح ، والألفاظ بالأجساد ، ذلك لأننا لا يمكن بأى حال من الأحوال أن نبين معنى أو فكرة إلا إذا كان مقيدا فى لفظ ، ومن جهة أخرى لا قيمة للفظ من حيث هو

---

(١) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجانى ، ص ٤٩ .

أصوات أو أجراس حروف تتوالى في المنطق ، وإنما قيمته في المعنى الذى يتحمله .

هذا وكان النابغة الذبيانى حكما بين الشعراء ، في سوق عكاظ ، وكان شعراء القبائل ينشدونه أشعارهم ، واجتماع العرب على الرضا بآراء النابغة ، وقضائه بين شعرائهم ، يدل على أمرين لهما خطرهما (١) :

أولا : أن العرب في الجاهلية كانوا معنيين بالنقد على أنه الوسيلة إلى تطوير الفن الشعرى ، لأن النقد في تقديرهم استنهاض لهمم الشعراء ، وإذكاء لروح المنافسة والسبق فيما بينهم ، ولأن مجد القبيلة يتمثل في براعة شاعرها ، والقضاء له بالإحسان والجودة على مشهد من العرب جميعا .

وثانيهما : وهو خاص باختيار الناقد ، فهم يشترطون فيه أن يكون شاعرا فحلا ، وصاحب تجارب وبصر بالشعر على ضوء خبرته الواسعة " .

وتحكيم النابغة في الشعر أمر مقرر في تاريخ النقد ، فهو بلا شك جدير بثقة الفصحاء الأذكياء من العرب ، كما أنه يعتبر طرازا عاليا للفهم الدقيق للتقاليد والعادات السائدة في البيئة الجاهلية (٢) .

---

(١) مذاهب النقد وقضاياه ، ص ٢١٧ و ٢١٨ .
(٢) انظر النقد اللغوى ، وقول النابغة لحسان .

٣ — النغم المتناسق :

لا شك أن الشعر يختلف عن النثر بما فيه من نغم متناسق ، يتألف من الوزن والقافية ، ويكتمل نضج الشعر بما فيه من وزن واحد ، وقافية متحدة في حرفها الأخير .. ذلك وحده هو الوسيلة التي يسحر بها الألباب ، ويسيطر بسببها على المشاعر والأحاسيس .

ويختل النغم الشعري إذا كان هناك عيب من عيوب الوزن ، أو عيوب القافية (١) . وقد حدث أن قبل النقد الجاهلي أنواعا من القصائد اضطرب فيها الوزن اضطرابا شديدا ، ولم يعلن الناقد الجاهلي عن سخطه على مثل تلك القصائد ، وذلك كما حدث في قصيدة لـ " عبيد بن الأبرص " وهو شاعر قديم الذكر ، عظيم الشهرة (٢) .

يقول ابن رشيق في الوزن الشعري :

" الوزن أعظم أركان حد الشعر ، وأولاها به خصوصية ، وهو مشتمل على القافية ، وجالب لها ضرورة ، إلا أن تختلف القوافي فيكون ذلك عيبا في التقفية لا في الوزن ... " (٣) .

ويقول أيضا :

" وعند أكثر العلماء : اختلاف إعراب القوافي إقواء " (٤) .

---

(١) انظر العمدة لابن رشيق ، الجزء الأول ص ١٣٤ وما بعدها .
(٢) انظر طبقات الشعراء للجمحي ص ٤٩ و ٥٠ .
(٣) العمدة : ١/ ١٣٤ .
(٤) العمدة : ١/ ١٦٥ .

وبعد هذه الجولة يمكننا أن نقول إن النقد الجاهلي في مجموعه نقد يقوم على الفطرة ، وإذا كانت النصوص النقدية في هذا العصر قليلة بدرجة ملحوظة ، فإن هذا لا يمنع من أن يكون هناك اتجاه نقدي في العصر الجاهلي ، وإن اكتنف الغموض هذا الاتجاه ، فقد اختار الجاهليون النابغة ناقدا لشعرائهم ، وهذا الاختيار يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن النقد قد نشأ مع الشعر ، كل ما في الأمر أن هذا النقد كان في الجاهلية يعتمد على الفطرة والذوق ، وقد صدر عن أذواقهم وتأثرهم بالجمال حسبما ركبت فيهم من طباع .

النقد الأدبي في العصر الإسلامي

عصر صدر الإسلام

أثر الإسلام في اللغة والأدب :

الحقيقة أن الإسلام قد غير حياة العرب عامة بكل مظاهرها المختلفة ، فلقد جمع العرب كافة على لهجة قريش ، وأتاح لهذه اللهجة أن تنتشر لا في العالم الإسلامي فحسب ، بل أن تظل على مر العصور جديدة غضة لا تبلى على مر الزمان ، واتخذتها شعوب لا حصر لها لسانها ، وفوق ذلك فالإسلام قد حول العربية إلى لغة ذات دين سماوي ، وأحل فيها معاني سامية لم تكن تعرف من قبله ، ولا كانت تعرف العبارة عنها ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن كل ما كسبه العرب من معارف إنما كان بفضل ما غرسه فيهم القرآن .. يضاف إلى ذلك أن القرآن الكريم قد هذب لغة العرب من الغريب والحوشي وجعلها تقوم في أسلوب من البيان والبلاغة (١) .

وكانت قريش منبع الفصاحة والبلاغة ، وقد حاولت أن تسير على هدى القرآن الكريم ، فأخذ شعراؤها يصوغون آثارهم

---

(١) أنظر تفصيل ذلك في تاريخ الأدب العربي ، د. شوقي ضيف (العصر الإسلامي) ، ص ٣٠ وما بعدها .

الأدبية مهتدين بديباجته وحسن مخارج الحروف فيه ودقة الكلمات ورصانة التراكيب . يضاف إلى ذلك أن الإسلام قد رسم الطريق للأدباء ووضحه ، وسار الأدباء على ذلك المنهج المرسوم ومن هؤلاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك .

وإذا كان الأدب (شعرا كان أم نثرا) مظهرا من مظاهر الحياة المختلفة فإن تأثير الإسلام فيه أمر لا مفر منه كما أثر الإسلام فى غير الأدب من نواحى الحياة ، وبناء على ذلك أخذ الإسلام يرقق ألفاظ اللغة ، ويبعدها عن الجفاء والغلظة ، كما حول أساليبها إلى العذوبة والسلاسة ، وليس من شك فى أن المسلمين من غير العرب ، قد ساهموا فى رقى أدب اللغة العربية فبرز شعراء وخطباء وكتاب ساهموا بنصيب كبير فى توسع الأدب وفى تعدد أغراضه .

وأخذ القرآن الكريم الذى هو كتاب الله المحكم المنزل على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، أخذ يغير عقلية العربى ويرقق عاطفته ، فأصبح يختار من الكلمات ألينها ، ومن الأساليب أسهلها ، وأخذ يبتعد عن الكلمات الجافية الغليظة ، وشعر حسان وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك خير شاهد على ما نقول ، فشعرهم متأثر بألفاظ القرآن وبأسلوبه ، وقد شاعت فيه الكلمات الإسلامية مثل : الصلاة ، القيام ، الركوع ، السجود ، الوضوء ، المؤمن ، الكافر ، الإيمان ، الفرقان ، النفاق ، وغير ذلك ..

وأخذ المسلمون من ثم يهتمون بعلوم العربية مثل النحو والصرف واللغة ليحفظوا القرآن من اللحن ، وهذا الاهتمام إنما هو أثر من تأثرهم بالقرآن الكريم ، وقد عنوا كذلك بعلوم البلاغة من بيان ومعان وبديع لكي يبينوا إعجاز القرآن الكريم ، وليس من شك في أن ذلك الاهتمام قد أثرى أيما إثراء اللغة العربية وطور أساليبها .

يضاف إلى ذلك أن الحديث الشريف وهو ما صدر عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من قول أو قام به من عمل أو أقر بما قيل أو عمل أمامه ، هذه الأحاديث النبوية المتواترة والمروية بألفاظها عن الرسول إنما هي آية في الفصاحة والبلاغة والبيان ، والذين يستمعون إلى أحاديث الرسول الكريم إنما يؤخذون بروعة البيان ودقة التعبير وسلامة الألفاظ وجودة العبارة .

وقد ساهم الحديث الشريف بجانب القرآن الكريم في نشر اللغة العربية وتعليمها للمسلمين من غير العرب ، ونشأت من ثم الدراسات المعتمدة على الحديث من شرح له وتوضيح غريبه ، وهذه الدراسات قد وسعت دائرة اللغة في الاشتقاق وشرح الغريب بلفظ مرادف ، هذا إلى أن ألفاظا وتعبيرات في اللغة العربية قد شاعت بعد أن تناقل الناس أحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان الأدب ألفاظا مختارة وأساليب مجودة وتراكيب متقنة ومعان مؤثرة ، فإن الأديب إذا بحث عما يهمه ويعنيه

فى صنع أدبه فإن الحديث الشريف بلا شك يعد المصدر الثانى بعد القرآن الكريم ، ولا شك أن أسلوب الحديث المؤثر قد أثر فى أدباء المسلمين ، فأخذوا يقلدونه ، ويسيرون على نهجه ، وقد وسع الأدباء معارفهم عن طريق حفظ الأحاديث النبوية وروايتها والاستفادة من ألفاظها ومعانيها وتعبيراتها وأصبحت الأحاديث مصدر إلهام لهم يستمدون منها المعانى ، ويستفيدون من أساليبها ، حتى استقامت أساليبهم ، وقويت لغتهم .

* * *

ونمضى مع النقد فى صدر الإسلام فنقول : إذا كان القرآن الكريم قد غير حياة العرب ، وأذهل فصحاءهم بنسقه الفريد ، وحلاوة نظمه ، وفيهم الفصحاء ، والشعراء الفحول ... فهل كان هذا سببا فى انصرافهم عن الأدب ونقده آنذاك ؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال نحب أن نؤكد على حقيقتين هامتين :

الحقيقة الأولى :

وهى أن الحرب الشعرية كانت على أشدها - قبل فتح مكة - بين المسلمين والمشركين ، وقد تراشق الفريقان بهجاء كان وقعه على الفريقين أشد من وقع السهام فى الحروب .

الحقيقة الثانية :

وهى أن الشعر لم يقتصر على التهاجى بين المسلمين والمشركين بل كان له نشاط ملحوظ فى موضوعات شعرية أخرى مثل : الرثـاء ، ووصف الخمر ، وما إلى ذلك من الموضوعات .

النقد في صدر الإسلام :

وإذا ما تركنا أثر الإسلام في اللغة والأدب ، ومضينا مع النقد في صدر الإسلام ، وجدناه في حقيقة الأمر امتدادا للنقد الجاهلي ، فهو يعتمد على الفطرة والذوق ، ويكتفي في الغالب الأعم بالأحكام العامة في الاستحسان أو الاستهجان دون الاهتمام بالتفسير أو التعليل ، كل ما في الأمر أنه راعى المبادىء الأخلاقية التي جاء بها الدين الجديد .

وقد ظهر أثر النقد واضحا في استنهاض همم الشعراء للدفاع عن العقيدة الإسلامية ، ولدعم المبادىء الإنسانية التي جاء بها القرآن الكريم ، وهذا واضح فيما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم (١) .

ولما أنشدته عائشة أم المؤمنين قول زهير بن جناب :

ارفع ضعيفك لا يحربك ضعفه ... يوما فتدركه عواقب ما جنى
يجزيك أو يثني عليه وإن من ... أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

قال عليه الصلاة والسلام :

" صدق ياعائشة . لا شكر الله من لا يشكر الناس " (٢) .

---

(١) أنظر دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٩ وما بعدها ط المنار .

(٢) العقد الفريد : ٣٨٢/٣ عن دراسات في النقد للدكتور حسن جاد ، ص ٤١ و ٤٢ .

وقد روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم استدرك على كعب بن مالك ، وأنه استمع إلى النابغة واستحسن قوله ، كما أنه قد أعجب بقصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) وكان يقول لجلسائه عند إنشاء كعب لها : اسمعوا ، وقبل توبته ، وخلع عليه رداءه (١)

وأما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فإنه لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر (٢) . وقد استفاضت الروايات فى نقده رضى الله عنه لشعر زهير بن أبى سلمى ، وعد نقده هذا فلتة من فلتات ذلك العصر .

فقد طلب عمر من ابن عباس أن ينشده لأشهر شعرائهم ، فقال ابن عباس : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير ، فقال ابن عباس : ولم كان كذلك ؟ قال عمر : كان لا يعاظل بين الكلام ، ولا يتتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه .

وهذه الرواية تجعلنا نضع ابن الخطاب فى الصدارة حين يذكر النقاد العرب ، فنقده نقد موضوعى يعد من صميم المنهج الفنى الذى ينظر إلى شكل العمل الأدبى وموضوعه . يقول الدكتور عبد الرحمن عثمان :

---

(١) المصدر السابق ص ٤٢ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ : ١/٢٠٤ ، عن ابن سلام عن بعض أشياخه (طبقات الشعراء للجمحى ، ص ٢٩ ط صبيح) .

" وإعجاب عمر بالحذق في الصناعة الشعرية عند زهير بن أبي سلمى ، يجعله — لا محالة — معجبا بصياغة الشاعر الحطيئة ، وحوكه القريض ، لأنه تلميذ زهير، وراوية شعره ، غير أن إعجابه بحكم العرب من حيث صدقه وأمانته في محاكاة الصفات التي يألفها الموضوع الشعري ، ولا ينبو عنها باعتبارها صفات غير غريبة أو منتحلة يجعله كذلك منصرفا بعض الشيء عن شعر الحطيئة ، ولكنه انصراف فيه تلفت إلى حذق الصناعة الشعرية ، وفيه كثير من الإعجاب ببراعة الحطيئة ، وأناته الحاذقة في تقويم قريضه ، وذلك شأن الناقد الذواقة حين ينظر إلى فن شاعر جمع في نتاجه قبحا إلى حسن كثير " (١) .

ويقول :

" فابن الخطاب قد شرع في النقد العربي أصلا جديدا يراه لازما في الشعر حتى يوفر له جماله وحسنه ، وهذا الأصل — كما أسلفنا — يتمثل في السهولة والحذق في الصناعة ، والبعد عن التعقيد الذي يتداخل به الكلام فتخفى مسالكه ، وفي التزام جانب الصدق في واقع الناس والحياة ، ولإيمانه بهذا المذهب ووجوب التزامه في الفن الشعري رغب — وهو المثال في العدل — في أن يثيب عليه الشعراء من بيت مال المسلمين " (٢) .

---

(١) مذاهب النقد وقضاياه ، ص ٢٣٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٩ .

... هذه هي حالة النقد في صدر الإسلام ، والواضح أنه قد تأثر إلى حد كبير بتعاليم الدين الإسلامي ومبادئه ، وقد خضعت مقاييسه لتلك التعاليم والمبادئ في هذا العصر .

النقد في عصر بني أمية والمؤثرات العامة

الواقع أن تاريخ الدولة الأموية يمثل بكل المقاييس صورة حقيقية للصراع الحزبي (١)، فقد ظهر على الساحة السياسية الأحزاب التالية :

١ – الأمويون .
٢ – الخوارج .
٣ – الشيعة .
٤ – الزبيريون .

ويمكن القول إن الأهواء والأغراض في عصر بني أمية قد اختلفت، وأصبحت ميدانا تتصارع فيه تلك الأحزاب (٢) .

---

(١) انظر كتابنا " الفروسية في شعر الخوارج " (الفصل الأول) .

(٢) أنظر فجر الإسلام، أحمد أمين، ص ٢٦٦ وما بعدها، مطبعة النهضة المصرية، الطبعة الثانية عشرة، ١٩٧٨م، وأنظر أيضا : الكامل لابن الأثير : ٣٤٨/٤ وما بعدها، دار صادر بيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، وانظر أيضا : أدب السياسة في العصر الأموي، الدكتور أحمد الحوفي، ص ١١٥ و ١١٦ دار نهضة مصر، الطبعة الخامسة .

أما الحياة الاجتماعية فى هذا العصر فقد نشطت ، لأن مظاهر الملك بالدولة قد قامت ، واقتنى الخلفاء والأمراء القصور، وأقاموا الحجاب والحراس، وأحيوا من المناقب العربية ما يعين على تدعيم السياسة الأموية والملك الأموى .

كذلك شهد العصر الأموى سلسلة من التحولات الاجتماعية غذتها عوامل متعددة ، وكان من أهمها امتزاج حضارات الأمم المختلفة (١) ، وتأثر العرب بها وأخذهم عنها . وبدأت بوادر هذا التأثر واضحة فى البيئات التالية :

الحجاز :

كانت الحجاز فى العصر الأموى — وخاصة مكة والمدينة — زاخرة بالحياة ، غنية بأنواع الترف ، حيث شاع اللهو والترف فى المجتمع ، وكان على رأس ضروب اللهو والترف فن الغناء ، حتى إنه ليخيل لمن يتصفح كتاب الأغانى أنه لم يعد للناس فى مكة والمدينة فى أثناء هذا العصر من عمل سوى السماع للغناء حتى العباد والفقهاء كانوا يطلبونه " (٢) .

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى ، د . شوقى ضيف : ١٩٣/٢ وما بعدها ، دار المعارف الطبعة الثانية .

(٢) انظر التطور والتجديد فى الشعر الأموى ، الدكتور شوقى ضيف ص ١٠١ . دار المعارف ، الطبعة السادسة .

ومن يراجع شعر الحجاز يجده فى أكثره يؤلف للغناء ، كما يجده فى مجموعه يعبر عن ذوق جديد وحضارة جديدة ، وهذا هـو السبب فى الاختلاف الشديد بين شعرهم وبين شعر الجاهليين .

وخير من يصور لنا هذا الذوق هو الشاعر الأحوص ، فالحياة عنده ليست إلا العشق والهوى ، وقد عشق من المغنيات الكثيرات ، ودار شعره غالبا حول الحب والغزل ، وقد أخذ الغناء يؤثر فى شعره بصوره المختلفة (١) .

وخير من يمثل النقاد فى الحجاز فى ذلك العصر هو " ابن أبى عتيق " و " سكينة بنت الحسين بن على " ، فهما خير من يمثل نزعة أهل الحجاز وظرفهم ، هذا فضلا عن اهتمام كل منهما بالأدب ونقده (٢) .

الشام :

ولئن كان الأدب فى الحجاز أكبر مظهر له هو الغزل ، والنقد يتبعه ، فالشام أكبر مظهر لأدبه هو المديح ، وقد قامت حوله حركة نقدية فى قصور الخلفاء ، وأنديتهم ، كتلك الحركة التى قامت فى الحجاز حول الغزل .

---

(١) انظر الأغانى : ٩٦/٢١ وما بعدها . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م .

(٢) انظر النقد الأدبى ، أحمد أمين : ٤٢٢/٢ .

وقد كان النقد في الشام كما كان في الحجاز ، يعتمد على الذوق الفطري المصقول بطول النظر في الشعر، واستيعاب نماذجه وتمثل طرائق العرب في التعبير والتصوير . كل ما في الأمر أن الروح القبلية قد سيطرت على الأمويين في نقدهم غالبا ، فهم يتعصبون لكل ما هو عربي قديم ، ولا يستجيدون من الشعر إلا ما وافق منهج القدماء في الأساليب وطرق التفكير والتصوير .

هذا وكان الخلفاء هم عمد مدرسة الشام ومحورها ، ولم لا وقد كانت الشام هي مركز الخلافة ؟ ولذلك اهتم الخلفاء بالشعر والنقد ، وأخذوا يشجعون عليهما ، كما أنهم اجتذبوا الشعراء والنقاد إلى قصورهم ، وكل هذا كان له أثره على الأدب والنقد (١) .

يقول الأستاذ أحمد أمين :

" فدمشق عاصمة الخلافة الأموية ، والشعراء يفدون على الخلفاء بمدائحهم التي أنفقوا فيها عمرهم ، والخلفاء يعطون عليها فيجزلون العطاء ، إما سياسة منهم حتى يتألفوا الشعراء ويأمنوا شر ألسنتهم ، ويستجلبوا منهم الثناء عليهم ، فيشيع ذلك في الناس ، وإما تقديرا للشعر نفسه ، وإعجابا به ، وخلفاء بني أمية كانوا عربا في نسبهم ، وعربا في ذوقهم ، فلا عجب أن يعجبوا بالشعر ويطربوا له ، ويكافئوا عليه ، وإما للسببين معا .

---

(١) انظر المصدر السابق : ٢/ ٤٢٩ .

فمن عهد معاوية إلى عهد مروان بن محمد والشعراء تفد على دمشق بمدائحها فى ملوكها . وكانت قصور الخلفاء الأمويين فى تقاليدها كثير من طباع العرب ، سهولة حجاب ، وكثرة وفود وزوار ، وإمداد سماط لمن حضر ، وكثرة تردد على الخليفة للأمور الجليلة والحقيرة " (١) .

العراق :

أما مدرسة العراق فهى مدرسة الهجاء والنقائض التى نهض بها الفرزدق وجرير والأخطل وغيرهم . وكان الشعر العراقى يشابه الشعر الجاهلى فى موضوعه وفحولته ، وأسلوبه ،فنهضت من ثم العصبية القبلية ،وصارت على أشدها وأعنفها .

ولا ينبغى أن ننسى أن بيئة العراق بيئة علمية ثقافية ، وكان بالقرب من البصرة سوق يشبه سوق عكاظ فى الجاهلية ، وهو سوق المربد ، وكان الشعراء يتناشدون فيه الأشعار ، يهاجون ويتفاخرون ويعلى كل شاعر من شأن قبيلته ، ويضع من شأن غيرها من القبائل ، وكان لكل شاعر من شعراء المربد حلقة ينشد فيها شعره وحوله الناس يسمعون منه ، ولكل شاعر حزب ينتصر له ويتعصب له (٢) .

---

(١) النقد الأدبى : ٤٢٩/٢ ، ٤٣٠ .

(٢) انظر المصدر السابق : ٤٢٤/٢ ، ٤٢٥ .

وقد خلف لنا هذا السوق نقائض كثيرة ، وهى فى مجموعها شعر يخالف الشعر الحجازى بالأسلوب الفخم الذى يشبه الأسلوب الجاهلى ، والمعانى البدوية التى لم تمسها الحضارة إلا مسا رفيقا ، والتى يشيع فيها الفخر القبلى .

ومن أشهر نقاد العراق : عنبسة الفيل ، وحماد بن مسلمة ، وخلف الأحمر ، والأصمعى ، وأبو عبيدة ، والمفضل الضبى ، وغيرهم. وجديربالملاحظة أن هؤلاء العلماء النقاد من اللغويين والنحويين لم يكونوا على درجة واحدة فى التزام المنهج العلمى ، فمنهم من كان نقده يقوم أساسا على الأصول المقررة فى اللغة ، ومنهم من كان يميل إلى الأصول الأدبية .. وهكذا (١) .

وهذه صورة عامة للحياة السياسية والاجتماعية والأدبية فى العصر الأموى

أولا : الحياة السياسية :

لم يحس العربى فى العصر الجاهلى بوحدة سياسية إلا لقبيلته ، فهى دولته ، لها نظامها وعرفها المتبع وتقاليدها المتوارثة ، والقبيلة تجد فى وحدتها ما يكفل لها الحرية والقوة والسلامة .

ولما أشرقت بشائر الدولة الإسلامية بدأ الرسول صلى الله

---

(١) أنظر مذاهب النقد وقضاياه للدكتور عبدالرحمن عثمان ، ص٢٤٦ وما بعدها .

عليه وسلم يكون مجتمعا جديدا لا يخضع لعرف القبيلة بل يخضع لقانون واحد عام ، وهذا المجتمع الجديد ألبس ثوبا جديدا أحدث في النظام الاجتماعي تغيرات أساسية ما لبثت الدولة الناشئة أن سادت بسببها الجزيرة العربية وما جاورها .

وما أن لحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى حتى ظهرت بوادر العصبية الخامدة ، وأخذ المسلمون يتحدثون عن أمر الخلافة ، وكادت تحدث الفتنة بين المهاجرين والأنصار لولا أن قيض الله سبحانه وتعالى لهذا النزاع أبا بكر وعمر فقاما بإخماد الفتنة ، وحاولا الاحتجاج لقريش على الأنصار .

وقد وقف الشعر يرصد الأحداث ، فانتصب لكل حزب شاعر يتحدث بلسانه ، وأخذ كل شاعر يبرهن على أحقية حزبه بالخلافة ، فشاعر قريش يستبشر بها ، ويندد بتطلع الأنصار إليها ، ويحتج بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الأئمة من قريش " ، وأنه أوصى المهاجرين بالأنصار خيرا ، وأن العرب لا تدين إلا لقريش ، فضلا عن أنهم أول من آمن ، أما شعراء الأنصار فلم يقبلوا هذه الدعوى ، وأخذوا يحتجون بأنهم هم الذين آووا ونصروا .

ومهما كان الأمر فقد نجم عن هذا الخلاف أن ظهرت في قريش عصبية جعلتها تستعلى على غيرها ممن اعتنقوا الإسلام ولم يكن لهم في العرب نسب صريح ، الأمر الذى جعلها تخرج عن أصل من أخطر أصول الإسلام وهو المساواة والعدل .

وانقضى عهد أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب فى سلام ووئام ، فكل منهما قد تنبه إلى ما يكفل للمسلمين وحدتهم ويذود عنهم من الخطر الخارجى الذى يتهددهم من الفرس والروم ، لكن ما أن انقضى عهد الشيخين حتى زالت عوامل وجدت أسباب أحدثت ذلك التطور المنتظر .

فقد اختير عثمان بن عفان للخلافة ، فظهر التذمر ، وسخط كثير من المسلمين على خلافته ، وأخذت الفتنة تشتعل حتى انتهى الأمر بمقتل الخليفة ، وكان هذا أخطر حادث سياسى فى تاريخ الإسلام ، لأنه فتح بابا كبيرا للفتنة ، وجعل الحفاظ على وحدة الجماعة الإسلامية أمرا بعيد الاحتمال .

ثم آلت الخلافة لعلى بن أبى طالب ، فظهرت فى الحال جماعة موالية لعثمان ، أخذت تطالب بمعاقبة قاتليه ، وأشهر هؤلاء هو معاوية بن أبى سفيان ابن عم عثمان وواليه على الشام ، وأخذ معاوية هو ومن أحجموا عن مبايعة على يعلقون الدخول فى البيعة بتسليم على لقتلة عثمان .

وبدأ على مسعاه فى إعادة تقاليد الخلافة ، فهم بعزل ولاة عثمان ، ولم يصغ لنصيحة بعض أصحابه بإبقائهم حتى يهدأ الحال ، وتستقر الأمور ، وقد أطاع العمال أمر العزل إلا معاوية فقد مكنته إقامته الطويلة فى بلاد الشام من تكوين حزب قوى يناصره ويحميه .

وبدأ معاوية العمل ضد الإمام علي ، وازداد سخطه عليه ، وكان يليه في السخط الصحابيان الجليلان طلحة والزبير ، فسرعان ما انقلبا على علي ، واتهماه بأنه هو الذي دبر مقتل عثمان ، وأنه المستفيد الوحيد منه .

وهكذا علت على الساحة الإسلامية أسباب جعلت الهوة تتسع بين المسلمين ، وعصفت فرقتهم بالوحدة التي نعموا بها في العهد الأول للإسلام ، ونشأت من ثم الأحزاب السياسية وأخذت تستكمل أسباب قوتها ومعالم شخصيتها ، فظهرت على الساحة ثلاثة أحزاب سياسية أخذت تعارض بني أمية وتخاصمهم وتدعو إلى الانقضاض عليهم ، وهي الشيعة والخوارج والزبيريون وامتلأ العصر بسبب من هذه الأحزاب بكبريات الخطوب ، حتى إنه ليندر أن يضرب مثل بشدة الحروب وانصباب الدم كالذي ضرب في زمن هذه الأحزاب .

ولا شك أن تاريخ الدولة الأموية يمثل صورة حقيقية لهذا الصراع الحزبي ، فقد اختلفت في هذه الدولة الأهواء والأغراض ، وأصبحت ميدانا تتصارع فيه الأحزاب ، وكان هذا الصراع معول هدم في بناء الدولة منذ فجر حياتها وحتى أفول شمسها ، فالحزب الخارجي يكفر الدولة الأموية ، وحزب الشيعة يخرج عليها تحت شعار الدعوة لآل البيت ، ويقوم من أجل ذلك بالحروب والثورات التي هزت أركان الدولة وأضعفت كيانها ، وكانت من أهم العوامل في القضاء عليها ، والزبيريون يقفون من

الدولة موقف العداء السافر، ويسيطرون على معظم ولاياتها فترة من الزمان .

يقول جورجي زيدان : "ويختلف العصر الأموى عن عصر الراشدين اختلافا كبيرا من أوجه كثيرة ، ويعد انتقال الدولة الإسلامية إلى بنى أمية انقلابا عظيما فى تاريخ الإسلام ، لأنها كانت فى زمن الراشدين خلافة دينية فصارت فى أيامهم ملكا عضوضا وكانت شورية فأصبحت إرثية ، وقام معاوية يطلبها وينازع أعمام النبى وأبناء عمه عليها ، والمسلمون يعتقدون حق هؤلاء فيها ، وأن معاوية طليق لاتحل له الخلافة ، وأنه لم يعتنق الإسلام إلا مكرها ، ولكنه تمكن بدهائه وسعة صدره وبذله الأموال من التغلب عليهم جميعا ، فأسس الدولة الأموية " (١) .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : ١٩٢/١ — الهلال ١٩٣٦ .

(١) الأمويـــــــــــون

لم يكد الإمام على بن أبى طالب يتولى الخلافة حتى واجهته العقبات وأحاطت به المتاعب ، فقد طلب إليه جماعة من أولى الأمـر — وعلى رأسهم معاوية بن أبى سفيان — أن يحاكم هؤلاء الثـــوار الذين قاموا بقتل الخليفة عثمان بن عفان (١).

وتمادى معاوية فى دعواه ، فأخذ يثير الناس ورفض أن يبايـع عليا ، واستطاع أن يحرك المشاعر ويثير الخواطر ، وكان قد حشـــد لذلك كل ما لديه من أساليب الدهاء ، وألقى فى أذهان النـــاس أنه إنما يطالب بثأر عثمان من قاتليه ، وأن عليا قد اشترك فـــى هذا الجرم وأوغل فيه .

فى هذا الجو بدأ على يوجه معظم اهتمامه إلى معاويـــة فهو العدو الأول الذى لا يزال يحكم بلاد الشام ويتجاهل أمـــر الخليفة بعزله ، ولا يقر أوامر الخليفة ولا يعترف بها ، وبدأ الصـراع فى موقعة الجمل (٣٦هـ — ٦٥٦م) وقتل فيها طلحة والزبـــير وتم النصر لعلى .

وسرعان ما تجدد الصراع بين على ومعاوية فى موقعة صفـــين

---

(١) أنظر الدولة الأموية فى الشرق : د. الطيب النجـــار : ١٣ وما بعدها . الطبعة الثالثة .

(٣٧ هـ — ٦٥٧م) وكاد النصر يتحقق لعلى لولا الحيلة التى لجأ إليها عمرو بن العاص قائد جند معاوية ، فقد رفع جنده المصاحف ، وكان التحكيم وخلع على وتثبيت معاوية (١).

وقد استطاع معاوية أن يستأثر بالخلافة ويقرها فى البيت الأموى ، وبخاصة بعد أن اضطر الحسن بن على إلى التنازل عنها وإيقانه ، أنه لا طاقة له بنزال معاوية وجنده ، فصالحه على أن يكون الأمر بعد وفاة معاوية شورى بين المسلمين يولون عليهم من أحبوا ، وقد وافق معاوية على ذلك واجتمعت الكلمة عليه (٢).

وهكذا قامت الدولة الأموية (٤١هـ — ٦٦١م) ، وبويع معاوية فى الكوفة عام ٤١ هـ على مشهد من الحسن والحسين (٣)، لكنه لم يلبث إلا قليلا حتى ابتدع نظاما جديدا فى الخلافة ، فأخرجها من دائرة الشورى والانتخاب إلى التعيين والوراثة وذلك بإعلانه البيعة لابنه يزيد ، وشرع يوطد الملك له ويعهد إليه بولاية العهد فى حياته .

---

(١) راجع تاريخ الطبرى جـ ٥ ، والكامل لابن الأثير جـ٣ .
(٢) تاريخ اليعقوبى : ٥٤/٢ . طبعة بيروت ١٩٦٠م .
(٣) مروج الذهب للمسعودى : ٣٦/٢ . المطبعة البهية المصرية ، ١٣٤٦ هـ .

سياسة الأمويين :

اتخذ معاوية من مدينة دمشق مركزا للخلافة الأموية ، وأحاط نفسه بأبهة الملوك وجلالهم ، وعلى الرغم من إبقائه على النظام الإدارى القديم إلا أنه أول من اصطنع الموالى والنصارى فى المناصب (١) .

وأخذ بنو أمية ودعاتهم يحملون الناس على الطاعة لهم وعلى نصرتهم ومقاتلة من يتمرد على سلطانهم ، وكانت حجتهم فى ذلك أنهم خلفاء الله ورسوله — وقد جهر بهذا زياد والى معاوية فى خطبته البتراء بالبصرة فقال : " أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم سادة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا " (٢) .

وكان على الدولة الأموية — لتوطيد دعائم ملكها — أن تستميل الناس إليها ، فتسلح بنوها بالسيف ، كما تسلحوا باللسان

---

(١) أنظر تاريخ الدولة العربية د . عبدالعزيز سالم : ص ٣٤٦ ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ : ٢ / ٠٦٤ نشر مكتبة الخانجى .

والقتل والعداء ، وتسلحوا فيما تسلحوا به بسياسة التفريق والتمزيق ، وبعثوا العصبية القبلية والعصبية الجنسية أو الشعوبية (١) .

ولعل أظهر ما يمثل دهاء معاوية وسعة عقله أنه عرف كيف يتخذ من العصبية حصنا منيعا يحصن به ملكه وملك أولاده من بعده ، فهل كان الصراع بين الزبيرية (أتباع عبد الله بن الزبير) والأموية إلا صراع المضرية واليمانية ؟ (٢) .

وهذه العصبية كانت نذيرا بخطر لم يلبث أن استشرى في الدولة الأموية فهدم أركانها ، وعجل بسقوطها ، فالأمويون — وإن استنصروا على خصومهم بالعصبية — لم يلبثوا إلا قليلا حتى استنصر بها بعضهم على بعض .. وطبيعي لا يسلم بنو أمية بمسلكهم هذا من إثارة وإغضاب ، هذا إلى ما تجره العصبية من شرور ومخاطر ، وقد تحقق ذلك ، إذ سرعان ما صارت العصبية مرضا في المجتمع ، ونجمت عنها فتن وثورات آذنت بنهاية الدولة وظهور الدعوة لبني العباس .

وقد أنذر نصر بن سيار والي خراسان هشام بن عبد الملك ، بقوله (٣) :

---

(١) أنظر مروج الذهب : ٢ / ٢١ .

(٢) المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول د . عزيز فهمي : ٤٤ . دار المعارف .

(٣) مروج الذهب : ٢ / ٢٥ .

أرى خلل الرماد وميض نار .. ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى .. وإن الحرب أولها الكلام
فإنْ لم تطفئوها تجن حربا .. مشمرة يشيب لها الغلام
أقول من التعجب ليت شعرى .. أأيقاظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحوا نياما .. فقل قوموا فقد حان القيام
ففرى عن رحالك ثم قولى .. على الإسلام والعرب السلام

وقد أتيح لبنى العباس أن يبثوا دعاتهم فى هذا المجتمع الممزق الساخط ، فأخذا يشهرون ببنى أمية ، واستغلوا حنق بعض القبائل المتزايد عليهم ، وفى وسط هذا المجتمع الذى تصطرع فيه أمواج الفتن ويموج بالخلاف والانقسام لم تكن إلا جولة أو جولات حتى تهدم صرح بنى أمية وقام صرح بنى العباس .

---

(٢) – الخــــوارج

أما الخوارج فيمكننا القول بأن التحكيم (١) كان الفرصـــــة المناسبة لانشقاقهم على الإمام على بن أبى طالب وانفصالهم عنه ، وتنصيبهم لعبدالله بن وهب الراسبى فى العاشر من شوال سنــــة ٣٧هـ .

وعلى الرغم من تكفير الخوارج لعلى ومخالفتهم له فإنه استمـــر بسياسة المهادنة معهم ،ولكنه سرعان ما اضطر لقتالهم بعد أن لـم تجد مفاوضاته معهم ، وبعد إصرارهم على موقفهم الذى يتمثـــل فى قول إمامهم عبدالله بن وهب الراسبى وهو يعلن عن نفسه (٢).

أنا ابـــن وهـــب الراســـبى الشـــــارى
أضرب فى القـــوم لأخـــذ الثـــــار
حـــتى تـــزول دولة الأشـــــــــرار
ويرجـــع الحـــق إلـــى الأخيـــار

---

(١) راجع الآراء المختلفة فى التحكيم بتاريخ الطبرى ومروج الذهب .
(٢) شعر الخوارج ، جمع وتقديم الدكتور إحسان عباس : ٣١ و٣٢ دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٤م .

وبعد أن عجز الإمام علي عن إقناعهم وإرجاعهم عن رأيهم ، التقى بهم في موقعة " النهروان " وقد انتصر عليهم في هذه الموقعة انتصارا عسكريا حاسما وكان بين قتلى النهر وان زعماء الخوارج أمثال " عبد الله بن وهب " و "زيد بن حصن الطائي" ، و " مالك بن الوضاح " .

وفيهم يقول أبو بلال مرداس بن أدية(١):

أبعد ابن وهب ذى النزاهة والتقى

ومن خاض فى تلك الحروب المهالكا

أحب بقاء أو أرجى سلامة

وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا

فيارب سلم نيتى وبصيرتى

وهب لى التقى حتى ألاقى أولئكا

وقد عرفت الخوارج بألقاب عديدة قبل أن يتفرق جمعهم وينقسموا

---

(١) شعر الخوارج ، جمع وتقديم الدكتور إحسان عباس : ٣١ و ٣٢ دار الثقافة ببيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٧٤م .

(٢) شعر الخوارج : ٤٨ و ٤٩ .

إلى جماعات تناصب بعضها العداء والتكفير (١) . ولعل أشهر هذه الألقاب هى "الخوارج" و"الحرورية" و"الشراة" و"المحكمة" و"المارقة" ، غير أن أشهر اسم عرف به هؤلاء الناس هو "الخوارج" وقد صار علما مميزا لهم عن غيرهم من الفرق الإسلامية ، ولعل شهرته جاءت من اتفاق الجميع على استعماله وإشاعته ، ثم إن الخوارج أنفسهم تمسكوا بهذا الاسم واعتزوا به لأنه يمثل فى نظرهم الخروج فى سبيل الله .

وقبل موقعة صفين كان الخوارج من أنصار على وشيعته المقربين ، وكان لهم فى الكفاح مع على جهاد مبرور وبلاء مشكور ، ولكن بعد أن استقر الرأى على قبول التحكيم نفروا من على وخرجوا عليه وتغير رأيهم فيه ، فسموا منذ ذلك الوقت بالخوارج لخروجهم على الإمام الحق الذى اتفقت عليه الجماعة (٢) ، أو من الخروج اعتمادا على قول الله تعالى : " ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستانى ، تحقيق محمد كيلانى : ١/١١٤ وما بعدها ، دار المعرفة ، بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م .

(٢) أدب الخوارج : د . سهير القلماوى : ٥ لجنة التأليف والترجمة والنشر .

أجره على الله " .

ويسمون المحكمة لقولهم " لا حكم إلا لله " أو الحرورية نسبة إلى " حروراء " (١) وهى قرية خرجوا إليها أول الأمر ، ويسمون الشراة من شرى بمعنى غضب ، أو لأنهم شروا أنفسهم — أى باعوها لله تعالى (٢) .

وتقوم نظريتهم فى الخلافة على أساس أن الخليفة يجب أن يكون باختيار حر من المسلمين ، وإذا تم اختيار الخليفة صار رئيس المسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعا تاما لما أمر الله وإلا وجب عزله .

علاقة الخوارج ببنى أمية :

ولا شك أن معاوية كان أبغض إلى الخوارج من على لما كانوا يعتقدونه فيه من العبث بأموال المسلمين ، وفوق ذلك فهو لم يصل إلى الخلافة عن إجماع من المسلمين ، وإنما وصل إليها على جسر من المكر والدهاء .

---

(١) حروراء : قرية قريبة من الكوفة خرج إليها الخوارج ، انظر الكامل للمبرد : ١٨٢/٣ .

(٢) تاريخ الشعر السياسى : أحمد الشايب : ٢٠٠ النهضة المصرية الطبعة السادسة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

وقد حكم الخوارج بتكفير على ومعاوية ومن ناصرهما بعد التحكيم ، لأنهم حكموا بغير ما في كتاب الله ، إذ عدلوا عن تحكيم الله إلى تحكيم الناس وأوجبوا الخروج عليهم وقتالهم ، ولذلك أشادوا بعبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام على بن أبى طالب ، وقال فيه قائلهم (١) :

يا ضربة من تقى ما أراد بها .. إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأذكره حينا فأحسبه .. أوفى البرية عند الله ميزانا

أما ما كان من الخوارج في تحركاتهم ضد الدولة الأموية وما كان من الأمويين في مقاومتهم فلا شك أن الخوارج لم يكونوا راضين عن المعاهدة التى أبرمت بين الحسن ومعاوية وحاول الخوارج كثيرا القضاء على دولة بنى أمية ، لكن الاستقرار الذى نعمت به هذه الدولة بعد تنازل الحسن عن الخلافة يعد العامل الأول الذى حد من خطورة الخوارج وعمل على تقليص نفوذهم ، كذلك لا نغفل ما كان لولاة العراق من دور تجاه الخوارج وتحركاتهم فقد استطاعوا أن يحولوا دون تصاعد أمرهم طوال عهد بنى أمية (٢) .

---

(١) شعر الخوارج د . إحسان عباس : ١٤٧ والبيتان للشاعر عمران بن حطان .

(٢) يلاحظ البداية والنهاية لابن كثير : ٨/١٤٣ ، القاهرة ١٣٤٨هـ .

ومن ينظر فى تاريخ الخوارج يجد أنهم لم يكفوا لحظة واحدة عن محاولاتهم إسقاط حكم بنى أمية ، إلا أنهم كانوا يحاربون خصومهم فى جبهات مختلفة . ولو أتيح لهؤلاء الناس أن يعملوا تحت إمرة واحدة ووفق خطة متكاملة لتجنبوا الكثير من الهزائم التى منوا بها ، ولاستطاعوا بالتالى تحقيق الكثير من التطلعات السياسية التى كانوا يطمحون إليها .

وقد ظل الخوارج على رأى واحد من لدن فارقوا عليا إلى أن كان من أمرهم ما كان مع ابن الزبير وتفرقهم عنه . فبعد أن كانوا كتلة واحدة يجتمعون على رأى واحد شجر الخلاف بينهم وأصبحوا فرقا يتبرأ بعضها من البعض الآخر ، وقد جاوز أنقسامهم الحدود الاجتهادية المألوفة مما يدل على أن قضية الاجتهاد عندهم لم تكن قد توضحت معالمها أو حددت شروط ممارستها .

وقد نتج عن غلو نافع بن الأزرق انقسام الخوارج إلى أربع فرق كبيرة ، فتفرقت من ثم جهودهم فى عدة ميادين ، وسهل على الأمويين القضاء على كل فرقة على حدة .

---

٣ — الشيعة

لم تظهر الشيعة بالمعنى الحزبى إلا فى عهد عثمان بن عفان حينما قام عبدالله بن سبأ اليمنى اليهودى الأصل بالتعصب لآل البيت ووضع أساس مذهب التشيع ، والانتقال فى البلاد الإسلامية يحرض على عثمان ومعاوية ، ويظهر مساوىء بنى أمية .

ولما قتل عثمان بن عفان عرض الثوار الخلافة على الإمام على بن أبى طالب فأبى ، ثم استعانوا عليه بالأنصار والمهاجرين فقبلها وأصبح خليفة المسلمين ببيعة اشترك فيها من كانوا بالمدينة من أهل الكوفة والبصرة ومصر ، ومن كانوا بها من المهاجرين والأنصار .

وقد رفض بيعة على كثير من أنصار عثمان وفى مقدمتهم السيدة عائشة رضى الله عنها ، ثم انضم إليها طلحة والزبير ، وما لبثوا إلا قليلا حتى تجمعوا وقصدوا قتال على وصحبته فى البصرة ، والتقى الفريقان فى موقعة الجمل ، وقتل كل من طلحة والزبير ، وبعد المعركة ارتحل على إلى الكوفة فبايعه أهلها ، وبدأت الرسل تسفر بينه وبين معاوية ، ومع ذلك فلم يقدر لها النجاح ، ثم كانت موقعة صفين والتحكيم .

وقد انتقل الإمام على إلى العراق ، واختار الكوفة مركزا له ومقرا لدعوته وعاصمة لخلافته ، وصارت العراق والكوفة بصفة خاصة موئل الشيعة ومنبع التشيع ، ومصدرا لثوراتهم على بنى أمية .

وقد شق المحكمة (١) عصا الطاعة على الإمام علي ، ولم يبق إذن حوله إلا أهل الكوفة الذين أصبحوا حزبا له في حرب معاوية وحزبه ، ثم كان من تثاقلهم عن نصرة علي حتى قتل وليس له شيعة في العراق كشيعة معاوية في الشام .

وبعد مقتل علي أصبح التشيع مقصورا على أتباعه مع تفاوت فيما بينهم وقد ندم هؤلاء على تفريطهم في مقتل علي ، فأخذوا يغالون في حبه وتعظيمه عزاء لما قدموا له من الإساءة في حياته ، وعلى هذا النحو كان عداؤهم لبني أمية ، فقد ظلوا طوال العصر يستجيبون لكل من يقودهم للتمرد عليهم والثورة على دولتهم .

ولما قتل الإمام راجت الدعوة لابنه الحسن وبايعه أهل الكوفة ، وأخذ يستعد لقتال معاوية ، لكن معاوية — وكان أشد ميلا إلى الحرب — قد سار إليه فوجد الحسن أنه لا طاقة له بنزال معاوية وبخاصة بعد خذلان قومه له فتصالح معه على أن يتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية على أن يكون الأمر شورى بعد معاوية ، وغادر الحسن الكوفة إلى المدينة وعاش بها حتى مات عام ٤٨ هـ ٦٦٨م (٢) .

وأخذ الأمويون يطيحون بأهل الشيعة حتى ضعف أمرهم وظلوا طوال

---

(١) انظر فجر الإسلام ، أحمد أمين : ٢٦٦ وما بعدها مطبعة النهضة المصرية الطبعة الثانية عشرة ١٩٧٨م .
(٢) انظر البداية والنهاية : ١٤/٨ .

أيام معاوية يقصرون تشيعهم على النظر والعقيدة لا على الحروب والثورات ، إلى أن قتل الحسين بن على وبعض أصحابه ، فأخذ الشيعة يتحمسون لنصرة مذهبهم وأعلنوا التمرد فى عهد عبد الملك بن مروان عام ٦٥هـ فى حركة سميت حركة التوابين ، فلما كان عهد هشام ابن عبد الملك خرج زيد بن على زين العابدين بن الحسين ، لكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل وبقيت الشيعة مذهبا عقائديا إلى أن قامت دولة بنى العباس (١) .

وتقوم عقائدهم فى أصولها على فكرة الإمام والإمامة ، وهم يجمعون بفرقهم المختلفة على مشايعة على وإمامته ، ويرى جمهور الشيعة نفس الرأى فى أولاد على ، وقد وجدت هذه العقيدة رواجا شديدا وذيوعا واسعا بين كل من تشيع للإمام على .

ولا يتسع المقام لإحصاء المذاهب والفرق الشيعية وتتبعها وبيان معتقدات كل منها وما بينها من خلاف ، فكل ما يعنينا هو إبراز الشيعة كحزب وبيان شأنها السياسى وما كان لها من نضال مع الفرق الأخرى .

---

(١) انظر أعيان الشيعة ، العاملى : ١٦/١–٠١٩ مطبعة ابن زيدون دمشق ١٣٥٤هـ .

٤ ـ الزبيريون

ينسب هذا الحزب إلى زعيمه عبد الله بن الزبير بن العوام الصحابى ابن الصحابى ، وقد كان ابن الزبير رجلا طموحا يحب المجد والسلطان ، وكانت الخلافة أملا من آماله ولكنه لم يفكر فيها تفكيرا فعليا إلا بعد أن أعلن معاوية البيعة لابنه يزيد فأخذ يدعو لنفسه بمكة عام (٦١هـ ـ ٦٨٠م) وبايعه الناس فيها بالخلافة .

ومنذ ذلك الوقت ولد حزب جديد من أحزاب المعارضة التى قامت فى وجه الأمويين وهو حزب الزبيريين ، وكان هذا الحزب شديد الخطورة على الدولة الأموية ، ولو أن زعيمه قد أحسن استغلال الفرص التى أتيحت له لاقتلع هذه الدولة من أساسها ، ولكنه كانت تواتيه الفرص فيضيعها ، الأمر الذى أدى إلى أفول نجمه بعد زمن غير طويل (١) .

وقد اعتمد الحزب الزبيرى فى الدعوة إلى عبد الله بن الزبير على أمور منها أن الخلافة حق لقريش وحدها كما أعلن ذلك أبو بكر يوم السقيفة وعبد الله أكفأ من يتولاها بعد أن مات معاوية ، بل إنه كان يرى نفسه أكفأ من معاوية . يضاف إلى ذلك أن عبد الله يمت بصلة إلى

---

(١) أنظر الكامل لابن الأثير : ٣٤٨/٤ وما بعدها ، دار صادر بيروت ، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى ذلك فهو ابن أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وكان في المدافعين عن عثمان بن عفان وقت الحصار ، وهو رجل اشتهر بالتقوى والصلاح على حين اشتهر منافسوه من بني أمية بالخلاعة والمجون مما أسخط جمهور المسلمين عليه (١) .

وقد جهر عبد الله لنفسه بالدعوة بعد مقتل الحسين ، فأخذ أهل المدينة يثورون على الأمويين ، وطردوا مروان بن الحكم وسائر بني أمية عام ٦٣ هـ فأرسل يزيد جيشا بقيادة مسلم بن عقبه إلى المدينة ، وحدث قتال شديد انتصر فيه مسلم ، وقتل عددا كبيرا من خصومه ، وأجبر الناس على البيعة ليزيد (٢) على أنهم خول له أن يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم من شاء ، فمن امتنع من ذلك قتله .

ولم يلبث ابن الزبير أن انضمت أغلب الأمصار الإسلامية إليه ، فقد استجاب أهل البصرة له ، وأخذوا يطلبون منه أن يرسل أميرا من قبله يأخذ البيعة له ، وكذلك كان الحال في الحجاز واليمن ومصر والشام .. وهذه كلها بوادر تدل على أن النصر يوشك أن يحالف ابن الزبير ، وزاد من تلك الخطورة أن بني أمية في الشام كانوا منقسمين على

---

(١) بتصرف من أدب السياسة في العصر الأموي د . الحوفي : ١١٥ ، ١١٦ ، دار نهضة مصر ، الطبعة الخامسة .

(٢) الكامل لابن الأثير : ٤ / ١١٨ .

أنفسهم ، ولم يتفقوا على رأى حاسم فى أمر الخليفة الجديد بعد معاوية بن يزيد ، لكن ابن الزبير لم يعرف كيف يستغل هذه الفرصة الطيبة ، ولو عرف لاضطر الأمويون إلى الإذعان والتسليم ولغدا ابن الزبير بذلك خليفة المسلمين غير منازع .

ولم يطل الخلاف الذى نشب بين بنى أمية ، فسرعان ما أفاقوا لأنفسهم واجتمعت كلمتهم وولوا مروان بن الحكم الخلافة ، وأصبحت الشام مسرحا لحزبين كبيرين حزب الأمويين وحزب الزبيريين ، وقد اشتبك الحزبان فى موقعة " مرج راهط " اشتباكا عنيفا هزم فيه أنصار ابن الزبير عام ٦٤ هـ مما آلم النفوس وترك فيها جرحا لا يندمل .

وفى ذلك يقول شاعر من أنصار الزبيريين وهو زفر بن الحارث (١) :

أريني سلاحى لا أبالك إننى .. أرى الحرب لاتزداد إلا تماديا

فى العيش منجاة وفى الأرض مهرب .. إذا نحن رفعنا لهن المثانيا

فلا تحسبونى إن تغيبت غافلا .. ولاتفرحوا إن جئتكم بلقائيا

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى .. وتبقى حزازات النفوس كما هيا

لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط .. لحسان صدعا بيننا متنائيا

وظل ابن الزبير فى صراع مع الأمويين إلى أن لاحت نهايته على أثر هزيمة جنده فى العراق ، فقد أسرع عبد الملك وأرسل قائده الحجاج ابن يوسف الثقفى فى جيش إلى مكة للقضاء عليه ، فحاصرها وضرب الكعبة

---

(١) الكامل لابن الأثير : ١٥٢/٤ .

بالمنجنيقات فاحترقت (٧٣هـ ـ ٦٩١م)، واضطر أنصار ابن الزبير إلى التخلي عنه، وظل يقاوم إلى أن قتل عام ٧٣ هـ، فاستراح كل من الأمويين والخوارج من هذا الحزب المناوئ.

ثانيا : الحياة الاجتماعية :

ويمكننا القول أن الحياة الاجتماعية فى هذا العصر قد نشطت لأن مظاهر الملك بالدولة قد قامت ، واقتنى الخلفاء والأمراء الدور والقصور ، وأقاموا الحجاب والحراس وأحيوا من المناقب العربية كل ما يعينهم على مآربهم فى تدعيم السيادة الأموية والملك .

(١)

ونتج عن هذا كله أن سار بنو أمية بمقاليد الأمور بعيدا عن روح الإسلام ومثله ، فأحاطوا أنفسهم بحياة مترفة ناعمة لاهية وزادوا شيئا فشيئا من الأخذ بأبهة الملك وفخامته ورسومه .

ولعل من أصدق ما يدل على أحوال أولئك المسئولين فى الدولة ، وأخذهم بحياة الترف ما حدث من حوار بين خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان :

وجاء عبد الله بن يزيد بن معاوية إلى أخيه خالد بن يزيد ، فقال : لقد هممت اليوم يا أخى أن أفتك بالوليد بن عبد الملك ، فقال له خالد : بئس والله ما هممت به فى ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ، فما ذاك ؟ قال : إن خيلى مرت به فعبث بها وأصغرنى ، فقال خالد : أنا أكفيك ، فدخل على عبد الملك والوليد عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الوليد بن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ، مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد فعبث بها وأصغره ، وكان عبد الملك مطرقا فرفع رأسه

وقال :

إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون .

فقال خالد :

" وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا " (١) .

وقد عقب الدكتور محمد طاهر درويش على هذا الحوار فقال : "فهذه القصة تدلنا على أن هؤلاء الأمراء كانوا يقتنون الخيول اقتناء فخر ومباهاة على عادة أهل الترف ، وأن عبد الملك لم يجد غضاضة فى أن يعبر عن نفسه على لسان القرآن الكريم بأنه من الملوك الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وأن خالدا نعته على الوجه نفسه بأنه من المترفين الفاسقين " (٢) .

من أجل ذلك كله نشأ مجتمع جديد ، كان من ظواهره أن هذا الملك الظليل فى أفياء الحضارة وأبهة السلطان يدعو الناس من كل الأرجاء إلى ساحته والالتفاف حوله ، الأمر الذى شرع أشياء كثيرة كتقريب القرابة وتحزيب الأحزاب ، واستغلال النفوذ ، وجلب المنافع ، وعدم التعفف فى سبيل تحقيق المآرب والأغراض عن استخدام وسائل

---

(١) الخطابة فى صدر الإسلام ، د . محمد طاهر درويش : ٢٧٣/٢ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٧ .

(٢) المصدر السابق : ٢٧٣/٢ ، ٢٧٤ .

السياسة والدهاء والكيد ، التى لا يقيدها وازع من خلق أو دين .

وقد أوسع الأمويون فى رحابهم لذوى القربى ،فزادوا فى أعطياتهم ومنحوهم الجوائز والصلات، وكان بعض الوافدين تدفعهم دواعى القرابة والصهر إلى الطمع فى العطاء والمنح ، وكان الأمراء يقرونهم على هذا ويعطونهم :

قدم زيد بن منية (١) على معاوية من البصرة ،فشكا إليه دينا لزمه فقال : ياكعب . أعطه ثلاثين ألفا ، وليوم الجمل ثلاثين ألفا أخرى ، ثم قال له : ألحق بصهرك . فقدم على عتبة بن أبى سفيان ، بمصر فقال :

" إنى سرت إليك شهرين أخوض فيهما المتالف ، ألبس أردية الليل مرة ، وأخوض فى لجج السراب أخرى ، موقرا من حسن الظن بك ، وهاربا من دهر قطم ،ودين لزم ،بعد غنى جدعنا به أنوف الحاسدين ، فلم أجد إلا إليك مهربا وعليك معولا " . فقال عتبة : " مرحبا بك وأهلا إن الدهر أعاركم غنى ، وخلطكم بنا ، ثم استرد ما أمكنه أخذه ، وقد أبقى لكم منا ما لا ضيقة معه ، وأنا واضع يدى ويدك بيد الله " . فأعطاه ستين ألفا أخرى (٢) .

---

(١) أخو يعلى بن منية صاحب جمل عائشة ،ومتولى هذه الحرب، ورأس أهل البصرة ،وقد تزوج عتبة بن أبى سفيان بنته .

(٢) صبح الأعشى ، القلقشندى : ١/٢٥٧، القاهرة ١٩١٣ .

وقد أحيا الأمويون العصبية واعتصموا بها لتعينهم على مآربهم في تدعيم السياسة الأموية والملك الأموي (١) وليغلبوا بها كل من لم تجد معه وسائل الدهاء والمال والسلاح ، وكان لهذا أثره في محيط الحياة الاجتماعية ، إذ ظل المجتمع يعيش في ظلال الجاهلية تراوده أحداثها وتخيم عليه سحبها .

دخل عقيل بن أبي طالب على معاوية وقد كف بصره فأجلسه على سريره ، ثم قال له :

" أنتم معشر بني هاشم تصابون في أبصاركم ، قال عقيل : "وأنتم معشر بني أمية تصابون في بصائركم " .

وقال له يوما : " ما أبين الشبق في رجالكم يا بني هاشم ، قال عقيل : " لكنه في نسائكم أبين يا بني أمية " .

وقال معاوية يوما : " يا أهل الشام ، هل سمعتم قول الله تبارك وتعالى في كتابه : " تبت يدا أبي لهب وتب " ؟ قالوا نعم . قال : فإن أبا لهب عمه . فقال عقيل : فهل سمعتم قول الله عز وجل : وامرأته حمالة الحطب " ؟ قالوا : نعم . قال : فإنها عمته . ثم قال : يا معاوية . إذا دخلت النار فاعدل ذات اليسار ، فإنك ستجد عمي أبا لهب مفترشا عمتك حمالة الحطب ، فانظر أيهما خيرا .

---

(١) انظر أدب السياسة في العصر الأموي د . أحمد الحوفي : ٤٣٣-٤٦٢ دار نهضة مصر ، الطبعة الخامسة .

وقال له معاوية يوما : والله إن فيكم لخصلة ما تعجبني يا بني هاشم. قال : وما هي؟ قال : لين فيكم. قال، لين ماذا. قال : هو ذاك. قال : إيانا تعير يا معاوية؟ أجل والله إن فينا للينا من غير ضعف وعزا من غير جبروت، وأما أنتم يا بني أمية، فإن لينكم غدر وعزكم كفر، قال معاوية : ما كل هذا أردنا يا أبا يزيد.

وقال معاوية لعقيل : لم جفوتنا يا أبا يزيد؟ فأنشأ يقول :

إني امرؤ مني التكرم شيمة .. إذا صاحبي يوما على الهون أضمرا

وايم الله يا معاوية لئن كانت الدنيا مهدتك مهادها، وأظلتك بحذافير أهلها، ومدت عليك أطناب سلطانها، ما ذاك بالذي يزيدك مني رغبة ولا تخشعا لرهبة، قال معاوية : " لقد نعتها أبا يزيد نعتا هش لها قلبي، وإني لأرجو أن يكون الله تبارك وتعالى ما رداني برداء ملكها، وحباني بفضيلة عيشها إلا لكرامة أدخرها لي، وقد كان داود خليفة، وسليمان ملكا، وإنما هو المثال يحتذى عليه، والأمور أشباه، وايم الله يا أبا يزيد لقد أصبحت علينا كريما وإلينا حبيبا، وما أصبحت أضمر لك إساءة ". (١)

وقد أخذت العصبية تعمر صدور بني أمية، ووجدت لها متنفسا

---

(١) جمهرة خطب العرب : أحمد صفوت : ٢/١٢٢، ١٢٣ مطبعة الحلبي ١٩٣٣م.

فى الأقاليم والمدن ، وصارت جنسية بين العرب والموالى ، وعائليـــة بين الأمويين والهاشميين ،وأخيرا صارت قبلـــية بين القبائل جميعهـــا فعلا شأن بعض القبائل وهان شأن البعض الآخر (١) ، وهناك غير هذه عصبيات قبلية فرعية ربما كان لها أبعد الأثر فى الحياة الاجتمـاعية بصفـــة خاصــــة .

تلك هى سيـاسة الأمراء والولاة والقواد الذين كان يعنيهم الملك والخلافة ، إذ كانوا يحيون العصبيات لعلها تسند سياستهم ،وما دروا أن هذه العصبية كانت شرا مستطيرا على ملك الامويين ،فلقد عادت عليهم بالوبال ، وجعلتهم معرضين دائما للإحن والثورات ، كما جعلتهم ملعبة بين اليمن ونزار خاصة .

والأمويون — وإن استنصروا بالعصبية على خصومهم — لم يلبثـــوا إلا قليلا حتى استنصر بها بعضهم على بعض .. وطبيعى لا يسلم بنو أمية بمســـلكهم هذا من إثارة وإغضاب ، هذا إلى ما جرته العصبية من شرور ومخاطر ، وقد تحقق ذلك فسرعان ما صارت مرضا فى المجتمع ونجمت عنهـــا فتن وثورات ،كان من نتيجتها أن تقدم الموالى واستعانوا ببعض العـــرب على بعض ،فآذنوا بذهاب ملك الأمويين وظهرت الدعوة لبنى العباس (٢) .

---

(١) أنظر تاريخ الشعر السياسى ، أحمد الشايب : ٣٠٩ وما بعدها .
(٢) أنظر المصدر السابق : ٣١٢ .

(٣)

كذلك شهد العصر الأموي سلسلة من التحولات الاجتماعية غذتها عوامل متعددة ، وكان من أهمها امتزاج حضارات الأمم المختلفة[1] وتأثر العرب بها وأخذهم عنها ، وبدأت بوادر هذا التأثر واضحة في الحجاز والشام لظروف اقتضتها مصلحة الخلافة حيث شاع اللهو والترف في المجتمع ، وكان على رأس ضروب اللهو والترف فن الغناء ، حتى إنه ليخيل لمن يتصفح كتاب الاغاني أنه لم يعد للناس في مكة والمدينة في أثناء هذا العصر من عمل سوى السماع للغناء حتى العباد والفقهاء كانوا يطلبونه (٢) .

وأول ما يلفت نظر الباحث من التغييرات الاجتماعية ما تسجله المصادر التاريخية وغير التاريخية عن خلفاء بني أمية وأحوالهم وما كانوا ينعمون فيه من لهو وترف . فهم لم يلبثوا — إذا استثنينا معاوية بن أبي سفيان — أن طلبوا هؤلاء المغنين ، وقد بالغ في ذلك يزيد بن عبد الملك ، وتابعه ابنه الوليد (٣) .

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربي د . شوقي ضيف : ٢ / ١٩٣ وما بعدها .

(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي د . شوقي ضيف : ١٠١ . دار المعارف ، الطبعة السادسة .

(٣) انظر المصدر نفسه : ١٠٢ .

ومن يراجع شعر الحجاز والشام يجده فى أكثره يؤلف لهـؤلاء المغنين كما يجده فى مجموعه يعبر عن ذوق جديد وحضارة جديدة، وهذا هو السبب فى الاختلاف الشديد بين شعرهم وبين شعر الجاهليين. ولا عجب فشعر الأمويين قيل تحت تأثير ترف لم يكن للعرب فى الجاهلية عهد به، فقد بنى العرب القصور واكتظت قصورهم بالجوارى الأجنبيات من كل لون وأترف ذوقهم، وأترف شعورهم، وعاش الموالى فى خدمتهم، وقاموا لهم على فن الغناء الذى كانوا يحبونه، فأحكموه إحكاما جديدا[1]

وخير من يصور لنا هذا الذوق الجديد هو الشاعر الأحوص، فالحياة عنده ليست إلا العشق واللهو، وقد عشق من المغنيات الكثيرات، ودار شعره غالبا حول الحب والغزل، وقد أخذ الغناء يؤثر فى شعره بصوره المختلفة (٢).

ونحن إذا ما تركنا الشام والحجاز ومدنهما الكبيرة إلى العـراق ومدنه الكبيرة وجدنا العرب يشتغلون طوال هذا العصر بالحـروب والفتوح، وكانوا دائما على أهبة القتال والاشتراك فى البعوث التـى يرسلها زياد والحجاج لتعقب الخوارج أو فتح مدن الترك فى خراسـان وما وراء النهر.

---

(١) التطور والتجديد فى الشعر الأموى، د. شوقى ضيف : ١٠٢.

(٢) انظر الأغانى : ٢١/ ٩٦ وما بعدها، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن وضوحا لا لبس فيه أن الشعر في العصر الأموي مثّل الحياة الاجتماعية من جميع أطرافها ، وتطور مع تطورها ، فالموالي وشعوبيتهم والعرب وعصبياتهم وقريش وترفها وغناؤها ، كل ذلك مصور في الشعر الأموي أروع تصوير .

ثالثا : الحياة الأدبية :

كما شهد عصر بنى أمية تطورات سياسية واجتماعية ، شهد كذلك نهضة أدبية ، لأن الأدب جانب من جوانب الحياة ، ومن الصعب أن نتصور تقدم العصر فى جميع الجوانب ، وركوده وتعثره فى جانب واحد هو الأدب .

(١)

وكان خلفاء بنى أمية أشد ميلا إلى العلم والأدب ، وكانوا يزاحمون العلماء والأدباء ، ويجعلون من مجالسهم حلقات لأرباب المعرفة ، يتصارعون فى الرأى ، أو يقارعون فى الحجة حتى اشتهر كثير منهم بالشعر وروايته (١) .

ولقد حرص الخلفاء على اجتذاب الشعراء واتخاذهم ألسنة تنافح عن حكمهم وتدعو إلى تقبله وتأييده ، وكان معاوية أسبق الخلفاء إلى انتهاج هذه السياسة ، بل إنه انتهج ذلك قبل أن تئول إليه الخلافة (٢) ولذلك كان مجلسه القبلة التى يتطلع إليها كبار الشعراء والسدرة التى يحلمون بالانتهاء إليها .

---

(١) انظر الأدب الأموى د. إبراهيم أبو الخشب : ١٧ وما بعدها . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) أدب السياسة فى العصر الأموى د. أحمد الحوفى : ٢٥٧ .

وكانت شخصيته ذات تأثير مباشر على الشعر والشعراء وموقفه من الشعر جدير بعناية الدارسين ، لأنه يعطى فكرة واضحة لروح ذلك العصر وجوه العام . فقد قال : " يجب على الرجل تأديب ولده ، والشعر أعلى مراتب الأدب . وقال : اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم " (١)

وكان عبد الملك بن مروان أوضح سبيل فى تشجيعه حفظ الشعر وروايته ففى عهده أصبح الشعر أكبر من أى وقت آخر شديد الالتصاق بمجرى الحياة اليومية .

ومن الشواهد التى نسوقها للدلالة على مكانة الشعراء عند الخلفاء ما حدث للأخطل ، فقد اصطفاه يزيد بن معاوية طوال خلافته ، وقربه إليه عبد الملك بن مروان ، وكان عبد الملك عظيم الإعجاب به كثير المكافأة له .

قال مرة لعبد الملك : يا أمير المؤمنين ، زعم ابن المراغة أنه يبلغ مدحتك فى ثلاثة أيام وقد أقمت فى مدحتك :

* " خف القطين فراحوا منك أو بكروا

سنة فما بلغت كل ما أردت . فقال عبد الملك : فأسمعناها يا أخطل فأنشده إياها ، فجعلت أرى عبد الملك يتطاول لها ثم قال : ويحك يا أخطل ، أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ؟ قال : أكتفى بقول أمير المؤمنين . وأمر له بجفنة كانت بين يديه فملئت دراهم وألقى عليه

---

(١) العمدة لابن رشيق : ١/٠٢٦ دار الجيل . بيروت .

خلعا ، وخرج به مولى لعبد الملك على الناس يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين ، هذا أشعر العرب (١) .

وقد قام حوار بين عبد الملك والعجاج بن رؤبة ، وهذا الحوار يدل على أن مجالس عبد الملك كانت حافلة بالأدباء ، وعلى أنه واسع المعرفة بآداب العرب ، وكان يطيب له الحديث في ذلك .

فقد دخل العجاج على عبد الملك بن مروان ، فقال : " ياعجاج بلغني أنك لا تقدر على الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، من قدر على تشييد الأبنية ، أمكنه إخراب الأخبية ، قال : فما يمنعك من ذلك؟ قال : إن لنا عزا يمنعنا من أن نظلم ، وأن لنا حلما يمنعنا من أن نظلم فعلام الهجاء ؟ قال : لكلماتك أشعر من شعرك ، فأنى لك بعز يمنعك من أن تظلم ؟ قال : الأدب البارع ، والفهم الناصع ، قال : فما الحلم الذي يمنعك من أن تظلم ؟ قال : الأدب المستطرف ، والطبع التالد ، قال : ياعجاج ، لقد أصبحت حكيما . قال : وما يمنعني وأنا نجي أمير المؤمنين . (٢)

---

(١) الأغاني للأصبهاني : ٨/٣٠٣٣ ، ٣٠٣٤ طبعة دار الشعب ، الطبعة الثانية .

(٢) الأمالي للقالي : ٢/٤٩ دار الكتب ١٩٢٦م . وزهر الآداب للحصري: ٢/٢٦٤ . الأميرية .

والحجاج بن يوسف مع ما فيه من جد وصرامة كان يسير في ذلك الاتجاه فكان يستشهد بالشعر وخاصة الجاهلي منه ، والأمر المؤكد أنه وغيره من الأمويين شجعوا بمختلف الأساليب والسبل إحياء تراث العرب وعلى رأس ذلك الشعر، وقد دفعهم هذا الاهتمام إلى النظر للشعر نظرة تكاد تخالف نظرة من سبقهم (١) .

وقد انتهج ولاة بني أمية وقوادهم هذا النهج ، فشجعوا الشعراء على الإشادة بهم ،حتى رحل الشعراء إليهم ليمدحوهم ولينالوا عطاياهم وظلوا يتزاحمون على قصورهم ،حتى أصبح لهم في كل مصر شعراء .

وقد انتهج الخليفة سياسة التشجيع ،فوزع على الشعراء حظوظهم من الشهرة والرزق ،وكان يتصرف في شعرهم ويحدد لهم مجال القول فيه (٢) ، وانتهج الشعراء نفس النهج ،وغلبوا على وجدانهم وضمائرهم وألسنتهم ، وانساقوا — تحت ضغط الرغبة أو الرهبة — لما هو مطلوب منهم ، وأخذوا يتحينون الفرص لكي يقولوا فيما وضع لهم دون أن يصادف النظم هوى في نفوسهم فشاع من ثم النفاق والتزييف الوجداني ،والمبالغات المسرفة .

---

(١) انظر شعر البصرة في العصر الأموي : د . عون قاسم ٧٧ وما بعدها . دار الثقافة بيروت ١٢٩٢هـ — ١٩٧٢م .

(٢) قيم جديدة للأدب العربي د . بنت الشاطئ : ١٠٠ طبعة ١٩٦١م .

(٢)

ولاشك أن عصر بنى أمية قد أمدته روافد عديدة دعمته دعما ، وهو دعم نجد آثاره فى ازدهار الثقافة الأدبية من لغة وشعر وأخبار ، فقد خطت تلك الثقافة خطوات واسعة دفعت بالأمويين إلى الاعتزاز بما خلف العرب من تراث أدبى ، والاهتمام بصبغ دولتهم صبغة عربية ، وقد جرهم ذلك إلى الاهتمام بالشعر الجاهلى كوسيلة لإحياء أمجاد الماضى بقصد رسم صورة مشرقة للحاضر .

وقد نتج عن هذا أن اهتم الخلفاء بالشعر وبروايته ونقده ، وعقدوا مجالس للسمر به فى قصورهم ومجالسهم ، على أنهم لم يكتفوا بتشجيع الشعراء وإغداق العطايا عليهم فحسب ، بل أخذ كثير منهم يغرون بعض الشعراء ببعض ، ويحرضون بعضهم على هجاء بعض ، ولعل غاية الشعراء من هذا أنهم أرادوا أن يشغلوا الشعراء وقبائلهم بالصراع الأدبى ، ويصرفوهم عن المشاركة فى الأمور السياسية وعن التفكير فى الخلافة .

وذكر أبو الفرج الأصبهانى : أن جريرا وقف على باب عبد الملك ابن مروان والأخطل داخل عنده ، وكانا قد تهاجيا ولم يرد أحد منهما صاحبه ، فلما استأذنوا عليه لجرير أذن له فدخل فسلم ثم جلس وقد عرفه الأخطل ، فطمح طرف جرير إلى الأخطل وقد رآه ينظر إليه نظرا شديدا فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا الذى منعت نومك وتهضمت قومك . فقال له جرير : ذلك أشقى لك كائنا من كنت : ثم أقبل على عبد الملك فقال من هذا يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداءك ، فضحك

ثم قال : هذا الأخطل يا أبا حرزة فقال جرير : فلا حياك الله ، يا ابن النصرانية ، أما ضعك نومى فلو نمت عنك لكان خيرا لك ، وأما نهضك قومى فكيف تنهضهم وأنت ممن ضربت عليهم الذلة وباء بغضب من الله وأدى الجزية عن يد وهو صاغر . وكيف تنهض لا أم لك قوما فيهم النبوة والخلافة وأنت لهم عبد مأمور ومحكوم عليه لا حاكم ، ثم أقبل على عبد الملك فقال : ائذن لى يا أمير المؤمنين فى ابن النصرانية فقال : لا يجوز أن يكون ذلك بحضرتى (١) .

وأظن أننا لا نغلو إذا قلنا إن الشعراء قد تحولوا تحت تأثير هذا التطور إلى فن جديد أو إلى لون جديد من الشعر ذلك اللون هو فن النقائض ، وأصبح الشعراء يحترفونه احترافا ، حتى ليوشك قارئ الشعر الأموى أن يظن أنه كان أهم موضوع يجذب إليه الشعراء وخاصة فى العراق ، حيث تكتلت القبائل فى البصرة والكوفة ، وأخذت كل قبيلة تنظر فى نفسها وفيما كان بينها وبين القبائل الأخرى من أيام وحروب . واستحال ذلك كله شعرا ، فكل شاعر لقبيلة ينشد شعرا يفتخر فيه بقبيلته وما كان لها من انتصارات ، ثم يحاول جاهدا أن يرمى القبائل المعادية لقبيلته (٢) .

---

(١) الأغانى : ٢٨٠٨/٨ ، ٢٨٠٩ ، ط. دار الشعب .

(٢) أنظر تاريخ الشعر العربى د . محمد عبد العزيز الكفراوى : ١٧٩/١ والتطور والتجديد فى الشعر الأموى د . شوقى ضيف : ١٦٢ وما بعدها .

ومعظم النقائض القبلية في العصر الأموي كانت تدور بين قيس من جهة واليمن وتغلب من جهة أخرى ، وهناك أسباب أدت إلى احتكاك هذه القبائل بعضها ببعض ،فقد احتضن الأمويون أهل اليمن ، واعتمدوا عليهم دائما ، وكان لانتشار نفوذ قبائلهم في بوادي الشام سببا في أن اختصهم الأمويون بالعناية ، وبلغ من تعصب معاوية لهم أنه ظل حينا من الدهر لا يفرض فرضا لغير اليمن من القبائل الأخرى .

وطبيعي أن تغضب قيس لهذا التعصب ولهذه المحاباة ، وأخذت تحقد على الأمويين ،وسرعان ما تحول هذا الحقد إلى نشاط حربي ، حين أعلنت تعصبها لابن الزبير واشتبكت مع بني أمية ، واليمن في موقعة " مرج راهط " ، وقد استمرت هذه الموقعة عشرين يوما ، وأوقعت فيها كلب وقبائل قضاعة ومن انضم إليهم من تغلب هزيمة مروعة بقيس ، وقتلَ فيها قائدها الضحاك بن قيس وهرب الشاعر زفر بن الحارث .

وإذا كانت هذه الموقعة قد انتهت بهذه النتائج فإن القيسيين لم يوقفوا نشاطهم التعصبي ضد قبائل اليمن وتغلب ،وقد أعلن ذلك زفر بن الحارث زعيم قيس بعد الضحاك في قصيدته التي أنشدها في أعقاب تلك المعركة والتي يعتذر فيها عن فراره .

يقول : (١)

---

(١) تاريخ الطبري : ٥٤١/٥ دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، والأغاني : ٧٤٧٩/٢١ ط دار الشعب .

لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط .. لمروان صدعا بيننا متنائيا
أريني سلاحى لا أبا لك إنني .. أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتاني عن مروان بالغيب أنه .. مقيد دمى أو قاطع من لسانيا
ففى العيش منجاة وفى الأرض مهرب .. إذا نحن رفعنا لهن المثانيا
فلا تحسبونى إن تغيبت غافلا .. ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى .. وتبقى حزازات النفوس كما هيا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا .. وتترك قتلى راهط هى ما هيا
لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط .. لحسان صدعا بيننا متنائيا
أبعد ابن عمرو وابن معن تتابعا .. ومقتل همام أمنى الأمانيا
فلم ترمنى نبوة قبل هذه .. فرارى وتركى صاحبى ورائيا
عشية أعدو بالقران فلا يرى .. من الناس إلا من على ولا ليا
أيذهب يوم واحد إن أسأته .. بصالح أيامى وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا .. وتثأر من نسوان كلب نسائيا
ألا ليت شعرى هل تصيبن غارة .. تنوخا وحى طىء من شفائيا

وليست هذه هى كل النقائض التى اندلعت على إثر العصبيات بين القبائل فى عصر بنى أمية ، فهناك نقائض فردية انبعثت من أحقاد شخصية ، وهى تمت بصلة قوية إلى النقائض القبلية حتى ليصعب الفصل بين هذه وتلك أحيانا ومثال ذلك ما كان بين كل من جرير والأخطل والفرزدق[1] .

---

(١) انظر التطور والتجديد فى الشعر الأموى : د . شوقى ضيف : ١٦٢ وما بعدها .

على أننا إذا كنا لاحظنا على شعراء العصر تأثرهم بالعصبيات والخصومات القبلية ، وكانت هذه وتلك يدلى كل شاعر فيهما بدلوه ، ويحاول أن يأتي بكل ما يستطيع من ثناء على قبيلته ، وفي الوقت ذاته يحاول أن يغض من شأن خصومها .. فإننا نلاحظ أيضا أن هذه البيئة — وبخاصة بيئة العراق — قد أهلت الشعر العربي لأن يخوض في موضوع الخصومات السياسية التي اشتعل أوارها بين الخوارج والشيعة وبين الأمويين (١) .

---

(١) يلاحظ ما سبق من بيان الحالة السياسية .

نماذج من النقد في عصر بني أميـــــة

أولا : نقد العلماء :

العلماء والنقاد هم اللغويون والنحاة ، وقد نقد هؤلاء العلماء الشعر على هدى من ثقافتهم ، وبأثر البيئة الاجتماعية في الشعر . وإذا كان كل فريق منهم قد احتكم إلى القواعد العلمية في نقده فإن هذا لايمنع من وجود آخرين اعتدوا في نقدهم بالذوق الأدبي ، كما أن العصبية القبلية كانت تطل برأسها في كثير من أحكام كل أولئك ، وهذا أمر طبيعي لم يكن فيه غرابة بالنسبة للعصر الأموي .

ومن النقد اللغوي ما ذكره الأصمعي :

" قرأت على أبي محرز خلف بن حيان الأحمر شعر جرير ، فلما بلغت إلى قوله :

وليل كإبهام الحبارى محبب .. إلى هواه غالب لي باطله
رزقنا به الصيد الغرير ولم نكن .. كمن نبله محرومة وحبائله
فيالك يوما خيره قبل شره .. تغيب واشيه وأقصر عاذله

قال خلف : ويحه ، ما ينفعه خير يؤول إلى شر ؟ فقلت : هكذا قرأته على أبي عمر بن العلاء ، قال : صدقت ، وكذا قال جرير ، وكان قليل التنقيح لألفاظه ، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا كما سمع ، قلت : فكيف يجب أن يكون ؟ قال : الأجود أن يكون " خيره دون شره " فأروه كذلك وقد كانت الرواة قديما تصلح أشعار الأوائل ، فقلت : والله لا أرويه إلا

كذا (١) " .

ومن النقد اللغوى قول الفرزدق :

وعشنا زمانا يا ابن مروان لم يدع .. من الناس إلا مسحتا أو مجلف

يرفع (مجلف) مع أنه معطوف على (مسحتا) وقد تعب النحاة فى تخريجه حتى سأل بعضهم الفرزدق ، فقال على أن أقول وعليكم أن تحتجوا ".(٢)

ولما قدم ذو الرمة الكوفة وقف ينشد الناس ، فكان مما قال :

إذا غير النأى المحبين لم يكد .. رسيس الهوى من حب مية يبرح

فناداه ابن شبرمة قائلا : "أراه قد برح "فأخذ ذو الرمة يفكر حتى قال :

إذا غير النأى المحبين لم أجد .. رسيس الهوى من حب مية يبرح .

يقول عنبة الفيل : فأخبرنى أبى بما كان ،فقال : أخطأ ابن شبرمة ،وأخطأ ذو الرمة حين غير شعره ، إنما هذا كقول الله تعالى : (ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها) ،فهو لا يراها ولا يكاد (٣).

---

(١) العمدة لابن رشيق : ٢٤٨/٢ .

(٢) الشعر والشعراء : ٤٨٠/١ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ١٩٨ ، عن دراسات فى النقد الأدبى د .حسن جاد .

ومن النقد اللغوى ما استدركه ابن يزيد النحوى على قـــول الفرزدق :

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم .. خضع الرقاب نواكس الأبصــار

لأنه جمع فاعلا على فواعل ، فقال (نواكس) والصحيح أن فواعل لا تكون إلا جمعا لفاعلة المؤنثة ، ولا يقال فى المذكر فواعل إلا فيما استثناه النحاة (١) .

ثانيا : نقد الأدباء المتذوقين :

ليس من شك فى أن النقد إنما ينبعث من النفوس التواقة إلى سحر البيان وحلاوته . وإذا كانت البيئة الاجتماعية — وبخاصة فى الحجاز — قد صارت إلى الرقة والترف فإن هذا لا يمنعنا من أن نقول إن الـــذوق الفنى والإحساس بالجمال فى الشعر قد هيأ لأذواق الأدباء ميدانـــا فسيحا تتبارى فيه ، وكان الناقد فى كل أحواله يحسن التفسير والتعليل ، ويجد الحجج والمبررات المقنعة لكل من الجمال والقبح على السواء .

ونعنى بالذواقـين من النقاد ، أولئك الذين ولدت معهـــم مواهبهم الفنية فشبوا على الإبداع للصور البيانية الخلابة لما يجدون فـــى أعماقهم من قوة فى الإحساس والشعور ، أو شبوا على تذوق الطعـــوم الجمالية فى معارضها الأدبية فى كثير من النشوة والوعى ، وإن لم يتح لهم إبداع فنى ينظمهم فى سلك الموهوبين من الشعراء أو الناثرين " (٢) .

---

(١) العقد الفريد : ٣٢/٢ .
(٢) مذاهب النقد وقضاياه ص ٢٤٧ .

ومن شواهد الاتجاه الذوقى فى النقد ما يلى :

* اجتمع جرير والفرزدق والأخطل فى مجلس الخليفة عبد الملك ابن مروان ، فقال لهم : ليقل كل منكم بيتا فى مدح نفسه ، فأيكم غلب فله هذا الكيس ، فقال الفرزدق :

أنا القطران والشعراء جربى .. وفى القطران للجربى شفاء

وقال الأخطل :

فإن تك زق زاملة فإنى .. أنا الطاعون ليس له دواء

وقال جرير :

أنا الموت الذى آتى عليكم .. فليس لهارب منى نجاء

فقال عبد الملك لجرير : خذ الكيس ، فلعمرى إن الموت يأتى على كل شىء " (١)

* واجتمع جرير والفرزدق عند الحجاج فقال لهما : من مدحنى منكما بشعر يوجز فيه ، ويحسن صفتى ،فهذه الخلعة له :

فأنشد الفرزدق :

فمن يأمن الحجاج والطير تتقى .. عقوبته ،إلا ضعيف العزائم

ثم قال جرير :

---

(١) دراسات فى النقد الأدبى : ص ٤٩و٥٠ .

فمن يأمن الحجاج أما عقابه .. فمر، وأما عقده فوثيق
يسر لك البغضاء كل منافق .. كما كل ذي دين عليك شفيق

فقال الحجاج للفرزدق :
" ما عملت شيئا ، إن الطير تتقى الصبى والخشبة ، وادفع الخلعة إلى جرير " (١) .

* دخل كثير عزة على ابن أبي عتيق (ناقد الحجاز) وعنده ابن معاذ المغنى ، فغنى من شعر كثير :

أبائنة سعدى ؟ نعم ستبين .. كما انبت من حبل القرين قرين
أأن زم أجمال وفارق جيرة .. وصاح غراب البين أنت حزين ؟
كأنك لم تسمع ولم تر قبلها .. تفرق آلاف لهن حنين
فأخلفن ميعادى وخن أمانتي .. وليس لمن خان الأمانة دين

فقال ابن أبي عتيق ، أو للدين صحبتهن يا ابن أبي جمعة ؟ ذلك والله أشبه بهن ، وأدعى للقلوب إليهن : وإنما يوصفن بالبخل والامتناع وليس بالوفاء والأمانة .
ذو الرقيات أشعر منك حيث يقول :
حبذا الإدلال والغنج .. والتى فى طرفها دعج
والتى إن حدثت كذبت .. والتى فى ثغرها فلج

---

(١) مذاهب النقد وقضاياه ص ٢٤٨ و ٢٤٩ .

فقام كثير وانصرف .(١)

* ومن النقد الذوقي ما روى (٢) أنه قد اجتمع في ضيافة سكينة بنت الحسين كل من جرير، والفرزدق، وكثير، وجميل، ونصيب .

فقالت للفرزدق : أنت القائل :

هما دلتاني من ثمانين قامة .. كما انحط باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى بالأرض قالتا .. أحي يرجى أم قتيل نحاذره؟
فقلت ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا . وأقبلت في إعجاز ليل أبادره
أبادر بوابين قد وكلا بنا .. وأحمر من ساج تبص مسامره

قال نعم . قالت : فما دعاك إلى إفشاء سرهما وسرك ؟ هلا سترت عليك وعليهما .

ثم قالت لجرير : أنت القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا .. وقت الزيارة فارجعي بسلام
تجري السواك على أغر كأنه .. برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذي حدثتنا .. لوصلت ذاك وكان غير لمام
إني أواصل من أردت وصاله .. بحبال لا صلف ولا لوام

---

(١) دراسات في النقد الأدبي عن العقد الفريد : ٣٦٧/٥ .

(٢) الأغاني للأصفهاني : ١٦٢/١٦ وما بعدها ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي . وانظر "سكينة بنت الحسين" ص ٢٢٦ و٢٢٧ ط . دار الهلال .

قال : نعم . قالت : أولا أخذت بيدها وقلت ما يقال لمثلها ؟ أنت عفيف وفيك ضعف .

ثم قالت لكثير : ألست القائل :

وأعجبني يا عز منك خلائق ... كرام إذا عد الخلائق أربع
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا . ودفع بأسباب المنى حين يطمع
وقطعك أسباب الكريم وحبلك الـ ... لئيم وخلات المكارم ترفع
فوالله ما يدرى كريم مماطل .. أينساك إذا باعدت أم يتصدع

قال : نعم . قالت : ملحت وشكلت .
ثم قالت لنصيب : أنت القائل :

ولولا أن يقال صبا نصيب .. لقلت بنفسي النشأ الصغار
بنفسي كل مهضوم حشاها .. إذا ظلمت فليس لها انتصار

فقال : نعم ، قالت : ربيتنا صغارا ، ومدحتنا كبارا . ثم قالت لجميل :

والله ما زلت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :
ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة .. بوادى القرى إنى إذن لسعيد
لكل حديث بينهن بشاشة .. وكل قتيل عندهن شهيد
جعلت حديثنا بشاشة ، وقتلانا شهداء " (١) .

---

(١) يمكن النظر فى كتاب " مذاهب النقد وقضاياه " للدكتور عبد الرحمن عثمان ص ٢٥٠ ـ ٢٥٢ . لتقف على ملاحظات فى نقد سكينة هذا .

* ومن هذا النقد ما روى (١) أن نصيبا سمع قول الكميت :

وقد رأينا بها حورا منعمة .. بيضا تكامل فيه الدل والشنب

فقال له : تباعدت فى قولك (تكامل فيه الدل والشنب) هلا قلت مثل ذى الرمة :

لمياء فى شفتيها حوة لعس .. وفى اللثات وفى أنيابها الشنب

فالدل هو الإدلال ، والشنب ماء وعذوبة فى الأسنان ، فهما متباعدان غير مؤتلفين ، والحوة حمرة إلى سواد ، فالجمع بينهما وبين الشنب فى البيت الثانى فى موقعه " .

وعلى كل حال فهذه نماذج قليلة سقناها للنقد الأدبى فى عصر بنى أمية ، لندرك أن النقد الأدبى فى هذه الفترة كانت له اتجاهات جديدة منحته القوة والإمتاع ، فقد اجتمع له الذوق والثقافة والإحساس الدقيق بمواطن الجمال .

والواضح أن هذا النقد يدور حول :

- تفضيل شاعر على شاعر .
- وميزة الشعراء بعضهم على بعض .
- وضعف المعانى التى يأتى بها الشعراء .
- وتفضيل بعض المعانى على بعض .

(١) دراسات فى النقد الأدبى : ص ٥٢ ، ٥٣ .

- وتخير الألفاظ .
- وحسن الصياغة أو قبحها .

وعلى الجملة فكل هذا النقد مبنى على الذوق الفطرى[١] ، الذى تهذبه البيئة ، وترقبه الحضارة ، وإن كان النقد العلمى النحوى قد ظهر فى آخر العصر الأموى ، وجد بعض علماء فى وضع قواعد علم النحو ، وأخذ بعض النقاد ينظرون فى الشعر من منطلق قواعد النحو وعلوم اللغة .

---

(١) شأن النقد فى ذلك شأن الأدب ، فقد كان الأدب فطريا يصدر عن سليقة وطبع ، فكان النقد كذلك فطريا يصدر عن ذوق وسليقة وطبع .

النقد الأدبي في العصر العباسي

(١) مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية :

قامت الدولة العباسية بعد سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ ، وقد امتد الزمان بهذه الدولة حتى عام ٦٥٦ عندما استولى التتار على بغداد .

والحقيقة أن العصر العباسي من العصور الطويلة الممتدة ، ولذلك قسمه المؤرخون إلى تقسيمات سياسية عديدة وهي :

١ ــ العصر العباسي الأول : ويبدأ هذا العصر بعد سقوط دولة بني أمية وقيام الدولة العباسية ، وينتهي بعد تولي المتوكل الخلافة عام ٢٣٢هـ .

٢ ــ العصر العباسي الثاني : ويبدأ من عام ٢٣٢هـ وهو العام الذي تولى فيه المتوكل الخلافة ، وينتهي بسيطرة البويهيين عام ٣٣٤ هـ .

٣ ــ العصر العباسي الثالث : ويبدأ عام ٣٣٤هـ حين سيطر البويهيون ، وينتهي ببدء السلاجقة عام ٤٤٧هـ .

٤ ــ العصر العباسي الرابع : ويبدأ من نهاية العصر الثالث وينتهي هذا العصر بسقوط الدولة العباسية .

أما مؤرخو الأدب فقد قسموا العصر العباسي إلى قسمين هما :

ـ (العصر العباسي الأول) (١٣٢هـ ـ ٣٣٤هـ) .
ـ (العصر العباسي الثاني) (٣٣٤هـ ـ ٦٥٦هـ) .

والعصر العباسي مع انتسابه إلى العباسيين إلا أن دولا كثيرة قد نشأت في ظلال هذا العصر ، وقد استقل بعضها عن الدولة العباسية وإن كان يدين بالولاء للخليفة العباسي ، ومن هذه الدول : الدولة الأموية في الأندلس ، والدولة الفاطمية في مصر والمغرب .

والحقيقة أن الثورة العباسية تعد نهاية الثورات الكثيرة التي قامت ضد بني أمية ، وكان الفرس يمثلون دعامة كبرى في هذه الثورة ، ولعل هذا هو السبب في تلك المكانة الكبيرة التي كانت لهم ، وفي اتخاذ وزرائهم وكتابهم من الفرس منذ قيام الدولة العباسية ، بل إن تحول الخلافة من دمشق إلى بغداد على سواعد الجيوش الخراسانية كان إيذانا بغلبة الطوابع الفارسية على نظم الحكم السياسية والإدارية للدولة العباسية ، فقد قامت في المجال الفارسي وعاشت تتنفس فيه (١) .

وعلى هذا النحو كان للفرس نفوذ قوي منذ قيام الدولة .. لكن الخلفاء الأوائل كانوا على درجة من القوة تجعلهم لا يبالون بهذا النفوذ ولا يعطونه أي قدر من الاهتمام ، فلم يكد أبو جعفر المنصور (٢) يتسلم مقاليد الحكم حتى قضى على أبي مسلم الخراساني ، وهكذا غيره من الخلفاء .

---

(١) تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) د . شوقي ضيف ـ الطبعة السادسة ـ ص ١٩ .
(٢) يعد المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية .

إلا أن نفوذ الفرس قد قوى واشتد بعد ضعف الخلفاء العباسيين لدرجة تجعلنا نقول إن الفرس كانوا هم الحكام الفعليين للدولة ، وقد أدى هذا النفوذ بدوره إلى ظهور حركة (الشعوبية) وهى حركة تدعو إلى احتقار العرب والحط من شأنهم .

ولم يقف الأمر عند حد النفوذ الفارسى (١) ولكن كان للأتراك نفوذ كبير وبخاصة فى عهد المعتصم ، وقد قوى هذا النفوذ واشتد حين تمكنوا من قتل المتوكل الخليفة العباسى عام ٢٤٧ هـ .

أما الحياة الاجتماعية فى الدولة فقد كانت حياة ترف ونعيم ، فقد أصبحت بغداد حاضرة الخلافة أعظم بلاد الدنيا ودرة الحضارة الإسلامية ، وقد تمتع الخلفاء ومن اتصل بهم من الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة بكل ألوان النعيم ، هذا بالإضافة إلى أن بغداد كانت مليئة بدور العلم من مدارس ومكتبات ، وبدت الحضارة واضحة فى بنائها ، إذ أقامها المنصور بعد نقل حاضرة الخلافة إليها على صورة معينة ، وابتنى فيها قصره المعروف بقصر الذهب .

ولا ريب أن هذا البذخ الذى كان يتمتع به الخلفاء وحواشيهم من البيت العباسى ومن الوزراء والقواد إنما كان مرده إلى كثرة المال فى خزائن الدولة ، فقد كانت خزائن الدولة هى المعين الغدق الذى هيأ هذا الترف ، فقد كانت تحمل إليها حمول الذهب والفضة من

---

(١) انظر ظهر الإسلام : ١/٦ـ٥٨ .

أطراف الأرض حتى قالوا إن المنصور خلف حين توفى أربعة عشر مليونا من الدنانير وستمائة مليون من الدراهم ، وإن دخل بيت المال سنويا لعهد الرشيد كان نحو سبعين مليونا من الدنانير (١).

أما عن الحياة الثقافية والأدبية فمما لاريب فيه أن العصر العباسي كان ممثلا لكل الألوان الثقافية العامة ، ففى ظل هذا العصر تحولت الثقافات العامة التى كانت لدى البلدان المفتوحة ، بل إن شعوب هذه الثقافات قد تحولوا عربا فتحولت من ثم معهم ثقافاتهم ، وكان لهذه الثقافات أبعد الأثر فى الوسط العربى ، إذ أخذ العرب يلمون بما لدى الأمم المفتوحة من ثقافات متباينة ، حتى دفعوا دفعا إلى وضع أصول العلوم المختلفة ، وأخذت تظهر طائفة من العلماء والأدباء الذين نوعوا معارفهم تنويعا واسعا ، وليس من شك فى أن هذا الصنع كان من أهم الأسباب فى ازدهار الحركة العلمية فى العصر العباسى (٢).

وقد بلغت حركة التأليف فى العلوم العربية والإسلامية القمة فى عصر بنى العباس ، ولا نستطيع فى هذا المقام أن نتحدث عن علم من العلوم الإسلامية أو العربية فى هذا العصر ، ولكننا يمكننا أن نقول إن أكثر تراثنا العربى والإسلامى إنما هو من معطيات هذا العصر .

---

(١) تاريخ الأدب العربى ـ د . شوقى ضيف (العصر العباسى الأول) ص ٤٥ ـ عن المسعودى ٣/٢٣٢ ومقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية) ص ١٢٧ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٨٩ وما بعدها .

وفى هذا العصر ازدهر الشعر وبلغ أوج عظمته ، وأصبح رجـــال اللغة سدنة الشعر وحراسه ، وأخذ الشعر يحلق فى كل مـجــــال ، واتسع مجال النقد والتأليف ، ويرجع توفر هذا النشاط إلى كثرة الكـتـب التى ترجمت إلى العربية ، هذا من جانب . ومن جانب آخر فإن رجـــال الفكر العربى والإسلامى قد اهتموا بالدراسات الفلسفية والأدبية ، حتـى أصبحت أيام هذا العصر عنوانا مشرقا للفكر الإسلامى من جانب ولـــلأدب العربى من جانب آخر . (١)

وقد لمع فى العصر العباسى كثير من علماء الفلسفة واللغة والأدب ، والترجمة ، وأصبحت مدينة الخلافة العباسية تعج بعلماء اللغة وأساطينها وليس من شك فى أنه كان للخلفاء والوزراء الفضل الأكبر فى الازدهـــار الثقافى والأدبى الرائع ، فقد شجعوا علماء اللغة بصفـة عامـــــة ، ورجال الأدب والشعراء بصفة خاصة لدرجة تجعلنا نقول إن الأدب العربى لم يظفر بشىء من التشجيع كما ظفر فى العصر العباسى .

---

(١) انظر ظهر الإسلام لأحمد أمين : ١/٢٢٨ ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ ط٥ ـ عام ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م .

(٢) الشعر في العصر العباسي

عوامل قوته وازدهاره :

مما لا شك فيه أن الشعر العربي قد ازدهر وبلغ أوج عظمته في العصر العباسي الأول . ولعل ذلك راجع إلى ما سبق أن قلناه من تشجيع الخلفاء والوزراء ، ومنحهم العطايا والهبات ، يضاف إلى ذلك أن ما شهده هذا العصر من تغيير على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفكري .. كل ذلك كان له أثره المباشر على النهضة الشعرية (١) .

كما أن تشجيع الخلفاء والوزراء للشعراء لم يكن يقف عند حد ، فضلا عن حبهم للشعر وتشجيعهم للشعراء نجد كلا منهم يتخذ له شاعرا أو أكثر ، كما أن بعضا منهم كان يقول الشعر وينظم فيه ويتذوقه ويطرب له ، وهذا علم من أعلام الدولة وهو المأمون كانت كل مجالسه عبارة عن مجتمع كبير وندوة أدبية كبرى .

كما أن اختلاط العرب بالأمم الأخرى ، وما نقل إلى العربية من ثقافات الفرس والهند كل ذلك أدى بدوره إلى نشاط الحركة العلمية

---

(١) انظر الأدب العباسي الرؤية والفن ـ عز الدين إسماعيل ـ دار النهضة العربية ١٩٧٥م .

وجعلها لا تقف عند حد التدوين والتأليف ، بل شملت هذه الحركة الترجمة من اللغات غير العربية ومن الثقافات الأجنبية إلى اللغة العربية ، ويكفى أن نقول إن تدوين الشعر الجاهلى لم يتم إلا مع بداية العصر العباسى (١) .

هذا وغيره أدى من جهة إلى نشاط الحركة العلمية وإلى كثرة المناظرات والمحاورات وإلى تنوع الثقافة لدى الأدباء (٢) ، كما أدى من جهة أخرى إلى دخول أساليب جديدة فى الشعر العباسى ، كالإطار العام للقصيدة ، وكالألفاظ والمعانى ، والموسيقى ، كما فتح أذهان الشعراء وخيالاتهم على موضوعات جديدة وعلى أبواب مستحدثة من القول والإبداع لم يكن للأقدمين بها عهد من قبل .

ومما هو جدير بالذكر أن الشعر فى العصر العباسى الثانى كان قد قوى على الرغم من ضعف الخلافة ، ولعل ذلك راجع إلى أن الحكام ما يزالون على حبهم للشعر . وكان كل منهم يقرب إليه الشعراء ، ويغدق عليهم العطاء .. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد كان الحكام من أعلام الأدب .

فهذا سيف الدولة الحمدانى ، كانت حلب فى عهده ، تعج بعلماء اللغة وأساطينها ، وليس من شك فى أنه كان للأمير الفضل الأكبر فى هذا الازدهار الثقافى الرائع الذى شهدته تلك المدينة ، إذ شجع

---

(١) أنظر تاريخ الأدب العربى د . شوقى ضيف (العصر العباسى الأول) ص ١٣٨ وما بعدها ، و (العصر العباسى الثانى) ص ١٨٠ وما بعدها .

(٢) انظر ظهر الإسلام لأحمد أمين : ١/ ٢٢٨ .

بدوره علماء اللغة ، كما بالغ فى تشجيع الشعراء ، لدرجة تجعلنا نقول إن الادب العربى لم يظفر بشىء من التشجيع كما ظفر فى عهد سيف الدولة الحمدانى الأمير العربى ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان الأمير ذا ذوق رفيع ، وقد منح قدرة على فهم الأدب وإدارة الحديث فى المجالس واستخراج أفضل ما عند العلماء والأدباء بالعطاء والتنافس . وكان ذا حكمة فى تقدير شعرائه ، وقد وضع شاعر العربية (المتنبى) فى المقام الأول .

ولم يكن سيف الدولة الحمدانى هو الوحيد الذى منح ذوقا صافيا وقدرة على فهم الأدب (١) ، ولكن كان هناك شعراء كبار من بنى حمدان يتذوقون الشعر من أمثال أبى فراس الحمدانى ، ومهلهل بن نصر بن حمدان ، وأبو العشائر وغيرهم ، الأمر الذى يعكس الحياة الثقافية والأدبية التى كانت سائدة فى عصر ذلك الأمير العربى .

ويجب أن نشير أن الشعر قد أخذ فى الضعف فى نهاية الدولة العباسية ، ولعل ذلك راجع إلى انتشار العجمة من جهة وإلى انصراف الحكام عن تقدير الشعراء من جهة أخرى ، ثم إلى انصراف الشعراء أنفسهم إلى الصناعة اللفظية وغير ذلك من أمور الصنعة والتعقيد .

وأيا كان الأمر فإن التجديد قد شمل الشعر فى هذا العصر ، وأخذت غالبية الشعراء تتجه إليه ، ويتأثرون به ومن هذا :

---

(١) أنظر يتيمة الدهر للثعالبى .

التجديد فى الأغراض والمعانى :

لا شك أن شعراء العصر العباسى ظلوا يقولون الشعر فى الأغراض التقليدية المتعارف عليها من : مدح وفخر ورثاء وهجاء وغير ذلك لكنهم مع ذلك أبدعوا فى بعض الأغراض ، فاستجدت بعض الموضوعات ، واتسمت بعض الموضوعات القديمة بسمة التجديد .

ومن مظاهر التجديد فى الأغراض :

أولا : فن الوصف مثلا :

فقد تركوا خطة الأقدمين فى هذا الفن وأخذوا يعددون ألوان الوصف ، ويوسعون آفاقه وإن لم يبلغوا فى ذلك مبلغ الأندلسيين كما أنهم انتقلوا إلى وصف مظاهر العمران ، وأمعنوا فى النظر إلى الطبيعة .

وكانت قصائد المتنبى فى وصف المعارك الحربية ملء السمع والبصر ، يقول يمدح سيف الدولة عن موقفه فى معركة الحدث (١) :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها .. وتعلم أى الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر قبل نزوله .. فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا تقرع القنا .. وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت .. ومن جثث القتلى عليها تمائم

---

(١) ديوان المتنبى : ٣/٣٨٠، ٣٨١ (شرح العكبرى) دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٩٧هـ ١٩٧٨م .

ثانيا : فن المديح :

لقد كان الشعراء في العصر الجاهلي يصورون في هذا اللون من الشعر الأخلاق الرفيعة والصفات الحميدة من كرم وشجاعة ووفاء وغير ذلك ، حتى إذا كان العصر الإسلامي أخذ الشاعر من مدحته يضيف إلى هذه الصفات صفات أخرى هي صفات الدين ، كما كانت تشتمل على أعمال الدولة وأمجاد العرب الحربية .

هذا من جانب . ومن جانب آخر فقد ظل شعراء المديح يقلدون الأقدمين في الوقوف على الأطلال والبكاء على الدمن والآثار العافية متمنيا لو عادت إليها نضرة الحياة . وكان الشاعر القديم ينزع نفسه من وصف الأطلال وما يتصل بها إلى وصف ذكريات الهوى والشباب التي اندثرت ، ثم إلى وصف الصحراء ورحلته فيها ، أما الشاعر العباسي فقد أخذ يضيف في مدحه للخلفاء والوزراء والأمراء صفات الحماسة والشجاعة ويمزج ذلك كله بوصف الحروب والمعارك .

ثالثا : فن الرثاء :

أما الرثاء فقد عني الشعراء برثاء الأبطال الذين استشهدوا في ميادين القتال ، وأصبحت قصائد الرثاء عند كثير من الشعراء كالمعري وابن الرومي مجالا للحديث عن فلسفة الحياة والموت ، وكانوا يحاولون النفوذ بأن أحدا لن يعيش إلا إلى أجل محدود ، وكأن الرثاء إنما هو منطلق ينطلق منه الشاعر إلى أفكاره وخواطره .

وقد بكى الشعراء المدن ، وفي العصر العباسي الأول بكى الشعراء

بغداد حين أصابتها كوارث النهب والتحريق في حروب المأمون والأمين وبذلك عرف الشعر العربي لأول مرة رثاء المدن (١).

ومن الموضوعات التي استحدثت كذلك في الرثاء ، رثاء المدلل من الحيوانات المستأنسة ، ومن أروع ما نظم في ذلك مرثية لحسن ابن علي بن أحمد بن بشار المعروف بابن العلاف الضرير النهرواني (٢).

رابعا : الغزل :

وقد شاع في هذا الفن النوع الفاحش المستهتر ، كما وجد في هذا العصر الغزل بالمذكر ، وإن كان هناك من الشعراء من ظل يقول الغزل العفيف كالشاعر العباس بن الأحنف .

* * *

وهكذا أضاف الشعراء العباسيون إضافات كثيرة إلى الموضوعات القديمة ، فقد تحول الشعر — كما سبق أن قلنا — من وصف الأطلال إلى وصف القصور ، كما تحول شعر الوصف في جزء منه إلى وصف الخمر ومجالسها ، وتفننوا في وصف الروض والبساتين ، وظلوا يطورون شعر الغزل ، وأخذ بعض الشعراء يشيعون فيه الروح الهزلية ، ولذلك ، كثر شعر الشك والزندقة والمجون ، وأخذت المبالغات تظهر في فنون

(١) تاريخ الأدب العربي د. شوقي ضيف (العصر العباسي الأول) ، ص ٢١٧ .

(٢) انظر المصدر السابق — ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

الشعر كقول أبى نواس يمدح هارون الرشيد :

وأخفت أهل الشرك حتى إنـه .. لتخافك النطف التى لم تخلـق

وعرف شعراء من العصر العباسى — كالمتنبى — بالإبداع واختراع المعانى وتوليدها ، كما عرف بجنوحه إلى الالتواء والإغراب كقوله من قصيدة يمدح فيها كافور الإخشيدى :

إذا ضربت بالسيف فى الحرب كفه .. تبينت أن السيف بالكف يضـرب

وقوله فى نفس القصيدة :

ودون الذى يبغون مالو تخلصو .. إلى الشيب منه عشت والطفل شيب

وقوله مبالغا فى مدح بدر بن عمار :

لو كان علمك بالإله مقسمـا .. فى الناس ما بعث الإله رسـولا

لو كان لفظك فيهم ما أنزل الـ .. قرآن والتوراة والإنجيـلا

ومن الموضوعات الجديدة فن الشعر التعليمى ، وكان السبب فى استحداثه رقى الحياة العقلية فى العصر ، وليس من شك فى أن أبان بن عبد الحميد اللاحقى هو الذى عمل على إشاعة هذا الفن الشعرى الجديد (١) .

---

(١) انظر المصدر السابق (العصر العباسى الأول) ص ١٩٠ .

التجديد في الأسلوب والوزن :

كان للغناء المستحدث في العصر الأموي أثر في موسيقى الشعر وألحانه ، وقد انتقلت هذه الموجة إلى بغداد في العصر العباسي الأول ، فاتسعت من ثم الملاءمات الموسيقية العروضية مع الغناء ، ولم يلبث الشعراء أن حاولوا النفوذ إلى أساليب وأوزان جديدة ومن مظاهر ذلك ما يأتي :

١ — الثورة على النظام في القصيدة العربية التي غالبا ما كانت تبدأ بذكر الديار والأطلال ، ثم الحديث عن المحبوبة والوصف وغير ذلك مما يسمى بـ" عمود الشعر " .

ويمكن أن نسلك الشاعر أبا نواس على رأس الشعراء الذين تخلصوا من المقدمات القديمة ، فلقد ثار ثورة جامحة على الوقوف بالأطلال والرسوم وبقاء الديار ، وأخذ يصف الخمر ، ويدعو دعوة حرة إلى المتاع بها ، يقول (١) :

عاج الشقيُّ على رسمٍ يسائلُهُ .. وعُجتَ أسألُ عن خمّارة البلدِ
يبكي على طلل الماضين من أسدٍ .. لا درّ درُّك قل لي من بنو أسدِ ؟
لا درّ درّ الذي يبكي على طلل .. ولا صفا قلبُ من يصبو إلى وتدِ
كم بين ناعتِ خمرٍ في دساكرها .. وبين باكٍ على نؤْيٍ ومنتضَدِ
دعْ ذاء عدِمْتك ، واشربْها معتّقةً .. صفراءَ تفرق بين الروح والجسدِ

---

(١) ديوان أبي نواس — ص ٢٦٦ طبعة آصاف .

٢ ـ أما فيما يتعلق بالأسلوب فقد اتجه الشعراء إلى هجر الكلمات الغريبة ، وأشربت فى روح كل منهم صياغة الشعر بألفاظ واضحة وأبنية جزلة ضخمة ناصعة ، كل هذا مع الإكثار من الصور الشعرية ، ولعل هذا فيما نرى إنما كان أثرا من آثار الحضارة والتمدن ٠

٣ ـ تسرب إلى الشعر كثير من ألوان البديع ، وقد بدأ ذلك بشكل مقبول فى أول العصر عند مسلم بن الوليد ٠

يقول الدكتور شوقى ضيف : (ولعل القرن الثانى للهجرة لم يعرف شاعرا جهد نفسه فى صنع الشعر كما جهدها مسلم ، فقد أقبل يتمثل نماذج الشعر القديم : جاهليه وإسلامية ، بكل معانيه وصوره وأساليبه ، وأضاف إلى هذا التمثل تمثلا لا يقل عنه عمقا ولا دقة لنماذج الشعر العباسى عند بشار ومعاصريه ٠ وبذلك التأم القديم والجديد فى نفسه ، وعاش ينفق حياته الفنية فى المزج بينهما ، مفكرا فى كل التراث الشعرى الذى سبقه وناقدا ومحللا ومستنبطا ٠ وهداه ذلك منذ أول الأمر إلى أن يستكشف فى وضوح أدوات البديع والتصنيع من جناس وطباق ومشاكله وتصوير وأن يجعلها أساسا فى صنع شعره ، واعترف له القدماء بذلك).[1]

---

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر العباسى الأول) ص ٢٦٠و٢٦١ ٠

وليس من شك فى أن الشعراء أخذوا بعد مسلم يغرقون فى المحسنات البديعية من جناس وطباق وتورية ، وأخذ كثير من الشعراء العباسيين يعنون به ، ويضيفونه كحلى إلى الشعر ، وهم فى ذلك لا يغفلون العناية بالموسيقى الضخمة وما تبثه من رنين قوى محكم .

هذا وينبغى أن نقول إنه بمرور الزمن كثر شعر التورية والتعمية ، وأخذت الصناعة اللفظية تسيطر على الشعر ، وأخذ الشعر يتحول إلى عبث لفظى ، ويتأثر بالفلسفة ، حتى ليشيع الغموض فى كل أبيات القصيدة .

٤ — جدد الشعراء فى أوزان الشعر العربى ، فأخذوا يتجاوزون بحور الخليل بن أحمد ، وينظمون على عكسها ، كما يكثرون من استعمال البحور الخفيفة والبحور القصيرة ، ونظموا كذلك المقطوعات القصيرة .

ومن ذلك ما جاء به الشاعر مطيع بن إياس ، كقوله من مجزوء الرمل : (١)

إن قلبى قد تصابى .. بعد ما كان أنابا
ورماه الحب منه .. بسهام فأصابا
قد دهاه شادن يلْـ .. بس فى الجيد سخابا

---

(١) انظر الأغانى : ٩١/١٣ ط. دار الكتب .

فهو بدر في نقـــاب ... فإذا ألقى النقابـــا
قلت شمسٌ يومَ دَجْنٍ ... حَسَرَتْ عنه السحابـــا

وقولـــه : (١)

ويلي ممن جفانـــي ... وحبه قد برانـــي
وطيفه يلقانـــي ... وشخصه غير دانـــي
أغر كالبـــدر تعشـــي بحسنه العينـــان

كذلك أضاف العباسيون أوزانا جديدة ، ومن ذلك :

المقتضب والمضارع :

أما المقتضب فأجزاؤه مفعولات مستفعلن مستفعلن ، وتحـــذف منه التفعيلة الأخيرة ، وأما المضارع فأجزاؤه مفاعلن فاع لاتن مفاعيلن ، ودائما تحذف فيه التفعيلة الأخيرة أيضا (٢).

كما استحدثوا قصائد ومقطوعات على أوزان جديدة كالمواليا والدوبيت فالمواليا وزن شعبي يستخدم غالبا في البكاء والرثاء ، وظهر أول مـــرة بعد نكبة البرامكة ، وكان هذا الشعر يمثل النواح عليهم ، ثم أصبـــح يعرف بعد ذلك بالموال ، وهو على كل حال ليس من الشعر الفصيح وإنما هو من الشعر الموزون .

---

(١) المصدر السابق : ٣٩٢/١٣ .
(٢) انظر شوقي ضيف (العصر العباسي الأول) ص ١٩٤ .

ومن ذلك قول العتابى شاعر البرامكة (١) :

يا ساقيا خصنى بما تهــــواه .. لا تمزج أقداحى رعاك اللـه
دعها صرفا فإننى أمزجهـــا .. إذ أشربها بذكر من أهــواه

والمراد بالدوبيت الشعر الذى ينظم على وزن : فعلن متفاعلـن فعولن ، فعلن . وهى كلمة مأخوذة من اللغة الفارسية ، وشعـــر الدوبيت ينظم على بيتين مثل :

قد أقسم من أحبـه بالبـارى .. أن يبعث طيفه مع الأسحـــار
يا نار أشواقى به فاتقـــدى .. ليلا فعساه يهتدى بالنـــار

هذا وقد شمل التجديد القافية ، فظهر عندهم (المزدوج) ، وكان المزدوج أساسا لظهور (الرباعيات) ، كما ظهرت عندهـــم المسمطات بأنواعها ، وكانت كل هذه التجديدات تمهيدا لنظـــم الموشحات (٢) ، وإن كانوا لم يصلوا فى الموشحات إلى ما وصـــل إليه أهل الأندلس .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٩٦ .
(٢) أنظر المصدر السابق ، ص ١٩٧ وما بعدها .

٣ ــ من الاتجاهات الفنية فى الشعر العباسى :

١ ــ اتجاه عمود الشعر (١) :

وهذا اتجاه لم يكن شعراؤه يعنون فيه بالمعانى العميقة ، وإنما كان كل همهم أن يكون الشعر واضح المعنى لا يحتاج من قارئه إلى تفكير عميق ليفهم مراده ، وكان كل شاعر من شعراء هذا الاتجاه يرى أن الشعر ليس عملا عقليا ، وإنما هو تعبير جميل عن الشعور ، ولذلك فقد استمد معانيه من الخيال وجمال الطبيعة .

وصاحب الريادة فى هذا الاتجاه هو أبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى الطائى ، فقد أجاد فى سبك الشعر وسلاسة العبارة ، حتى قيل عنه : " إنه أراد أن يشعر فغنى لما فى شعره من موسيقية وانسياب ، وكان يعنى أبسط عناية بالناحية اللفظية فى شعره ، حتى جاءت ألفاظه منتقاة ومحلاة بشىء من الجناس والطباق وغيرهما من المحسنات البديعية دون تكلف أو إغراق أو غموض .

ولعله لهذا دون سواه صنف الآمدى كتابه (الموازنة بين أبى تمام والبحترى) . ومن يقرأ كتاب الموازنة هذا يجد مؤلفه يصف البحترى بأنه مطبوع على مذهب الأوائل ، وأنه يمثل اتجاه الشعراء المحافظين فى الشعر العباسى .

---

(١) انظر تفسير ذلك فى شرح المرزوقى لديوان الحماسة ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ١٣٧٢ هـ .

ومن الأبيات التي توضح هذا الاتجاه ما قاله البحتري يصف فيه إيوان كسرى ، يقول [١] :

صنت نفسي عما يدنس نفسي .. وترفعت عن جدا كل جبس [٢]
وتماسكت حين زعزعني الدهر التماسا منه لتعسي ونكسي [٣]
حضرت رحلي الهموم فوجهت الى أبيض المدائن "عنسي" [٤]
أتسلى عن الحظوظ وآسى .. لمحل من "آل ساسان" درس
أذكرتنيهم الخطوب التوالي .. ولقد تذكر الخطوب وتنسي

٢ — اتجاه شعراء البديع :

على أنه كان يسبق الاتجاه الأول اتجاه آخر يسمى باتجاه شعراء البديع ، وقد سبق بهذا الاتجاه الشاعران بشار بن برد ومسلم بن الوليد ..

---

(١) ديوان البحتري : ١١٥٢/٢ تحقيق حسن كامل الصيرفي .
(٢) الجدا : العطاء ، والجبس : الجبان واللئيم .
(٣) النكس : انقلاب الرجل على رأسه .
(٤) العنس : الناقة القوية .

والحقيقة أن هذا الاتجاه قد يقترن بالشاعر أبى تمام أكثر من غيره من الشعراء ولعل ذلك راجع إلى أنه صاحب مدرسة شعرية متميزة ، وكان عميق التفكير ، سريع البديهة ، وكان على رأس شعراء المعانى الذين يعنون بالغوص على المعانى وابتكارها ، كما كان من أنصار الغموض والتكلف ، ولذلك نراه من الناحية الأسلوبية نراه يعنى بالصناعة الشعرية ، ويولع بالإغراب ولذلك جاءت المحسنات الشعرية كثيرة فى شعره ..

كل ذلك فيما أرى مرده إلى أنه ينظر إلى الشعر على أنه تفكير عقلى عميق ، وصناعة محكمة ، على خلاف ما كان عليه صاحبه البحترى ، والذى مثل الاتجاه الأول ، وانقسم النقاد بينه وبين أبى تمام بين مؤيد للبحترى أو معارض له ، ومؤيد لطريقة أبى تمام أو معارض له (١).

---

(١) فالذين يرون أن الشعر عاطفة يميلون إلى البحترى ، والذين يرون أن الشعر عمل عقلى يؤيدون أبا تمام .

النقد المنهجى

وهكذا يتضح لنا ما سبق أن الشعر فى العصر العباسى قد تحول إلى فن وصناعة بعد أن كان يصدر عن طبع وسليقة ، ولم لا ؟ وقد رأينا العقول تطورت ، والمدارك تهذبت ، والمعارف توسعت ، ورأينا كذلك الثقافة تعظم وتتسع ، وتشمل فروع المعرفة كلها لا تقتصر على الثقافة الدينية والأدبية ، ورأينا ثقافات أجنبية تتدفق من اليونان ، والفرس ، والهند ، وغير ذلك . فكان طبيعيا والحال هكذا أن يتحول الذوق الفطرى إلى ذوق مثقف ثقافة علمية واسعة ، وأن يتأثر النقد الأدبى بهذه الثروة العلمية والأدبية الواسعة ، وأن يخطو خطوات جديدة نحو العمق والدقة ، والتحليل الواضح ، والتعليل المفصل ، بل إن شئت فقل إنه أخذ يحاول الوصول إلى النقد المنهجى القائم على أسس ثابتة ، وقواعد موضوعية مقبولة .

أنماط النقد فى العصر العباسى :

(١) النمط التقليدى :

وهذا النمط يشبه النمط الذى رأيناه فى العصر الجاهلى والإسلامى بل يمكننا أن نقول إنه امتداد للنقد الجاهلى والإسلامى ، ولكنه أوسع وأعمق ، وذلك تمشيا مع مقتضيات البيئة التى تطورت وتغيرت عن ذى قبل.[1]

---

(١) انظر النقد الأدبى لأحمد أمين : ٢/٤٣٦—٤٣٨ .

وأنصار هذا النمط من النقاد كانوا يستعرضون الشعراء ، ويكشفون عن موضع نبوغهم ، أو مواضع ضعفهم ، كما يستعرضون الشعراء الذين تواردوا فى شعرهم ، على معنى واحد ، فيفضلون قولا على قول ، وقد دأبوا على استعراض الشعراء السابقين من جاهليين وإسلاميين ويتذوقون شعرهم ، ويبدون فيه رأيهم بالطريقة التى ذكرنا .

(٢) النمط العلمى :

وهذا فى الحقيقة نمط جديد ، لم يسبق إليه ، وهو نمط يقوم على تأليف ووضع الكتب التى لاتتعرض إلا للنقد وما يتصل به .

ابن سلام الجمحى [١] وطبقات فحول الشعراء :

لقد تعرض ابن سلام لكثير من الشعر ، وأخذ ينقده ، كما قسم الشعراء إلى طبقات ، وذكر رأيه ورأى العلماء فى كل شاعر ، ووازن بينهم وقسم الشعراء الجاهليين إلى طبقات ، ووقف من الشعراء الإسلاميين مثلما وقف مع الشعراء الجاهليين ، وما إلى ذلك .

وابن سلام بصرى ، ولعل البصرة أسبق البلدان فى التأليف فى النقد ، وكانت الحركة العلمية فيها على أتم ما يكون من نشاط ، وقد ظهرت فيها أول حركة اعتزال ، وليس يخفى أن المعتزلة هم واضعوا أصول علم البلاغة ، كى تساعدهم فى دعوتهم ، وفى إقامة

---

(١) المتوفى عام ٢٣٢هـ .

الحجج والبراهين .

وكتاب ابن سلام من أقدم الكتب النقدية ، وقد خطا بالنقد خطوات واسعة وجديدة ،قال عنها الأستاذ أحمد أمين : كالخطوة التي خطتها اللغة من كلمات مبعثرة إلى معجم منظم ،أو كنقل الأبحاث النحوية المفرقة إلى كتاب ، ككتاب سيبويه ونحو ذلك " (١)

ومجمل آراء ابن سلام باختصار :

١ ـ اشترط في الناقد أن يكون بصيرا بالشعر ، وهو لايعتد بالنقد الذوقي التأثري إلا إذا استوفى الناقد شرطه من الدربة والممارسة والخبرة الفنية .

ويذكر أن قائلا قال لخلف : (إذا سمعت أنا بالشعر استحسنه فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك ، قال له : إذا أخذت أنت درهما فاستحسنته ، فقال لك الصراف إنه ردئ ، هل ينفعك استحسانك له " (٢) وهذا هو المنهج التأثري عند ابن سلام .

٢ ـ اهتم بتحقيق النصوص والتثبت من نسبتها إلى أصحابها . وهذا هو المنهج التاريخي .

---

(١) النقد الأدبي : ٤٣٨/٢ .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ص ٨٠ شرح محمد محمود شاكر ، طبعة دار المعارف .

٣ — قسم الشعراء إلى طبقات بحسب أزمنتهم ، وفاضل بينهم بحسب الجودة ، وكثرة الشعر ، وتعدد الأغراض (١) .

٤ — وفى مجال المنهج الفنى نراه يرى أن الشعر لابد من أن تتوفر له قوة الأسر وسهولة العبارة .

وكتاب ابن سلام على فضله يعد الطليعة فى فن ينقصه الترتيب الدقيق ، وقد أخذ الدكتور حسن جاد على ابن سلام عدة مآخذ (٢) ، ومع ذلك فالكتاب خطوة رائدة على درب النقد المنهجى السليم .

الجاحظ (٣) والنقد الأدبى :

وفى القرن الثالث الهجرى عاش حامل لواء البيان العربى أبو عثمان الجاحظ ، وكانت له نظرات فى النقد الأدبى تعد دائرة معارف ، ونقده مبثوث فى كل كتبه — وعلى وجه الخصوص كتابيه " البيان والتبيين " و " الحيوان " .

ومن أشهر نظراته فى النقد الأدبى :

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٢١٧ .
(٢) انظر دراسات فى النقد الأدبى ، ص ٥٨ ، ٥٩ .
(٣) المتوفى عام ٢٥٥ هـ .

١ — انه يعتمد في منهجه النقدي على ذوقه المثقف الذكي ، وعلى عقله المفكر ، فجاءت من ثم معظم أحكامه مشروحة معللة .

٢ — أضاف الجاحظ — خلافا لمن سبقه — نقد النثر بجانب نقد الشعر ، فدرس الخطابة العربية (١).

٣ — فطن الجاحظ إلى أهمية (المنهج الفني) في النقد الأدبي ، ذلك المنهج الذي يعنى بالشكل والمضمون ، وضرورة الملاءمة والترابط بينهما .

يقول الجاحظ :

" وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، ... فإذا كان المعنى شريفا ، واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع ، بعيدا من الاستكراه ، ومنزها عن الاختلال ، مصونا عن التكلف ، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة " (٢).

---

(١) انظر البيان والتبيين .

(٢) البيان والتبيين : ٨٣/١ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٣٦٧هـ ، ١٩٤٨م .

ويقول :

" وإنما الألفاظ على أقدار المعاني ، فكثيرها لكثيرها ، وقليلها لقليلها ، وشريفها لشريفها ، وسخيفها لسخيفها "(١) .

٤ — يرى الجاحظ أن الشاعر المطبوع هو ذلك الشاعر الذي يصدر عن طبيعته ، ويستجيب لموهبته المتأصلة في نفسه ، دون أن يتكلف ما ليس في طبعه .

٥ — يعد الجاحظ أسبق النقاد تحررا من التعصب للشعر القديم .

٦ — كان يعتد بالجانب الخلقي في الأدب .

٧ — يرى أن الأسلوب الوسط هو الذي يتسم بالوضوح والسهولة والإبانة ، والأسلوب الوسط هو الذي لا يهبط إلى الإسفاف ، ولا يرتفع إلى درجة الغريب الوحشي .

---

(١) الحيوان : ٨/٦ . تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الأولى ١٣٣٨هـ ١٩٤٥م .

ابن قتيبة [١] والشعر والشعراء :

ومن محاولات ابن قتيبة :

١ ـ لم يأخذ بفكرة الطبقات كما فعل ابن سلام ، وجعل أساس المفاضلة قائما على الجودة ، والفصاحة ، وسلامة التراكيب ، والأصالة ، ودقة المعانى .

٢ ـ لم يتعصب للقديم ، ولم يعتد فى تفضيل الشعراء بالكثرة [٢] .

٣ ـ قسم الشعر من حيث الجودة والرداءة إلى أربعة أضرب :

- ضرب حسن لفظه وجاد معناه .
- وضرب حسن لفظه وقصر معناه .
- وضرب جاد معناه وقصر لفظه .
- وضرب تأخر معناه وتأخر لفظه [٣] .

٤ ـ اعتمد ابن قتيبة فى تقويمه للشعر على الاعتداد بالفكرة والمعنى .

---

(١) المتوفى عام ٢٧٦هـ .

(٢) انظر الشعر والشعراء تحقيق الأستاذ أحمد شاكر : ١/ ٦٧، ٢٧ دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤هـ .

(٣) انظر الشعر والشعراء ، ١/ ٩وما بعدها .

٥ - الشعراء عنده صنفان : مطبوع ومتكلف ، فالمطبوع من سمح بالشعر واقتدر على القوافى ، وأراك فى صدر بيته عجزه وفى فاتحته قافيتــه وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغريزة ، ولكنه قــــرر بعد ذلك أن الشاعر المطبوع هو القادر على الارتجال دون تلعثم[١]

وإذا كان الباحثون المحدثون قد انتهوا إلى أن ابن قتيبــــه لم يخط بالنقد العربى خطوات جديدة واضحة المعالم فيكفيه :

أ - أنه حمل على فلسفة اليونان والمنطق ، ووقف فى سبيــــــل طغيانهما .

ب - أنه نظر إلى النقد نظرة فنية تتعلق بألفاظه ومعانيه .

جـ - وأنه لم يتعصب للقديم لقدمه ، ولم ينكر المحدث لحداثتـه ، بل جعل الأساس هو الجودة .

د - وأنه أصاب فى تحكيم الرأى الشخصى ، وفى تعريف الطبــــع والتكلف .

وإن أخذ عليه :

أ - أنه لم يحلل النصوص ، أو يدرسها أو يوازن بينها ، وهــــو بذلك يفقد خاصة الناقد الحقيقى .

---

(١) الشعر والشعراء : ١/٣٦ ، ٣٧ .

ب ـ وأنه يعتد بالاتجاه الخلقي في العمل الأدبي ، ويجعلها المقياس الصحيح .

جـ ـ وأنه يخلط بين الارتجال والطبع ، وبين التثقيف والتكلف ، فيجعل التثقيف تكلفا ، ويجعل الارتجال طبعا ، مع أنه لابد من الروية للشاعر المطبوع [١] .

والآن نترك القرن الثالث الهجري لنتابع مسيرة النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري ، ذلك القرن الذي وصل النقد الأدبي فيه إلى أقصى عظمته ، إذ اختفى من حلبته اللغويون والنحاة ، وأخذ النقدة الأدباء ينفردون بحمل رايته ، فهم الذين عنوا بدراسة الشعر ، وتقدير رجاله ، وتحاوروا فيهم ، وتخاصموا .

وهم يمتازون عن أدباء القرن الماضي بأن غورهم أبعد ، ونظرتهم أعمق ، وأفقهم أفسح ، وبأنهم حللوا الظواهر الأدبية وعللوها ، وأرجوا كل شيء إلى أصل وسبب ، هم أدباء علماء ، ذوقهم عربي سليم وثقافتهم عربية غزيرة " [٢]

---

(١) دراسات في النقد الأدبي ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري ، للأستاذ طه أحمد إبراهيم ، ص ١٥١ .

ومن هؤلاء النقاد : (أبو الفرج الأصفهاني ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وأبو علي الحاتمي ، والآمدي ، والجرجاني) وغيرهم .

النقـــد الأدبي في كتاب الأغاني للأصفهاني

كتاب الأغاني من أجل المؤلفات نفعا ، وأكثرها فائدة ، وهـــو أشهر من أن يعرف ، ولم ينل كتاب غيره ما نال من الشهرة والذيوع، ولم لا يكون كذلك و قد حفظ لنا معالم حياتنا الأدبية في عصورهـــا الأولى ، وهو لا يعتبر أهم مرجع للتاريخ الأدبي إلى القرن الثالـــث الهجري فحسب ، بل يعتبر كذلك أهم مصدر لتاريخ الحضارة الإسلامية للدولتين الأموية والعباسية (١) .

وقد عرف الباحثون أهمية الكتاب فعولوا عليه في أبحاثهـــم ، ووضحت العناية به في طبعاته المختلفة ، ومحاولة دراسة بعض جوانبه ووضعه في مكانته بين أمهات مصادرنا الأدبية والنقدية ، مهما اختلفت وجهات النظر حول ما حشده الأصفهاني فيه من آراء وسجله مـــــن نظـــرات .

ولعل أوضح دليل يثبت أثر هذا الكتاب ما ذكره زعيم أدبـــاء هذا العصر وكبير كتابه العالم الكبير والمفكر الجليل الدكتور ، طـــه حسين ، في حديثه عن " مطيع بن إياس " .

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني وكتابه الأغاني ، محمد عبد الجـــواد الأصمعي : ١٠٩ ، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية .

يقول : " ولئن أردنا أن نحكم على مطيع حكما جامعـــا مختصرا لما تجاوزنا حكم أبى الفرج عليه حيث يقول : " هو شاعر من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، وليس من فحول الشعراء ، ولكنه كان ظريفا ، خليعا ، حلو العشرة ، مليح النادرة ، ماجنا ، متهما فى دينه بالزندقة " .

ولو شئنا أن نضيف إلى هذا الحكم شيئا ، لقلنا إنه كان صادقـــا فى شعره ، آخذا بحظه الموفور من هذه الأوصاف كلها [١] .

وكنت أردد الطرف ذات مرة بين فهارس كتاب الأغانـــــى وأجزائه التماسا لشاعر مجهول يستأهل البحث ويستحق الدراسة ، وكلما قلبت صفحات الكتاب ازددت يقينا بقيمته فى مجال الدراســات الأدبية ، لا لأنه سجل حافل يجمع رصيدا كبيرا من أشعار العـــرب وفنون نثرهم فحسب ، بل لأنه سجل صورة كاملة لكافة فنون العـــرب الأدبية فى عصورها الأولى ، ولولاه لعز علينا معرفة الكثير عن هـــذه العصور .

وحين انتهى أبى المطاف إلى الشخصية التى وقع اختيارى عليها وجدتنى أحس بقيمة هذا الكتاب فى مجال النقد الأدبى ، فهو مـــن أهم المصادر التى يرجع إليها دارسو النقد العربى ، كما أنه موسوعـــة كبيرة تضم سجلا وافرا من مظاهر النقد الأدبى فى عصور العرب الأولـى ،

---

(١) حديث الأربعاء : ٢/١٥٩ . طبعة دار المعارف ، الطبعة الثامنة .

وقد عده الدكتوران بدوى طبانه و محمد زغلول سلام مصدرا مهمـــا من مصادر النقد (١) .

وقد دفعنى هذا الإحساس إلى دراسة النقد الأدبى فـــى كتاب الأغانى ، وأن أقدم صورة لما أورده أبوالفرج من آراء نقديـــة فى كتابه .. وهنا لمعت فى فكرى خاطرة أخذت تلح على إلحاحـــا شديدا . تلك هى : هل أدرك النقاد العرب القدامى مختلـــف المذاهب الأدبية والنقدية (كالفنى والتاريخى والنفسى) ونحـــو ذلك من المذاهب التى قيل إنها ثمرة من ثمرات العصر الحاضـــر ، وأن النقاد العرب القدماء لم يدركوها ولم يفطنوا إليها ؟ .

وظلت هذه الفكرة تراودنى ، وبقيت فى خاطرى ســـواء لا يلح على ، على الرغم مما استشعرته من عبء غير قليل تقتضيه دراســة مثل هذا الجانب النقدى الذى هو من أدق جوانب هذاالكتاب ، لما يستلزمه من دراسة ،وعمق واستقراء ، وتتبع لنصوص الأغانـــى واستيعاب لمظاهر النقدالأدبى فيه وطرائقه ومناهجه .

= = = = =

---

(١) راجع دراسات فى نقد الأدب العربى د . بدوى طبانـــه ، وتاريخ النقدالعربى إلى القرنالرابع الهجرى د . محمد زغلـــول سلام .

أبو الفرج الأصفهانى :

ولد أبو الفرج الأصفهانى سنة أربع وثمانين ومائتين فى خلافة المعتضد ، وتوفى سنة ست وخمسين وثلاثمائة [١] ، ونشأ وتربى فى بغداد [٢] كعبة العلم والعلماء ، ومنتدى الأدب والأدباء ، وقد قضى بهذا معظم شبابه وشيخوخته فى القرن الرابع الهجرى ، أخصب العصور الأدبية ، حيث اتسع مجال اللغة ، وحلق الشعر فى كل مجال ، واتسع مجال النقد والتأليف .

ومن يتصفح " الأغانى " يلاحظ أن لقب " الأصبهانى " ليس لقبا لأبى الفرج وحده ، وإنما هو لقب اشتهر به كل من أبيه وعمه وابن عمه وجده [٣] ، مما يؤكد أنه قد ورث هذا اللقب عن الأسرة ، وليس ذلك نسبة " لأصبهان " التى قيل إنه ولد بها ، فهذا أمر غير متحقق ، وإنما المتحقق أن أسرته كانت تقيم " بسر من رأى " [٤] و " بغداد " وأن حركات انتقالها كانت بين هاتين المدينتين .

---

(١) انظر : أبو الفرج الأصبهانى وكتابه الأغانى ، الأصمعى : ١٠٥ـ١٥٤ .

(٢) الأعلام للزركلى : ٥/ ٨٩ . الطبعة الثانية .

(٣) الأغانى : ٦/ ١٥١ و ٨/ ٣٦ و ١٥/ ١٠٢ . " طبعة ساس .

وانظر كذلك : مقاتل الطالبين ، لأبى الفرج ، ٦٩٨ . دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٨هـ ١٩٤٩م .

(٤) راجع الأغانى : ٣/ ١١ . طبعة ساس .

وقد أكب أبو الفرج على الدرس ، وعكف على قراءة الكتب في العلوم والآداب ، حتى صار زعيما للحياة الأدبية في بغداد ولا غرو فقد تتلمذ على طائفة جليلة من العلماء والأدباء (١) ، واستفاد من معارفهم ، وأصبح ذا دراية تامة بها .

ومن أوسع هؤلاء الأساتذة علما ، وأشهرهم ذكرا في المحافل الأدبية " أبو بكر بن دريد " و " أبو بكر بن الأنباري " و " الفضل بن الحباب الجمحي " و " علي بن سليمان الأخفش " و " محمد بن جرير الطبري " و " جعفر بن قدامة " وغيرهم ممن نالوا شهرة واسعة وصيتا ذائعا .

كما تتلمذ على يديه كثير من أئمة الأدب واللغة ورواة الأخبار وعلماء الحديث (٢) ، ومنهم " الدارقطني " و " أبو زكريا الأندلسي " و " إبراهيم بن أحمد بن محمد الطبري " و " علي بن أحمد الرزاز " فهو بهذا أستاذ لكثير من قادة الفكر ، وفوق ذلك فهو على صلة بالخلفاء ، وكانت صلته بهم قائمة على تأليف الكتب ونيل الجوائز (٣)

---

(١) انظر : أبو الفرج وكتابه الأغاني ، الأصمعي : ٦١–٦٩ .

(٢) انظر المصدر السابق : ٧٠–٧٤ .

(٣) راجع : نفح الطيب للمقري : ٢٤٠/٣ ، طبعة عيسى البابي الحلبي .

وقد نبه بعض من ترجموا له [١] إلى مصنفاته ، وقد حصروا منها عددا كبيرا ، والعجيب أنها ضاعت جميعها ولم يبق منها سوى كتابيه " الأغانى " و " مقاتل الطالبيين " والأغانى وحده جدير أن نلمح من صفحاته اتجاه الأصفهانى الشعرى ومذهبه الفنى .

كتاب الأغانى :

والباعث على تأليف الأصفهانى لكتاب الأغانى باعث علمى ، فهو رد على ما شاع فى عصر المؤلف من آثار منحولة مفتعلة ، تنسب إلى مشاهير أصحاب الصناعة الفنية فى الغناء أو غيره من الفنون ، وقد حاول أن يرد على الشك ، ويشير إلى المغالطة ، ويضع يد قارئه على المتحول من الأخبار ، وينبه على المستحيل ، ويضع علامة استفهام فوق ما لم تسعفه فيه الرواية لإرجائه إلى أصوله الأولى [٢] .

---

(١) راجع " الفهرست " لابن النديم و "معجم الأدباء" لياقوت و " أنباء الرواة " للقفطى و " تاريخ الأدب العربى " لبروكلمان .

(٢) راجع الأغانى : ١/٢و ٥، طبعة دار الشعب .

وليس كتاب الأصفهانى أول كتاب ألف فى هذا الفن ، فقد ألف فى الغناء قبله كتب عديدة ، سميت باسمه ، وقد أحصاها ابن النديم فى "الفهرست" وتبعه فى ذلك الأستاذ " محمد عبد الجواد الأصمعى" فى كتابه " أبو الفرج الأصفهانى وكتابه الأغانى " فقد صنع فهرسا يشتمل على المصادر والمراجع التى كتبت فى الغناء ، والنغم وأخبار المغنين ورتبها ترتيبا هجائيا (١) .

وقد أفاد أبو الفرج من الرواية والمرويات، وتتلمذ لمدرسة واسعة من رواة الأخبار على اختلاف منازعهم ومشاربهم ، وروى عن كل إنسان كل فى مجال اختصاصه وعمله ، واستفاد كثيرا من مصادر التاريخ والسير وأيام العرب وتاريخ الغزوات والحروب كما استخدم كتب الأدب ومصادره استخداما مفيدا .

ومن يراجع الكتاب بأجزائه يمكنه حصر المصادر التى أفاد منها أبو الفرج وذكرها فى كتابه وهى :

١ـ المصادر التاريخية والأدبية والغنائية .
٢ـ الرسائل المتبادلة والإجازات (٢) والمراسلات والوثائق الرسمية وما أشبه ذلك .
٣ـ الرواة .

---

(١) انظر الكتاب : ص ٣٦٢ وما بعدها .
(٢) انظر مثلا لذلك فى الأغانى : ٣/ ٣٠٠و١٣/ ٣٣٠ـ ٣٣١ ، طبعة بيروت .

وقد ينقل أبو الفرج عن مصادر لا يذكر أسماءها ولا أسماء مؤلفيها ، فكثيرا ما نقرأ فى الكتاب عبارة " وجدت فى بعض الكتب ".(١)

وقد يتبادر إلى ذهن من لا يقرأ كتاب الأغانى أنه كتاب خاص بالغناء والمغنين . والحقيقة تشير إلى غير ذلك ،فهو موسوعة تضم الأدب والنقد والتاريخ واللغة والموسيقى ، والأخبار والأنساب وهو إلى جانب ذلك سجل حافل بالمظاهر النقدية عند العرب إلى عصر أبى الفرج .

النقد الأدبى فى كتاب الأغانى :

من يتتبع مسيرة النقد الأدبى فى القرن الرابع الهجرى ، ذلك القرن الذى عاش فيه الأصفهانى أيام شبابه وشيخوخته ، يجده قد وصل إلى أوج عظمته ، فقد اختفى من حلبته اللغويون والنحاة وانفرد النقدة الأدباء بحمل رايته ، وأصبح هؤلاء شغوفين بدراسة الشعر وتقدير رجاله ، وهم يمتازون عن الأدباء السابقين بأن غورهم أبعد وفطرتهم أعمق وأفقهم أفسح ، وبأنهم حللوا الظواهر الأدبية وعللوها وأرجعوا كل شئ إلى أصل وسبب، هم أدباء علماء ، ذوقهم عربى سليم ، وثقافتهم عربية غزيرة " (٢) .

---

(١) انظر أمثلة فى الكتاب : ٢٧١٧/٧و٣٤١٨/٩و٣٥١٤/١٠ و ٣٤١٧/١٢ و ٦٩٥٤/٢٠ . طبعة دار الشعب .

(٢) تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى إلى القرن الرابع الهجرى ،طه أحمد إبراهيم ص ١٥١ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧م .

والنقد الأدبي يعد أحد الموضوعات الهامة البارزة في كتاب الأغاني ، فالكتاب بجانب ما فيه من آراء واجتهادات خاصة بأبي الفرج إلا أنه سجل زاخر للمسات نقدية سبق بها أبو الفرج ، ولم يفته أن يسجلها في الكتاب وسوف نتناول كل لون بالدراسة .

أولا : اجتهادات الأصفهاني النقدية :

إذا كان الهدف من تأليف كتاب الأغاني هو الغناء وليس الشعر والشعراء إلا أن صاحبه قد سجل فيه جهودا ذاتية في مجال النقد الأدبي ، وهي تدل من ناحية على ثاقب فكره ، وخصوبة ذهنه ، وقوة حفظه ، وواسع علمه في طرق النقد الأدبي كما تكشف من ناحية أخرى عن حاسته النقدية ، وعن خبرته بمواطن التأثير التي تؤثر في الشعر والشعراء ، وإن كان في معظم نقده ، قد اكتفى بالأحكام العامة دون اللجوء إلى الشرح والتعليل على نحو ما صنع غيره من النقاد . ولعل عذره في ذلك أن هدفه الأول من تأليف الكتاب إنما هو الغناء وليس الشعر والشعراء .

ونذكر هنا نبذة مختارة من جهوده تعكس بعض اجتهاداته في مجال النقد الأدبي :

١ — سجل الأصفهاني كثيرا من الخصائص الأدبية والفنية لعدد كبير ممن ترجم لهم ، فهو يعرض لأغراض شعر الشاعر ، وخصائص شعره ، وآراء النقاد فيه ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره عن الحطيئة قال : " وهو من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم ،

متصرف فى جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب ، مجيد فى ذلك أجمع " (١).

ويقول عن " الرقاش " : " كان مطبوعا سهل الشعر نقى الكلام " (٢).

ويقول عن " سلم الخاسر " : " وهو راويه بشار بن برد وتلميذه ، وعنه أخذ ومن بحره اغترف ، وعلى مذهبه ونمطه قال الشعر " (٣).

ويقول عن أبى العتاهية : كان غزير البحر ، لطيف المعانى سهل الألفاظ ، كثير الافتنان ، قليل التكلف ، إلا أنه كثير الساقط المرذول مع ذلك ، وأكثر شعره فى الزهد والأمثال ... وله أوزان طريفة قالها مما لم يتقدمه الأوائل فيها " (٤).

---

(١) الأغانى : ٥٧٥/٢ . طبعة دار الشعب .
(٢) الأغانى : ٦٠٥١/١٧ . طبعة دار الشعب .
(٣) الأغانى : ٧٥٦١/٢٢ . طبعة دار الشعب .
(٤) الأغانى : ١٢١٦/٤ . طبعة دار الشعب .

فهذه الأحكام مع بساطتها إلا أنها عرض للصياغة والفكرة والأغراض والأوزان ، وكان هذا دأبه في صدور تراجمه غالبا .

٢ — وهو يحاول أن يعقد صلة بين الشعراء الذين يقع بعضهم من بعض موقع الأساتذة من الطلاب ، ويرجعهم إلى حلقات أو مدارس ، يصدر عنها كل منهم ، وتظهر خصائصها في أشعارهم كما يحرص على بيان خصائص كل مدرسة وأساتذتها وتلامذتها .

يقول عن " منصور النميري " : وكان منصور شاعرا من شعراء الدولة العباسية من أهل الجزيرة ، وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العتابي وراويته ، وعنه أخذ ، ومن الجرة استقى وبمذهبه تشبه " (١) .

وحين يتحدث عن " مسلم بن الوليد " يذكر مكانته في مدرسة البديع وأثره فيها فيقول : " وهو فيما زعموا : أول من قال الشعر المعروف بالبديع وهو لقب هذا الجنس : البديع واللطيف ، وتبعه فيه جماعة ، وأشهرهم فيه أبو تمام الطائي ، فإنه جعل شعره كله مذهبا واحدا فيه ، ومسلم كان متفننا متصرفا في شعره " (٢) .

---

(١) الأغاني : ٤٦٥٢/١٣ . طبعة دار الشعب .

(٢) الأغاني : ٧٢٦٣/٢١ . طبعة دار الشعب .

٣ — وهو يجمع من يترجم له في منزلته بين الشعراء والمغنين ، ويحدد موقعه من خطير الأدب ، يقول عن المغني الشاعر " عمرو بن بانة " :

" وكان مغنيا محسنا ، وشاعرا صالح الشعر ، وصنعته صنعة متوسطة ، النادر فيها ليس بالكثير ، وكان يقعد عن اللحاق بالمتقدم في الصيغة أنه كان مرتجلا ، والمرتجل من المحدثين لا يلحق الضراب ، وعلى ذلك فما فيه مطعن ، ولا يقصر جيد صنعته عن صنعة غيره من طبقته ، وإن كانت قليلة ، وروايته أحسن رواية وكتابه في الأغاني أصل من الأصول " (١) .

٤ — كما اهتم بتسجيل آراء النقاد وآراء أصحاب كتب الطبقات في تسجيله لمن ترجم لهم . فهو يروي أن الأصمعي قال في شعر أبي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى " (٢) .

ويقول عن " ابن ميادة " : " وجعله ابن سلام في الطبقة السابعة ، وقرن به عمر بن لجأ والعجيف العقيلي ، والعجير السلولي " (٣) .

---

(١) الأغاني : ٥٦٠٠/١٥ طبعة دار الشعب .
(٢) الأغاني : ١٢٥٤/٤ طبعة دار الشعب .
(٣) الأغاني : ٦٨٠/٢ طبعة دار الشعب .

٥ — وأبو الفرج فى نقده للشعر يسلك مسلكا متجردا ، فلا يعتد بأخلاق الشاعر حين يعرض لشعره بالنقد ، وإذا استحسن شعره وضعه فى مكانته التى يستحقها دون مراعاة لخلقه وإن كان فاسدا .

ومن أمثلة ذلك ما عقب به على حادثة هجاء الأحوص ليزيد بن المهلب حين امتنع الفرزدق وكثير عن هجائه ، والتى يعدها بعض النقاد وسيلة للطعن فى شعره بسبب عدم تورعه كزميليه عن هذا الهجاء .

يقول " وليس ما جرى من ذكر الأحوص إرادة للغض منه فى شعره ، ولكنا ذكرنا من كل ما يؤثر عنه ما نعرف به حالة من تقدم وتأخر وفضيلة ونقص ، فأما تفضيله وتقدمه فى الشعر فمتعالم مشهور ، وشعره ينبئ عن نفسه ، ويدل على فضله فيه وتقدمه وحسن رونقه وتهذيب صفائه " (١) .

٦ — وهو يوثق النصوص ويهتم بنسبتها إلى أصحابها ، وهذه هى أولى مراحل النقد المنهجى السليم على نحو ما صنع الآمدى حين بدأ بتحقيق النصوص الشعرية لكل من أبى تمام والبحترى وصحح نسبتها وبين ما فيها من اضطراب أو خطأ فى الأوزان .

والذى لا شك فيه أن قدرا غير قليل من أخبار كتاب الأغانى مبنى على

---

(١) الأغانى : ٤/١٤٦٩ . طبعة دار الشعب .

الرواية من الرواة ، والقارئ للكتاب يلاحظ العبارات الآتية :
حدثني ، أخبرني ، روى ... إلخ ، ثم يذكر بعدها أسانيد
الأخبار والروايات .

وله اهتمام كبير بالسند ، فهو يعده أساسا للرواية ، وإذا حدث
وخلا الخبر من السند أو نقص أشار إلى ذلك . ومن ذلك قوله :
وأخبرني محمد بن العباس اليزيدي بإسناد له لم يحضرني ، وأنا
أخرجه إن شاء الله تعالى " (١)

وكان يراجع أحيانا المصادر والمراجع والدواوين الشعرية ،
وكل ما يساعده على التحقيق والتدقيق ، رغبة منه في تحقيق
الأشعار وتوثيقها ، وإذا حدث وخالفه التوفيق أنهى ذلك
للقارئ (٢) .

ومن براجع الأسس التي بنى عليها أبو الفرج تحقيقاته
للمرويات التي حققها وبين صدقها أو زيفها ، يشعر أن الرجل كان
بإمكانه أن يحقق كل أخبار الكتاب ، ولو كان قد قدر له أن يفعل
هذا بكل نصوص الكتاب لأزجى للأدب والأدباء عملا نافعا على مر
العصور ، ولكنه آثر أن يكون راوية يروي كل ما يقع تحت يده ، فجاء من
ثم كثير مما رواه كما سمعه بدون تعقيب أو تعليق .

---

(١) الأغاني : ٨/٢٦٦ ، ط دار الثقافة بيروت .

(٢) انظر الأغاني : ٤٠٦٣/١١ ط دار الشعب .

وقد لحظ الأستاذ سيد قطب في كتابه " النقد الأدبي أصوله ومناهجه " جهود أبي الفرج فاستعرض نماذج من " البيان والتبيين " للجاحظ، و " العقد الفريد " لابن عبد ربه و " الأغاني " للأصفهاني و " الأمالي " لأبي علي القالي و " يتيمة الدهر " للثعالبي و " زهر الآداب " للحصري، ثم عقب على هذا بالإشادة بصاحب الأغاني فقال :

" بينما تجد صاحب الأغاني ينتقل نقلة بعيدة، فيدخل في صميم المنهج التاريخي، يذكر النص وينسبه لصاحبه بسلسلة من الرواية ويذكر أخباره، ومن يشترك معه فيها ... إلخ، وهذا من صميم المنهج التاريخي وأصوله الصحيحة (١).

وتتجلى الأهمية هنا في أن كتاب الأغاني قد كشف لنا عن إدراك نقاد العرب القدماء للمناهج النقدية الثلاثة (التاريخي، الفني، النفسي) التي عنى الباحثون المحدثون بها . فحديثه في تحقيق النصوص ونسبتها إلى أصحابها، وعنايته ببيان أثر البيئة والزمن في شعر من ترجم لهم، كل هذا من صميم المنهج التاريخي، كما أن نقدهم للشعر في ألفاظه ومعانيه كان نقدا يقوم على التقويم الفني، وإن كان في معظم حالاته نقدا يعتمد على الذوق المجرد من التحليل والتعليل .

---

(١) النقد الادبي أصوله ومناهجه ١٦٢، ط. دار الشروق .

كذلك أثبت كتاب الأغانى أن نقاد العرب القدماء أدركوا المنهج النفسى ، ذلك المنهج الذى يلاحظ البواعث النفسية عند الشاعر ، وما يحتويه النص من آثار نفسية فى نفوس المتلقين له (١).

ومن أمثلة ذلك : روى فى أخبار أبى العتاهية : أخبرنى أبو دلف هشام بن محمد الخزاعى قال : " تذاكروا يوما شعر أبى العتاهية بحضرة الجاحظ إلى أن جرى ذكر أرجوزته المزدوجة التى سماها ، ذات الأمثال ، فأخذ بعض من حضر ينشدها حتى أتى على قوله :

يا للشباب المرح التصابى .. روائح الجنة فى الشباب

فقال الجاحظ للمنشد : قف ، ثم قال : أنظروا إلى قوله :

روائح الجنة فى الشباب

فإن له معنى كمعنى الطرب الذى لا يقدر على معرفته إلا القلوب وتعجز عن ترجمته الألسنة ، إلا بعد التطويل وإدامة التفكير ، وخير المعانى ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه" (٢).

---

(١) انظر : المذاهب النقدية د. ماهر حسن فهمى : ١٤٧ و ١٤٨ دار الطباعة الحديثة بالقاهرة ١٩٦٢م .

(٢) الأغانى : ٤/١٢٨ ، طبعة الشعب .

فالجاحظ هنا يقيس جمال الشعر بأثره فى النفوس .

كما روى أن ابن أبى عتيق وصف شعر عمر بن أبى ربيعـــــة بأن له نوطة فى القلب ، وعلوقا بالنفس ، وما عصى الله عز وجـــل بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر بن أبى ربيعة (١) .

وروى قولهم : أشعر الناس امرؤ القيس اذا ركب ، والنابغـــة اذا رهب ، وزهير اذا رغب ، والأعشى اذا شرب " (٢) .

ويمكن بيان أهمية كتاب الأغانى فى الكشف عن مثل هذه الظواهر إذا قرأنا ما كتبه الدكتور محمد عبد الرحمن شعيب معلقا به علـــى الرواية السابقة .

يقول : " وأحيانا يربط النقاد بين قوة الشاعرية والغـــرض الذى يتكلم فيه الشاعر ، ويرون أن من الشعراء من يسبق غـــيره ويفوق أقرانه إذا تكلم فى غرض خاص ، وكأنهم بذلك يربطون بـــين الشاعرية والموضوع الذى يثيرها ، أى بين الإبداع الفنى و الحالـــة النفسية والمزاجية للشاعر ، كما فى قولهم : أشعر الناس هم أمـــرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشـــى إذا شرب ، ولعل هذا الحكم من أدق الأحكام وأقربها إلى الموضوعية لأنه حكم يستند إلى أن نواحى الفنية متشعبة وفيرة ، وطاقة الإنسان ومزاجه محدودان ، ولا يستطيع أديب واحد مهما كانت قوته الفنيـــة وطاقته الشعورية وقدرته الأدبية أن يبدع فى كل أغراض الفن .

---

(١) الأغانى : ١/١١٣ـ١١٤ ، ط . دار الثقافة ببيروت .

(٢) الأغانى : ١٠٨/٦ . طبعة دار الكتب .

صرمت حبائلا من حب سلمى .. لهند ما مهدت لمستراح

وهذه القصيدة الحائية التي مدح بها عبد الواحد من فاخر الشعر ونادر الكلام ومن جيد شعر ابن هرمة خاصة " (١).

ويقول عن " هاشميات الكميت " : "وقصائده الهاشميات من جيد شعره ومختاره " (٢).

ومن أحكامه العامة على الأبيات :

(- أخبرني محمد بن العباس اليزيدي قال : حدثنا الرياشي قال : قال الشعبي الأعشى أغزل الناس في بيت ، وأخنث الناس في بيت ، وأشجع الناس في بيت .

فأما أغزل بيت فقوله :

غراء فرعاء مصقول عوارضها .. تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل*

---

(١) الأغاني : ١٧٠/٥ ، ط. ساس .

(٢) الأغاني : ٣٢٨/١٦ ، ط. دار الثقافة بيروت .

* الوجي : وصف من الوجي . وهو أن يجد ألما في رجليه عند المشي ، والوحل : الماشي في الوحل .

صرمت حبائلا من حب سلمى .. لهند ما مهدت لمستراح

وهذه القصيدة الحائية التى مدح بها عبد الواحد من فاخر الشعر ونادر الكلام ومن جيد شعر ابن هرمة خاصة " (١).

ويقول عن " هاشميات الكميت" : "وقصائده الهاشميات من جيد شعره ومختاره " (٢).

ومن أحكامه العامة على الأبيات :

(_ أخبرنى محمد بن العباس اليزيدى قال : حدثنا الرياشى قال : قال الشعبى الأعشى أغزل الناس فى بيت ، وأخنث الناس فى بيت ، وأشجع الناس فى بيت .

فأما أغزل بيت فقوله :

غراء فرعاء مصقول عوارضها .. تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوحل*

---

(١) الأغانى : ١٧٠/٥ ، ط. ساس .

(٢) الأغانى : ٣٢٨/١٦ ، ط. دار الثقافة بيروت .

* الوجى : وصف من الوجى .وهو أن يجد ألما فى رجليه عند المشى ، والوحل : الماشى فى الوحل .

وأما أخنث بيت فقوله :

قالت هريرة لما جئت زائرها
ويلي عليك وويلي منك يا رجل

وأما أشجع بيت فقوله :

قالوا الطراد فقلنا تلك عادتنا
أو تنزلون فإنا معشر نزل (١)

فالنص فيه حكم عام دون العناية بكشف الحيثيات التي على أساسها أصدر هذا الحكم .

٩ — ومن القضايا النقدية الهامة التي تناولها الأصفهاني في كتاب الأغاني قضية " السرقات الشعرية " فقد ولع بتتبع الشعراء ومعرفة مصادر شعرهم ، فقد تعقب أمثال أبي تمام والبحتري وأبي نواس ... ومع ذلك فلم يستعمل كلمة السرقة إلا نادرا وكثيرا ما يستخدم كلمات " السلخ ، والأخذ ، والاستعارة " .

يقول عن سرقات أبي نواس من حسين بن الضحاك " وكان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر فيغير عليها ، وإذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسبه الناس إلى أبي نواس ، وله معان في صفتها أبدع فيها وسبق إليها فاستعارها أبو نواس " (٢) .

---

(١) الأغاني : ١٠٨/٩ ، ١٠٩ ط دار الثقافة بيروت .

(٢) الأغاني : ٣٢٨/١٦ . ط دار الثقافة بيروت .

ويقرر قاعدة غابت عن أذهان المشتغلين بالأدب، فيذهب إلى أن "الوليد بن يزيد" هو الذى فتح باب الخمريات والشعر العربى وليس "أبا نواس"، وكل ما للثانى من فضل أنه سلخ معانى الوليد وجعلها فى شعره ·

يقول عن الوليد بن يزيد، "وللوليد فى ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فأدخلوها فى أشعارهم، سلخوا معانيها، وأبو نواس خاصة فإنه سلخ معانيه كلها وجعلها فى شعره فكررها فى عدة مواضع منه، لولا كراهة التطويل لذكرتها هاهنا على أنها تنبئ عن نفسها" (١).

ثانيا : ألوان نقدية ضمها كتاب الأغانى وليست للأصفهانى :

وهناك لون آخر من ألوان النقد الأدبى ضمه كتاب الأغانى ورواه صاحبه عن السابقين، وهذا اللون فى مجمله أحكام عامة تكشف عن طبيعة الحياة النقدية عند العرب فى عصورها الأولى، وقلما تقترب من النقد المنهجى التفصيلى ·

ومن هذه الأحكام :

١ — فى الكتاب نصوص عديدة تتضمن المقاييس التى كانوا يقدمون الشعراء على أساسها · ومن هذه :

---

(١) الأغانى : ٧/٢٤٦٠، ط دار الشعب ·

– التقدم الزمني . فمن النقاد من يتخذه أساسا لتقديم بعض الشعراء على بعض ، كما يتضح من نص الأغاني الآتي :

" قال أبو إسحاق وحدثني أبو عبيدة قال : قال أبو عمرو لو أدرك الأخطل يوما واحدا من الجاهلية ما قدمت عليه أحدا "(١).

– والجودة . فكثير من النقاد اتخذها أساسا للتقدم : كما يبدو في النص الآتي . " أخبرني هاشم بن محمد قال : حدثني أحمد بن عبيد الله عن العتبي قال : حدثني بعض أصحابنا قال : أنشدنا مروان بن أبي حفصة يوما شعر زهير ثم قال : زهير والله أشعر الناس ، ثم أنشد للأعشى فقال : الأعشى أشعر الناس ، ثم أنشد شعر امرئ القيس فقال : امرؤ القيس أشعر الناس ، ثم قال : والناس والله أشعر الناس ، أي أن أشعر الناس من أنشدت له فوجدته قد أجاد حتى ينتقل إلى شعر غيره " (٢).

كذلك الإجادة في المدح والهجاء ، فقد رآه البعض مبررا التفضيل أصحابها على من لم يحسنهما . ويتجلى هذا فيما قاله : " أخبرني محمد بن أحمد الطلاس عن الخزاز عن المدائني ، وأخبرني به إبراهيم بن أيوب عن عبد الله بن مسلم عن ابن أخي الأصمعي عن عمه ، دخل حديث بعضهم في بعض قال : إنما وضع من ذي الرمة أنه كان لا يحسن أن يهجو ولا يمدح ، وقد مدح بلال بن أبي

---

(١) الأغاني : ٢٨٤/٨ ط دار الثقافة بيروت .
(٢) الأغاني : ٣٥٤٧/١٠ ط. دار الشعب .

برده فقال :

رأيت الناس ينتجعون غيثا .. فقلت لصيدح انتجعى بلالا

فلما أنشده قال له : أو لم ينتجعنى غير صيدح ؟ يا غلام أعطه حبل قت لصيدح ،فأخجله " (١).

— ومن النقاد من يتخذ مقياس الإجادة أساسا للمفاضلة ، كما يبدو من النص الآتى :

قيل للمفضل الضبى : الفرزدق أشعر أم جرير ؟ فقال : الفرزدق قيل له ولم ؟ قال : لأنه قال بيتا هجا فيه قبيلتين ، وأحسن فى ذلك فقال :

عجبت لعجل إذ تهاجى عبيدها .. كما آل يربوع هجوا آل دارم

فقيل له قد قال جرير :

إن الفرزدق والبعيث وأمه .. وأبا البعيث لشر ما استار

فقال : وأى شىء أهون من أن يقول إنسان : فلان وفلان وفلان والناس كلهم بنو الفاعلة " (٢).

(١) الأغانى : ٣٣٢/١٧ ، ط دار الثقافة بيروت .
(٢) الأغانى : ٣٠٩/٢١ ط دار الثقافة بيروت .

ومن النقاد من اتخذ الدين والخلق ومدى التزام الشاعر بهما في شعره أساسا للمفاضلة [١]، واتخذ آخرون البعد عن السخف والمبالغة في المدح [٢]، وهكذا المحافظة على عمود الشعر العربي [٣]، وكثرة النتاج والتصرف في فنون الشعر [٤].

٢ - ولم يخل الكتاب من النقد الموضوعي القائم على التفسير والتحليل ، ولعل النقد اللغوي هو أبرز مظاهر هذا اللون من النقد .

أ - ومن نماذجه التي سجلها : روى ابن الكلبي عن خراش ابن اسماعيل العجلي ورواه المفضل الضبي قالا : كان المتلمس شاعر ربيعة في زمانه . وأنه وقف على مجلس لبني ضبيعة ابن قيس بن ثعلبة ، فاستنشدوه ، فأنشدهم شعرا فقال فيه :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره .. بناج عليه الصيعرية مكدم

---

(١) راجع الأغاني : ٢/٢٠٠ ، ٤/٢٣٣ و٢٥٦ و١٠/٢٨٩.
طبعة وزارة الثقافة المصورة عن طبعة دار الكتب .

(٢) الأغاني : ١٠/٣٧٧٩. ط دار الشعب .

(٣) الأغاني : ٢٠/٨٧. دار الثقافة بيروت .

(٤) الأغاني : ٩/١٠٦. دار الثقافة بيروت .

والصيعرية سمة تكون للإناث خاصة . فقال طرفة وهو غـــلام :
استنوق الجمل ...(١)

واعتراض طرفة هذا منشوء أن المتلمس أسند للبعير صفة خاصة بالناقة ، وفى ذلك اتهام للشاعر بالغفلة والجهل والخلط والاضطراب .

ب — ولم يغفل الكتاب جـانب المعانى التى تناولها الشعراء ، فالحال أن البيئة العربية تواضعت على أن لكل غرض من أغراض الشعـــر معانى تليق به ، وعلى هذا فالشاعر المجيد هو الذى لا يحيد عن هذا العرف ، وإذا حدث وخالف الشاعر ذلك وقـــع فى شباك النقد .

ومن نقدهم للمعانى الخاصة بالمديح ما سجله الكتاب :
— روى أن الخليفة عبد الملك بن مروان لما بلغه قول جـرير :
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة .. لو شئت ساقكم إلى قطينـــا
قال : مازاد ابن المراغة على أن جعلنى شرطيا ، أما أنه لـــو قال :

لـــو شاء ساقكم إلى قطيـــنا
لسقتهم إليه كما قال " (٢)

---

(١) الأغانى : ٢٣/٥٥٩، ط دار الثقافة بيروت .
(٢) الأغانى : ٨/٢٨٠٦ ط دار الشعب .

فالنقد ناشئ عن أن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى المعتز بشخصه لا يمكن أن يقبل من شاعر أيا كان أن يكون له آمرا ، ومن ثم كان غضبه على جرير .

جـ – وهناك نقد يكون تحليله وتعليله خاصا بالجانب الموسيقى ، فالوزن العروضى يعد ركنا أساسيا فى الشعر العربى :

ومما سجله كتاب الأغانى فى هذا الصدد :

روى أن بشر بن أبى خازم كان يقوى فى شعره ، ومن ذلك قوله :

ألم تر أن طول الليل يسلى .. وينسى مثل ما نسيت جذام

وكانوا قومنا فبغوا علينا .. فسقناهم إلى البلد الشآم

فراجعه أخوه سوادة ، فلم يعد إلى خطئه [1] .

وهذا النقد مرجعه إلى أن الطبيعة العربية تأنس إلى الانسجام والإيقاع وتناسق الحركات واتزان النغم ، فإذا حدث اضطراب فى الوزن أو القافية نفرت طبيعتهم منه ولم تستسغه قط .

والإقواء يعد آخر الأخطاء التى وقع فيها الجاهليون ، ويعد التنبيه إليه أولى خطوات النقد الشكلى ، ويعد تصحيحه ، والرجوع إلى وحدة الحركة طورا من أطوار تهذيب الشعر

---

(١) انظر الأغانى : ١١/٩٠ ط دار الثقافة ببيروت .

وتنقيته من أسباب النقص أو أسباب القبح » (١).

د — ولم يغفلوا الألفاظ ، وإنما نظروا إليها نظرتهم إلى المعانى ، فميزوا بين صحيحها وفاسدها ، وتحدثوا فيما يجب أن تكون عليه من الرقة والجزالة ، ومن حيث مناسبتها للمعانى .

ومن ذلك ما جاء فى أخبار أبى العتاهية :
أخبرنى الحسن بن على قال حدثنا أحمد بن زهير قال : سمعت مصعب بن عبد الله يقول : أبو العتاهية أشعر الناس. فقلت له : بأى شىء استحق ذلك عندك ؟ فقال : بقوله :

تعلقت بآمال	طوال أى آمال
وأقبلت على الدنيا	ملحا أى اقبال
أيا هذا تجهز لـ	فراق الأهل والمال
فلا بد من الموت	على حال من الحال

ثم قال مصعب : هذا كلام سهل حق ، لا حشو فيه ولا نقصان يعرفه العاقل ، ويقر به الجاهل (٢).

---

(١) دراسات فى نقد الأدب العربى من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث د . بدوى طبانة ص ٦٩ — ٧٠ . المطبعة الفنية الحديثة ، الطبعة الخامسة ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م .

(٢) الأغانى : ٤/١٠ . طبعة وزارة الثقافة المصورة عن دار الكتب.

فهذا الرأى يفضل الرقة فى اللفظ ، ويميل إليها فى الأسلوب، على حين ذم آخرون هذا المنهج ، وحجتهم أنه يهبط بالشعر إلى مستوى الألفاظ العامية .

٢ - والكتاب حافل بنماذج كثيرة من الموازنات الأدبية بعضها مقرون بالشرح والتعليل ، والبعض الآخر يفتقد التعليل والتفصيل .

أما النوع الأول وهو الموازنات المعللة (١) فهى فى جملتها موازنات بسيطة فى تحليلها ، وتساير فى مجملها منطق المنهج النقدى فى تلك الفترة .

ومن النوع الأول :

" سئل محمد بن سلام : أى البيتين أجود ؟ قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

أم قول الأخطل :

شمس العداوة حين يستقاد لهم
وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

فقال : بيت جرير أحلى وأسير ، وبيت الأخطل أجزل وأرزن " (٢) . فابن سلام يحكم على البيتين دون إبداء الأسباب .

---

(١) راجع الأغانى : ١٦/١٠٨-١٠٩ . ط دار الثقافة بيروت ، و٥/١٧٢٩ - ١٧٤٠ : ط دار الشعب .

(٢) الأغانى : ٨/٣٠٥ . ط وزارة الثقافة المصورة عن دار الكتب .

٤ — وفي الكتاب آراء عن قضية " الطبع والصنعة " فهو يحدثنا أن التثقيف هو سبيل الأناة والتهذيب والصنعة الفنية العالية ، وقد عكف عليها آل زهير بن أبي سلمى ، والحطيئة ،وعدوا ذلك مفخرة جهروا بها في أشعارهم (١) .

ويحدثنا أن الأصمعي يرى أن الشعر الجيد هو الشعر الصادر عن الطبع الذي لا تكلف فيه ، وهذا اللون من الشعر يفوق شعر المحككين من عبيد الشعر ، ويفضل كذلك شعر المكلفين .

يقول في أخبار بشار بن برد : " أخبرني عمي عن الكراني عن أبي حاتم قال : كان الأصمعي يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه ، ويقول : كان مطبوعا لا يكلف طبعه شيئا متعذرا لاكمن يقول البيت ويحككه أياما . وكان يشبه بشارا بالأعشى والنابغة الذبياني ، ويشبه مروان بزهير والحطيئة ، ويقول : هو متكلف " (٢) .

٥ — وكما تحدثنا عن آراء أبي الفرج في قضية " السرقات الشعرية " نشير إلى أن الكتاب حافل بنماذج وفيرة ، نتعرف من خلالها على وجهة نظر النقاد القدامى في هذه القضية :

ونصوص الكتاب تشير إلى أنه لا سرقة في المعاني العامة ، فهذه المعاني كثيرا ما يزيد الشاعر فيها أو يحور ، وحينئذ لاتعد سرقة .

---

(١) انظر الأغاني : ٢/٤٤٠ ط ساسي .
(٢) الأغاني : ٣/١٤٩ ط. وزارة الثقافة المصورة عن طبعة دار الكتب .

أما المعاني الخاصة فهي التي فيها السرقة ، ومن هذه النصوص قوله : " أخبرني علي بن سليمان قال : قال لي أبو العباس محمد بن يزيد ، قال النابغة الجعدي :

أكنى بغير اسمها وقد علم الله خفيات كل مكتتم

وهو أسبق الناس إلى هذا المعنى وأخذوه جميعا منه ، وأحسن من أخذه أبو نواس حيث يقول :

أسأل القبليين من حكمان	كيف خلفتما أبا عثمان
فيقولان لي جنان كما سرك	في حالها فسل عن جنان
ما لهم لا يبارك الله فيهم	كيف لم يغن عندهم كتماني (١)

وفي الكتاب نماذج للسرقة العلنية وهو ما يسمى عند بعض الباحثين " الغصب الأدبي " (٢) ، ويكاد ينحصر هذا اللون من السرقة عند الفرزدق .

ومن هذا اللون . " أخبرنا أبو خليفة قال : حدثنا أبو عبد الله بن سلام ، قال : أخبرني أبو يحيى الضبي قال : قال ذو الرمة يوما : لقد قلت أبياتا إن لها لعروضا ، وإن لها لمرادا ومعنى بعيدا قال له الفرزدق ما هي ؟ قال : قلت :

---

(١) الأغاني : ٢٠/١١ . طبعة دار الثقافة بيروت .

(٢) راجع مذاهب النقد وقضاياه د . عبد الرحمن عثمان : ١١٦ . مطابع شركة الإعلانات الشرقية ، ط . أولى ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م .

أحين أعاذت بي تميم نساءها .. وجردت تجريد اليماني من الغمد
ومدت بضبعي الرباب ومالك
وعمرو وشالت من ورائي بنو سعد[أ]
ومن آل يربوع زهاء كأنه .. زها الليل محمود النكاية والرفد[ب]

فقال له الفرزدق : لاتعودن فيها فأنا أحق بها منك ، قال :
والله لا أعود فيها ولا أنشدها أبدا إلا لك ، فهي قصيدة الفرزدق
التي يقول فيها :

وكنا إذا القيسي نب عتوده
ضربناه فوق الأنثيين إلى الكرد[١]

وفي الكتاب نصوص أخرى تشير إلى سرقة الشعر بلفظه ومعناه ،
أو سرقة المعنى مع تغيير طفيف في لفظه[٢]

(أ) الضبعان : العضدان ، شالت : ارتفعت .
(ب) الزهاء من معانيه العدد الكثير ، وزهاء الليل شخصه ، أي أن
عددهم الكثير يشبه الليل .
(١) الاغاني : ٣١٩/١٧ ط. بيروت ، ونب : صاح عند الهياج
العتود : الجدي ، الأنثيان يقصد بهما الأذنين . الكرد :
العنق .
(٢) انظر الأغاني : ٣٦٨٤/١٠ طبعة دار الشعب .

وبعد فهذه صورة مختصرة لمظاهر النقد الأدبي في كتاب الأغاني سواء منها ما كان نقدا عاما يعتمد على الفطرة السليمة والحكم العام وما كان مبنيا على النقد الموضوعي التحليلي ، وسواء ما كان منها من آراء الأصفهاني نفسه ، أو من آراء غيره من النقاد الذين سجل لهم نظريات نقدية في كتابه .

وهي تبرز مدى إحاطة الكتاب بالنظرات النقدية في عصور العرب الأولى إلى جانب النظرات النقدية الخاصة بأبي الفرج الأصفهاني الأمر الذي يعكس أثر كتاب الأغاني وقيمته في مجال النقد الأدبي .

الموازنــــــــة

وفى القرن الرابع الـــهجرى ظهرت موازنات بين شعر وشعــر ، ولكنها لم تكن موازنات مثل تلك التى كانت بين جرير والفرزدق فـــى العصر الأموى ، فموازنات القرن الرابع الهجرى تتميز بالدراســـة الدقيقة للنصوص التى تجرى فيها الموازنة من الجوانب اللغويــــة ، والنحوية ، والبلاغية ، والفلسفية ، والذوقية .

كما اتسمت موازنات ذلك القرن بعرض آراء فى النقد تتصــل بتحديد الجودة أو الرداءة فى الشعر، وعلى هذا فالموازنات العباسية جديدة فى أسلوبها ، الأمر الذى يجعل القرن الرابع الهجـــرى من أخصب القرون فى دراسة الأدب والبلاغة (١) .

ويمثل هذا اللون من النقد زعيمان كبيران هما :
" على عبد العزيز الجرجانى ، وأبو القاسم الحسن بن بشـــر الآمدى " .

أ ـ الجرجانى (٢) :

ومنهج الجرجانى فى كتابه (الوساطة بين المتنبى وخصومــه) تتلخص فى الأمور الآتية :

---

(١) مذاهب النقد ، ص ٢٧٦ .
(٢) المتوفى عام ٣٩٢ .

١ ــ عرض الجرجانى فى الصفحات الأولى من كتابه آراء العامة فى النقد الأدبى ، فذكر أخطاء الجاهليين ، وذكر تفاوت الشعراء تبعا للزمان والمكان ، كما ذكر تطور الشعر العربى إلى أن انتهى إلى البديع .

وقد فعل ذلك ليتخذ منه حجة للدفاع عن المتنبى ، شاعر القرن الرابع الهجرى ، وأكبر شاعر فى تاريخ العربية ، شغل الناس بشعره ، وأثار خصومات النقاد حوله .

٢ ــ قسم خصوم المتنبى إلى فريقين :

* فريق يتعصب للمتقدمين .
* وفريق تعصب لأبى تمام فقط من المحدثين .

٣ ــ ناقش العيوب التى أخذت على المتنبى مثل : الغموض ، التعقيد ، والإفراط والمبالغة ، والخطأ فى اللغة ، وقد سلم ببعضها إنصافا للحقيقة ، كما التمس العذر للمتنبى وحاول الدفاع عن بعض أخطائه .

ــ والواقع أن منهج الجرجانى فى كتابه يتسم بالتعميم غالبا ، ووضع المبادئ والقواعد العامة ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل الدكتور محمد مندور يضع الجرجانى فى المرتبة الثانية بعد الآمدى (١) .

---

(١) النقد المنهجى عند العرب ص ٣٠١ . نشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨م .

ب ـ الآمدى [1] :

وقد ألف الآمدى كتابه : (الموازنة بين الطائيين) . ومنهجه فى هذا الكتاب يقوم على الآتى :

١ ـ بدأ الآمدى بتحقيق النصوص الشعرية لكل من أبى تمام والبحترى وصحح نسبتها ، وبين ما فيها من اضطراب أو خطأ فى الأوزان ، وهذا فيما نرى يعد أولى المراحل فى النقد المنهجى السليم .

٢ ـ عرض الآمدى فى كتابه لآراء النقاد فى الشاعرين ، من المتعصبين لهذا أو لذاك ، وقد وضح حجج كل فريق .

٣ ـ ثم عرض للسرقات ، فجمع سرقات أبى تمام ، وردها إلى أصولها ووقف فى كثير منها إلى جانبه ، ثم أخذ بعد ذلك فى بيان سرقات البحترى على هذا النحو ، وانتقل بعد ذلك إلى دراسة أخطاء أبى تمام وهى :

* أخطاء فى الألفاظ والمعانى .
* إسراف فى البديع .
* كثرة الزحافات واضطراب بعض الأوزان .

---

(١) متوفى عام ٣٧٠هـ .

ثم تناول أخطاء البحترى ، لكنه لم يقف عندها طويلا ، ولعل ذلك لأنها أقل من أخطاء أبى تمام الذى خرج على عمود الشعر. ولم يفته أن يعرض لمحاسن كل منهما .

٤ — وازن موازنة موضوعية بين الشاعرين . وهى موازنة لم يعرض منها الآمدى بالأحكام العامة ، ولا بالنظرة الكلية ، إنما وازن بين القصيدتين أو بين المعانى الجزئية المنثورة فى أبيات القصيدة .

يقول الآمدى :

" لست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر (أى تفضيلا مطلقا) ، ولكنى أقارن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية ، وبين معنى ومعنى ، ثم أقول : أيهما أشعر فى تلك القصيدة وفى ذلك المعنى؟ ثم احكم أنت حينئذ (إن شئت) على جملة ما لكل واحد منهما إذا أحطت علما بالجيد والردىء " (١) .

---

(١) الموازنة : تحقيق السيد صقر : ١/ ٠٧ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٣٨٠هـ ١٩٦١م .

العلاقة بين البلاغة والنقد

ولعل من الخير ونحن نتحدث عن نشأة النقد الأدبي أن نتحدث عن العلاقة بين النقد والبلاغة ، إذ " البلاغة " تعني الوصول إلى الغاية ، وهذا يستلزم إيصال المعنى كاملا إلى ذهن القارئ أو السامع . ومن جهة أخرى فإن النص الأدبي البليغ يحدث روعة في نفس السامع أو القارئ ، وهذه الروعة هي التي تجعله يصف الأثر الأدبي بصفة " الجمال " .

على أن إيصال المعنى كاملا إلى ذهن القارئ أو السامع مطلب مستحيل ، ذلك لأن درجات البلاغة تتفاوت من أديب لآخر وأي أديب مهما كانت درجة عبقريته لابد وأن يظل دائما بعيدا عن الكمال المطلق الذي تفرد به كلام الله المعجز .

والبلاغة ترتبط بالجمال الأدبي ، فالأديب الذي يعبر عن معناه بعبارة واضحة خالية من اللبس يستحق أدبه أن يوصف بالبلاغة ، وهو أديب بارع ، ذلك لأنه استطاع أن يسخر موارده اللغوية (1) لإحداث التأثيرات التي يريدها .

---

(1) هذه الموارد منها ما يرجع إلى التراكيب النحوية ، وهذا هو موضوع علم المعاني ، ومنها ما يرجع إلى استحضار الصور البعيدة وربط المعاني المجردة بالمحسوسات ، وهذا هو موضوع علم البيان ، ومنها ما يرجع إلى ملاحظة العلاقات بين أجزاء الجملة أو الفقرة ، سواء أكانت علاقات صوتية أم معنوية ، علاقات تناسب أم علاقات تضاد ، وهذا هو موضوع علم البديع .

ومن هنا يتضح أن موضوع البلاغة بعلومها الثلاثة [١] إنما يتبلور في معرفة الخصائص اللغوية التي تتصل بدقة التعبير عن المعنى ، وقوة تأثيره في النفس ، وليس يخفى أن هذه الخصائص إنما تستخلص من دراسة النصوص الأدبية الرائعة ، أو حين يتصدى الدارس للنصوص الأدبية للتمييز بين نص أدبي جيد وآخر ردئ ٠٠ وهذا يعني أن الدارس إذا تم له تحصيل القوانين البلاغية أمكنه أن يوظف هذه القوانين في الحكم على النصوص الأدبية ، أو التمييز بين الجيد والردئ منها ، وهذا هو معنى النقد ، وقد يميزونه بقولهم " النقد الأدبي " ، وهو اسم يطلق على كل دراسة تتناول نصا من الشعر أو النثر الفنيين ، أو طائفة من نصوصهما ، بتفسير يكشف عن معناها ويبين قيمتها ، ويعين القارئ على تذوق ما فيها من جمال ٠

---

(١) كان نقاد العرب الأوائل يلتبس النقد عندهم بالبلاغة ويختلط بها ، وكما كانت مسائل البلاغة التي نعرفها اليوم يختلط بعضها ببعض ، فلا تتميز منها جملة باسم (المعاني) ولا طائفة باسم (البيان) ، ولا أخرى باسم (البديع) ٠

وإذا قلنا إن موضوع النقد هو تحليل النصوص الأدبية لبيان صفات الجودة والرداءة فيها ، وإذا قلنا أيضا إن المادة الأدبية التى تتناولها الدراسة البلاغية هى النصوص الأدبية الجيدة ، بحيث لا يورد فيها نص ردىء إلا للمساعدة على إظهار جمال النص الجيد الذى هو عماد الدراسة ، إذا قلنا ذلك فإننا نقول إن النقد يتناول النصوص الجيدة والنصوص الرديئة على السواء ، لأن مهمة الناقد ليست استقراء القواعد من النصوص ، بل أن يعرض النصوص على القواعد .

وإذا كان تيار البحث فى إعجاز القرآن الكريم هو أقوى التيارات التى عملت على تكوين البلاغة العربية ، فإن تيار النقد الذى عرفنا بداياته فى العصر الجاهلى بنقد الشعر قد صنع صنعه فى تشكيل النقد العربى الذى يمكن القول إنه قد بلغ قمة ازدهاره فى القرن الرابع الهجرى ، وكان ذلك — وكما سبق القول — بفضل الظروف الحضارية التى عاشها العرب فى عصر بنى العباس ، وما كان لهم فى هذا العصر من اتصال بالثقافات الأجنبية وعلى وجه الخصوص الثقافة اليونانية (١) .

والحق أن النقد قد ظل وثيق الصلة بالبلاغة طوال القرون الأولى ، ثم ضعف النقد بعد ذلك ، وجمد نشاط البلاغة العربية ، إلى أن جاء العصر الحديث فظهرت مؤثرات حضارية جديدة كان لها

---

(١) انظر الباب الثانى من كتاب " النقد الأدبى الحديث " للدكتور محمد غنيمى هلال .

تأثيرها الضخم لا فى الأدب والنقد فحسب ، بل فى تغيير وجه الحياة كلها . وقد شملت هذه التغييرات العالم العربى فيما شملت من مناطق العالم ، فتأثر الأدب العربى بالأدب الغربى ، فى فنونه واتجاهاته ، ودخل فى دور ازدهار جديد كان للنقد الأدبى مكان بارز فيه .. كل ما فى الأمر أن غلبة العناية بالاتجاهات العامة للأدب والتأثير الكلى للعمل الأدبى دون الاهتمام بالعبارة الأدبية قد أدى إلى تضاؤل دور البلاغة فى فترات متقطعة ، لكن هذا الدور سرعان ما عاد إلى سابق عهده ، وذلك بفضل إحياء البحث فى الدراسات البلاغية .

والآن نأتى إلى طرح سؤال لا محيد عن طرحه ولا مناص من الإجابة عليه ، وهو : هل القواعد البلاغية هى المرجع الوحيد للناقد حين يتصدى للحكم على نص أدبى ؟.

ولكى نجيب على هذا السؤال ينبغى أن نعيد إلى الأذهان مسألة طالما شغلت الأدباء والنقاد منذ زمن بعيد ألا وهى العوامل والأسباب التى يبلغ بها الفن الأدبى غايته من التأثير فى عواطف القراء والمستمعين وفى عقولهم ، والتى تتمثل فى المعنى الممتاز ، والتعبير الرائع .

ولما كان الحال أن المعانى الممتازة كثيرا ما تجرى على ألسنة كثير من الناس ، ولا تختص بها طبقة منهم دون طبقة ، وأن الخاصة والعامة سواء فى تأليف المعانى ، بل إن الأمثال والحكم والمعانى النادرة كثيرا ما تصدر عن العوام الذين لا يدركون

قيمة ما يتأتى لـهم ، ولا يعرفون روعة موقعه من نفوس الخبراء الذين يقدرون الكلام ، الأمر الذى جعل الجاحظ يقول كلمته المأثورة :

" المعانى مطروحة فى الطريق ، يعرفها العجمى والعربى ، والبدوى والقروى " (١).

— ولما كان الحال كذلك فإن المعنى نفسه لا تتضح قيمته إلا من خلال صياغة محكمة ، والمعنى والصياغة (أى الشكل والمضمون) يتحدان كما يتحد الجسم والروح ، ويظل المعنى حائرا فى نفس صاحبه حتى يجد الشكل الذى يناسبه من الألفاظ المرتبة ترتيبا معينا ، وحتى تتضح العلاقات بين الألفاظ التى صيغ فيها هذا المعنى .

.. وعلوم البلاغة هى العلوم التى تتناول صياغة المعنى فى الألفاظ المناسبة ،أما بحث المعانى نفسها فمن الواضح أنه لا يمكن أن يحيط به علم واحد أو علوم محدودة ، لأن المعانى ترجع إلى الثقافة والذكاء والتجربة ، وهذه الثلاثة لا يمكن أن تحصر كما لا يمكن أن يحيط بها علم من العلوم .

فالناقد يحكم على النص الأدبى الذى ينقده لا من جهة صياغته فقط ، بل من جهة معناه أيضا . وإذا كانت القوانين البلاغية هى عمدته فى الحكم على الصياغة اللغوية فإن وراء هذه الصياغة اللغوية صياغة أخرى فنية تحتوى الجملة والفقرة فى قطعة أدبية ذات شكل

---

(١) الحيوان : ٢/٤١ طبعة الساسى — القاهرة ١٣٢٣هـ .

غنائى أو قصصى أو تمثيلى .

وهذا يجعلنا ننتهى إلى أن الأدب ليس معانى وأفكارا فقط ، وليس صورا وتراكيب فحسب ، وإنما هو نتاج لعبقرية كامنة فى نفس صاحبها ، تبدو فى تأليف المعانى الممتازة ، كما تبدو فى العبارة الجيدة عنها ، أو أنه أثر للتمازج بين هذين العنصرين اللذين يتألف منهما العمل الأدبى ، فإن كان هناك خلاف بين النقاد على اللفظ والمعنى ، أو الإطار والمضمون ، فلم يكن اشتراط الإجادة فى كل منهما محل خلاف ، وإنما كان مدار الخلاف بينهم فى مدى الجهد الذى يبذله الأدباء ويتفاوتون فيه ، ويتفاضلون به ، أى أن الخلاف ينحصر فى البحث عن مظاهر الفنية والإبداع ، ومظهرهما فى هذا الفن .. أيكون مظهرها المعنى الذى يسوق إليه التأمل العميق ، والنظرة الممعنة ، والتجربة الصادقة ، والحس المرهف ، والإلهام الجديد ، أم يكون مظهرها فى الاطلاع الواسع على اللغة ، وفى نظم التراكيب نظما بديعا ؟

ومن هنا تبرز أهمية اللغة الأدبية أو أهمية التعبير فى ناحيتين: ناحية إبراز الأفكار والمعانى ، وناحية التأثير الذى تشارك فيه الصورة الفكرة .

وغاية ما يراد فى معانى الأدب أن تكون صحيحة مطابقة لما يقره العقل الإنسانى ، وغاية ما يراد فى ألفاظه وتراكيبه أن يلتزم فيها العرف العربى الصحيح من ناحية اللفظ ، وسلامة بنيتها ، وصحة دلالتها .. ويعظم الأديب فى أعين النقاد بمقدار ما يوفق إليه من

المعانى الجيدة ، بالإضافة إلى أناقة التعبير والإبداع فى التصوير .

وكل ما فى الأمر أن النقد الأدبى فى رحلته الطويلة التى مر بها لم يخل من المسائل البلاغية ، فالذى لاشك فيه أن هذه المسائل قد جاءت مبثوثة متفرقة فى كتب النقد ، وإن لم تكن واضحة المعالم ، محددة الاصطلاحات . وكان للمتكلمين كذلك فضل لا ينكر فى توجيه الذهن العربى إلى المسائل البلاغية وإلى الوجوه البلاغية التى تجرى فى لغته ، والتى اتجه إليها القرن الثانى من الهجرى .

عوامل التأثير في النقد والبلاغة

والآن يحسن بنا أن نشير إلى أهم العوامل التي كانت ذا أثر في النقد والبلاغة وتطورهما بوجه عام (١).

أولا : حركة التجديد التي ظهرت منذ أواخر القرن الثاني ، متمثلة في البديع الذي اصطنعه أمثال بشار ومسلم بن الوليد وأبي تمام وغيرهم .

ثانيا : الخصومات الأدبية التي قامت في العصر الأموي ، والتي تمثلت حق التمثيل عند الشعراء (جرير والفرزدق والأخطل) وكان لهذه الخصومات أثر في انتعاش الحركة النقدية والبلاغية .

يضاف إلى ذلك المعركة التي دارت حول أبي تمام والبحتري ، والتي تجلى فيها الصراع بين القديم والجديد ، ذلك الصراع الذي كان له أثره الكبير في حركة التأليف التي يمكننا أن نقول إنها قد أرست في الغالب كثيرا من النظريات النقدية ، والتي توجت بكتاب (الموازنة) للآمدي .

ثالثا : القرآن الكريم :

وكان القرآن الكريم دافعا يدفع العلماء والنقاد إلى دراسة أساليبه ، والوقوف على بيانه ، واستظهار جوانبه البلاغية لاثبات

---

(١) اعتمدنا في هذه العوامل على كتاب " دراسات في النقد الأدبي " الدكتور حسن جاد .

إعجازه البيانى ، وكان من أثر ذلك أن أخذ النقاد يوازنون ويقارنون ، ويصطنعون وسائل النقاد فى دراسة القرآن الكريم واستكناه أسراره الأدبية ، حتى امتزجت مقاييس النقد بالدراسات القرآنية على نحو ما هو فى كتاب (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبه ، و (إعجاز القرآن) للباقلانى .

هذا ويهمنا أن نشير إلى أن القرآن الكريم كان صاحب فضل كبير على العرب ، فلقد أرهف أذواق نقادهم ، وفتح لهم آفاقا من تذوق الجمال .

رابعا : الفلسفة والمنطق :

سبق أن قلنا إن المتكلمين قد استعانوا بالعلوم اليونانية (وعلى وجه الخصوص الفلسفة والمنطق) لتعينهم على البراهين والحجج ، والحجاج العقلى . وكان من أثر ذلك توجيه النقد العربى وتحويله إلى نقد بلاغى ، يعتمد على التقسيمات ، ووضع القواعد والتعريفات والقياس ، الأمر الذى أحدث أثرا فى الذوق العربى الخالص [١] .

---

(١) من الإنصاف أن نقول إن هذا الاتجاه قد هوجم مهاجمة شديدة من علماء العرب المتعصبين للعربية ، فقد عارضه ابن قتيبه فى كتابه (أدب الكاتب) ، وهاجمه كذلك أبو حيان التوحيدى فى كتابه (الإمتاع والموانسة) ، وعارضه أيضا المرزوقى فى مقدمة (شرح ديوان الحماسة) ، والسيوطى فى كتابه (حسن المحاضرة) ، وضياء الدين بن الأثير فى كتابه (المثل السائر) .

وانظر إن شئت إلى أثر ذلك في الكتب الآتية : (نقد الشعر) لقدامة بن جعفر ، و (الصناعتين) لأبي هلال العسكري ، و (نكت إعجاز القرآن) للرماني ، و (إعجاز القرآن) للباقلاني ، و(أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني .

ويهمنا أن نقول إنه مهما قيل من أثر العقل اليوناني على الذوق العربي وعلى البلاغة العربية ، فإن هذا الأثر في الحقيقة لم يكن ليطغى كل الطغيان على الفكر العربي ، بل إن هذا المسلك قد لقي معارضة شديدة من علماء العرب المتعصبين للثقافة العربية ، والذين حفظوا للذوق العربي مكانه ، واحتفظوا للنقد بسماته ، وخصائصه الأصيلة .

اتجاه عمود الشعر :

وهذا اتجاه كان يمثل الآخذون به المعارضة الشديدة للعلوم اليونانية ، وقد تمثل هذا الاتجاه خير تمثيل عند المرزوقي في مقدمته لشرح ديوان الحماسة ، حيث عدد الخصائص التي يجمعها ما أسموه : (بعمود الشعر) في سبع نقاط هي في صميمها خصائص عربية خالصة ، وهي [1] :

---

(١) انظر مقدمة المرزوقي لشرح ديوان الحماسة .

١ـ شرف المعنى وصحته ٠
٢ـ جزالة اللفظ واستقامته ٠
٣ـ الإصابة فى الوصف ٠
٤ـ المقاربة فى التشبيه ٠
٥ـ التحام أجزاء الكلام والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ٠
٦ـ مناسبة المستعار منه للمستعار له ٠
٧ـ مشاكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائهما للقافية ، حتى لا منافرة بينهما ٠

هذا وينبغى أن نشير إلى أنه فى الزمن الأول ، وعند النقاد العرب الأوائل ، كان النقد يلتبس بالبلاغة ويختلط بها ، وإن كان مدلول كلمة (بلاغة) يختلف عن مدلول كلمة (نقد) :

فمدلول كلمة (بلاغة) إنما يطلق على القول الجيد ، أو على معرفة الخصائص التى تتوفر فى القول الجيد ، فهى إما وصف عام للقول الجيد المؤثر ، كما يقال: كلام بليغ ، وإما علم تعليمى بعلم الخصائص التى تجعل الكلام مؤثرا ٠

أما كلمة (النقد) فهى تدل على الوسائل التى يعرف بها جيد القول من رديئه ، فهو علم وضعى يتعرف ويصف ٠

وقد شاع ربط البلاغة بتعلم الخصائص التى تجعل الكلام مؤثرا عند المولدين خاصة ، إذ اضطروا إلى ذلك لقصور طبعهم ، وضعف

ملكة البيان عندهم ، الأمر الذى دفعهم إلى تعلم الوسائل التى تمكنهم من صنع الكلام الجيد الذى يشبه كلام العرب السابقين ، فراحـــوا من ثم يتتبعون النماذج الشعرية والنثرية ليستخرجوا منها القواعـــد والمقاييس التى يهتدى بها فى هذا الشأن ، وبخاصة حين يكـــون الأمر التصدى للدفاع عن الدين ، والذود عن القرآن .

وليس يهمنا هنا تتبع موضوعات علوم الـــبلاغة منذ تكلم فيهـــا النقاد ، بقدر ما يهمنا الوقوف عند علميـــن عظيمين هما :

* كتاب (الصناعتين) لأبى هلال العسكرى .
* وكتابا (دلائل الاعجاز) و (أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجانى .

أبو هلال العسكرى (٣٩٥هـ) :

هو أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكرى المتوفى عام ٣٩٥هـ صاحب كتاب "الصناعتين" [١] وقد اعتبر النقاد هذا الكتـــاب نقطة تحول النقد إلى بلاغة .

الجانب الأدبى فى كتاب الصناعتين :

وهو ذلك الجانب الذى تأثر فيه بمعظم ما قاله النقاد مـــن قبله ، كتأثره بابن قتيبة ، وبالجاحظ ، وبالآمدى ، وبالجرجانى.[٢]

(١) السكاكى يقصد صناعتى الكتابة والشعر.

(٢) تأثر بالجاحظ فى (البيان والتبيين ، والحيوان) وتأثر بالآمدى فى (الموازنة) وتأثر بالجرجانى فى (الوساطة) .

الجانب البلاغي في كتاب الصناعتين :

فقد أكد على ضرورة معرفة علم البلاغة لفهم إعجاز القرآن الكريم من جهة ، وللتمييز بين جيد الكلام ورديئه ، ومعرفة كيفية استخدام أساليب اللغة وألفاظها الجيدة من ناحية أخرى .

وهو في الكتاب متأثر بابن المعتز في (البديع) ، وهو كمن سبقه يذكر الفنون البديعية ، فيدخل فيها مسائل المعاني والبيان .. وكأنه يردد ما كان عليها السابقون ، وأخذ يعرف النقد في كثير من التعاريف والتقسيمات ، وإن شئت فقل إنه تناول النقد بروح البلاغة وجنح به إلى القواعد الجافة والتفريعات المنطقية .

ومن هنا كان منهجه مخالفا كل المخالفة لما رأيناه عند الآمدى والجرجاني ، فهو منهج عقلي يصدر عن آراء سابقة في أغراض الشعر ومعانيه ووسائله .

وأهم ما نلمسه في كتاب السكاكي من أفكار (١) :

١ — تحديد الحكم على الشعر والكتابة تحديدا يقوم على التقسيم والتعريف .

٢ — تقدم الجمال اللفظي على الجمال المعنوي ، وبهذا يخالف منهج أبي تمام .

٣ — الأساس في جودة الكلام راجع إلى الطبع ، والدربة ، والرواية ،

---

(١) مذاهب النقد وقضاياه ، الدكتور عبدالرحمن عثمان ، ص ٢٨٠ بتصرف .

والإعراب ، وتخير الألفاظ .

٤ — تقسيم المعاني إلى : مبتدعة ومتداولة ، وتصنيف وجوه المعاني إلى مستقيم حسن ، ومحال ، ومستقيم قبيح .

٥ — إرشاد الكاتب إلى ما ينبغي أن يحسنه من أدوات الكتابة ، وإلى ما يجب الابتعاد عنه مما يفضي إلى العيوب والرداءة .

٦ — عرض للسرقات ، ووجوه الأخذ ... " .

عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) :

هو أبو بكر عبد الرحمن الجرجاني ، الفقيه المتكلم ، والنحوي الدقيق ، والفيلسوف المتأمل ، ولد بجرجان وتوفي عام ٤٧١هـ .

اشتهر بنظرية (النظم) كما اشتهر بالذوق السليم ، والحس المرهف ، والملكة المتأصلة ، وهو فضلا عن ذلك كله يعتبر علامة بارزة في تاريخ البلاغة العربية ، ونقطة تحول ونضج وازدهار في دراستها ، وذلك بفضل وقوفه في وجه تيار الصياغات اللفظية التي كادت تطغى على الأدب والنقد .

نظرية النظم (العلاقات) :

لقد هاجم عبد القاهر كل من رأوا أن المزية للمعنى وحده ، أو للفظ وحده ، أو هما معا ، وراح يضع أسس نظريته على هذا النحو (١) :

---

(١) راجع كتاب عبد القاهر " دلائل الإعجاز" .

١ ـ ليس للألفاظ المفردة (من حيث أصواتها أو معانيها) دخل في إعجاز القرآن ، ولا في باب الفصاحة .

٢ ـ الإعجاز في القرآن يرجع إلى نظم الكلام .

مصادر نظرية عبد القاهر (١) :

١ ـ آراء الجاحظ التي ترى أن القرآن الكريم معجز (بالنظم) .
٢ ـ أبو الحسن عبد الجبار الذي يرى أن إعجاز القرآن مرده إلى جمال اللفظ ، وحسن المعنى .
٣ ـ الثقافات الجديدة التي أدت إلى صراع بين أنصار الثقافة العربية وبين أنصار الثقافة اليونانية .
٤ ـ تفوقه في علم النحو .
٥ ـ تأثره بكتاب (الخطابة) لأرسطو .

آراؤه في كتاب " دلائل الإعجاز " (٢)

١ ـ ذهب إلى أن النحو هو سبيل معرفة المعاني وأغراض الكلام .
٢ ـ التزم الدقة في تحديد فصيح الكلام .

---

(١) راجع دراسات في النقد الأدبي . د/حسن جاد ص ٤٤ وما بعدها .
(٢) مذاهب النقد وقضاياه . الدكتور/عبد الرحمن عثمان ص ٢٨٢ .

٣ — حمل على الأذواق العلمية التي تفضل الشعر لمعناه .

٤ — مرد الإعجاز في البلاغة إلى المعاني الإضافية ، أو إلى ما سماه (معاني المعاني) .

٥ — الاعتداد بالذوق الأدبي .

٦ — الفكر والروية ضروريان في العمل الأدبي .

٧ — الأسلوب هو الضرب من النظم .

آراؤه في كتابه "أسرار البلاغة" :(١)

١ — تطبيق نظرية (النظم) على إظهار فضيلة الكلام ، والقول بأن خاصية الترتيب تقع في الألفاظ مرتبة على المعاني المرتبة في النفس المنتظمة فيها على قضية العقل .

٢ — اجتناب التكلف في اختيار اللفظ .

٣ — تحلية التشبيه والاستعارة والمجاز التمثيلي .

٤ — الميل إلى النظرية القائلة بأن "خير الشعر أصدقه" .

هذا ويمكن القول إن عبد القاهر الجرجاني يعد خاتمة النقاد من أهل البلاغة ، ويكفيه أنه تلقف النقد العربي ، وحوله إلى قواعد بلاغية ، تحدد معها كل علم من علوم البلاغة على حدة .. وهذا يؤكد أن عبد القاهر صاحب منهج اختطه لنفسه .

---

(١) اعتمدنا كذلك على المصدر السابق ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(١) من صحيفة بشر بن المعتمر (١)
(المتوفى سنة ٢١٠ هـ)

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغُرَّة (٢) من لفظ شريف، ومعنى بديع، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قَصْدا (٣) وخفيفا على اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه ونجم (٤) من معدنه . وإياك والتوعر (٥) فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك،

---

(١) بشر بن المعتمر : فقيه معتزلي، نشأ بالكوفة وأقام في بغداد، وتنسب إليه الطائفة البشرية من المعتزلة .

(٢) العين والغرة من كل شيء : خياره .

(٣) معتدلا .

(٤) نشأ، صدر .

(٥) البحث عن العبارة الصعبة .

ويشين (١) ألفاظك . ومن أراغ (٢) معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما (٣) ، وعما تعود من أجله أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما وترتهن (٤) نفسك بملابستهما وقضاء حقهما .

فكن فى ثلاث منازل : فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا ، وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز (٥) المنفعة ، مع موافقة

---

(١) يعيب .

(٢) طلب .

(٣) يعيبهما .

(٤) تلزم .

(٥) تحصيل .

الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامي والخاصي ، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك ، إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسطة (١) التي لا تلطف عن الدهماء (٢) ولا تجفو عن الأكفاء (٣) — فأنت البليغ التام .

فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك (٤) ولا تعتريك، ولا تسنح لك عند أول نظرك ، وفي أول تكلفك (٥) . وتجد اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصر إلى قرارها ، وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها (٦) ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة في مكانها ، نافرة من موضعها — فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعبك

---

(١) المتوسطة .
(٢) العامة .
(٣) الخاصة .
(٤) تطيعك — تسهل عليك .
(٥) بحثك .
(٦) موضعها الصحيح .

بترك ذلك أحداً ، فإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ، ولا محكماً لسانك ، وبصيراً بما عليك وما لك ، عابك من أنت أقل عيباً منه ، ورأى من هو دونك أنه فوقك . فإن ابتليت بأن تتكلف القول ، وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع فى أول وهلة ، وتعاصى عليك بعد إجالة الفكرة — فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك وسواد ليلك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فانك لاتعدم الإجابة والمواتاة ، إن كانت هناك طبيعة أوجريت من الصناعة على عِرْق (١) ، وهى المنزلة الثانية .

فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شُغْل عرض ، ومن غير طول إهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك ، وأخفها عليك ، فإنك لم تشتهها ولم تنازع إليها إلا وبينكما نسب ، والشىء لا يحن إلا إلى ما يشاكله ، وإن كانت المشاكلة قد تكون فى طبقات لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة ، كما تجود به مع الشهوة والمحبة .

---

(١) جريت من الصناعة على عرق : كان لديك شىء من الاستعداد لها .

(٢) من كتاب "الموازنة بين الطائيين"
لأبي القاسم حسن بن بشر الآمدي (١)

(المتوفى سنة ٣٧٠هـ)

قال أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي (٢) :

وأنا أذكر بإذن الله الآن في هذا الجزء المعاني التي يتفق فيها الطائيان وأوازن بين معنى ومعنى ، وأقول : أيهما أشعر في هذا المعنى بعينه . فلا تطالبني أن أتعدى هذا إلى أن أفصح لك بأيهما أشعر عندي على الإطلاق ، فإني غير فاعل ذلك : لأنك إن قلدتني لم تحصل لك الفائدة بالتقليد .

وإن طالبت بالعلل والأسباب التي أوجبت التفضيل ، فقد أخبرتك فيما تقدم بما أحاط به علمي من نعت مذهبيهما ، وذكر مساويهما في سرقة المعاني من الناس ، وغلطهما في المعاني والألفاظ وإساءة من أساء منهما في الطباق والتجنيس والاستعارة ورداءة النظم واضطراب الوزن ، وغير ذلك مما أوضحته في مواضعه وبينته ، وما سيعود ذكره في الموازنة من هذه الأنواع على ما يقوده القول وتقتضيه الحجة ، وما ستراه من محاسنهما وبدائعهما

---

(١) كتب الآمدي معظم مؤلفاته في النقد ، وأهمها كتاب "الموازنة" هذا وقد غلبت عليه الثقافة اللغوية ، وأفاد من جهود سابقيه ممن تعرضوا لموضوع "السرقات الشعرية" وغيره .

(٢) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، تحقيق السيد أحمد صقر : ١/٤١٠ ، ٤١١ و٤٤٥ ، ٤٤٦ و٤٩٩ ، ٥٠٠ .

وعجيب اختراعهما ، فإنى أوقع الكلام على جميع ذلك وعلى سائر أغراضهما ومعانيهما فى الأشعار التى أرتبها فى الأبواب ، وأنص على الجيد وأفضله ، وعلى الردئ وأرذله ، وأذكر من علل الجميع ما ينتهى إليه التخليص ، وتحيط به العبارة ، ويبقى ما لا يمكن إخراجه إلى البيان ، ولا إظهاره إلى الاحتجاج ، وهو علة ما لا يعرف إلا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة ، وبهذا يفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم ممن نقصت تجربته ، وقلت دربته ، بعد أن يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الصناعة وامتزاج بها ، وإلا فلا .

ثم أكِلُكَ (١) بعد هذا إلى اختيارك ، وما تقضى عليه فطنتك وتمييزك ، فينبغى أن تنعم النظر فيما يرد عليك ، ولن ينتفع بالنظر إلا من يحسن أن يتأمل ، ومن إذا تأمل علم ، وإذا علم أنصف .

ما ابتدأ به من ذكر تعفية الدهور والأزمان للديار .

قال أبو تمام :

لقد أخذتْ من دار ماوية الحُقْبُ
أَنُحْلُ المغانى للبلى هى أم نهب ؟

---

(١) أسلمك .

أراد أنحلَّ المغانى هى للبلى ، فحذف التنوين ، والحُقْب : الدهر وجمعه أحقاب ، والحِقَب : السنون ، واحدتها حِقْبة ، وقال : " لقد أخذت " فأنث والحُقْب مذكر ، وأظنه أراد أيام الدهر ولياليه ، ويقال : الحقب ثمانون سنة ، فعلى هذا قال : " أخذت " فأنث .

وقال أيضا :

قد نابت الجزع من أُرويَّة النُّوَبُ
واستحقبت جدَّةً من ربعها الحِقَبُ

" واستحقبت " أى جعلت الحقب — وهى السنون — جدة الربع فى حقيبتها والحقيبة : ما يحتقبه الراكب ، وهو وعاء يجعله خلفه إذا ركب ويحرز فيه متاعه وزاده ، وهذه استعارة حسنة ، وإنما يريد أن الحقب سلبت الربع جدته وذهبت بها .

وقال البحترى :

أرسومُ دارٍ أم سطور كتابِ
دَرَسَتْ (١) بشاشتُها على الأحقاب

أى : على مر السنين ، وهذا البيت أبرع من بيتى أبى تمام لفظا ، وأجود سبكا ، وأكثر ماء ورونقا ، وهو من الابتداءات النادرة العجيبة ، المشبهة لكلام الأوائل ، فهو فيه أشعر من أبى تمام .

* * *

---

(١) قد مت وبليت .

ما قالاه في سؤال الديار واستعجامها عن الجواب والبكاء عليها أيضا :

قال أبو تمام :

من سجايا (١) الطلول ألا تجيبا
فصوابٌ من مُقلتي أن تصوبا (٢)
فاسألَنْها واجعلْ بكاك جوابًا
تجد الشوق سائلا ومجيبا

وقد ذكرت هذا الابتداء في الابتداءات ، وقوله : " فاسألنها واجعل بكاك جوابا " لأنه قال : من سجاياها ألا تجيب ، فليكن بكاؤك الجواب ، لأنها لو أجابت بما يبكيك ، أو لأنها لما لم تجب علمت أن من كان يجيب قد رحل عنها ، فأوجب ذلك بكاءك .

وقوله : تجد الشوق سائلا ومجيبا ، أى أنك إنما وقفت على الدار وسألتها لشدة شوقك إلى من كان بها ، ثم بكيت شوقا أيضا إليهم ، فكان الشوق سببا للسؤال وسببا للبكاء .

وهذه فلسفة حسنة ، ومذهب من مذاهب أبي تمام ، ليس على مذاهب الشعراء ولا طريقتهم ، ومثله قوله :

---

(١) خصال ، صفات .
(٢) تسكب الدمع .

تجرّعْ أسىً قد أقفر الجرعُ الفرْدُ
ودَعْ حسْيَ (١) عينٍ يحتلبْ ماءَه الوجدُ

إذا انصرفَ المحزون قد فلَّ (٢) صبرُه
سؤالَ المغاني فالبكاء لـــه ردُّ

فالجرع : الموضع من الأرض له ارتفاع ، ويقال : هو حزن (٣) ، ويقال : هو سهل يشبه الرمل ، والجمع أجراع ، وقوله " فالبكاء لـــه رد أي للسؤال على معنى قوله تجد الشوق سائلا ومجيبا " .

ولم يسلك البحتري هذه الطريق ، بل جرى في هذا الباب على مذاهب الناس فقال :

وقفنا على ذات النُّخَيْلةِ فانبرتْ سواكبُ قد كانت بها العين تبخَلُ
على دارس الآيات عافٍ (٤) تعاقبتْ عليه صبا ما تستفيقُ (٥) وشَمْـــأَلُ
فلم يدْرِ رسم الدار كيف يجيبنا ولانحن من فرط البكا كيف نسأَلُ

وقول أبي تمام وإن كان فيه دقة وصنعة ، فهذا عندي أولى بالجودة وأحلى في النفس ، وألوط بالقلب ، وأشبه بمذاهب الشعراء .

---

(١) الحسى (بالفتح أو الكسر) أرض يتجمع فيها الماء كلما نزح منها عاد .
(٢) حطم .
(٣) مرتفع من الأرض .
(٤) بال .
(٥) تنقطع ، والصبا هي الريح الشرقية والشمأل ريح الشمال .

(٣) من كتاب " النكت في إعجاز القرآن "
لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني
(المتوفى سنة ٣٨٦ هـ)

باب التلاؤم

التلاؤم نقيض التنافر ، والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف ، والتأليف على ثلاثة أوجه :

متنافر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا .
فالتأليف المتنافر كقول الشاعر :

وقبر حربٍ بمكان قفرُ .. وليس قرب قبر حرب قبرُ

وذكروا أن هذا من أشعار الجن لأنه لا يتهيأ [١] لأحد أن ينشده ثلاث مرات فلا يتتعتع [٢] وإنما السبب في ذلك ما ذكرنا من تنافر الحروف .

وأما التأليف المتلائم في الطبقة الوسطى — وهو من أحسنها — كقول الشاعر :

رمتني وسترُ الله بيني وبينها .. عشية آرام [٣] الكناسِ [٤] رميمُ
رميمُ التي قالت لجيران بيتها .. ضمنتُ لكم أن لا يزال يهيمُ
ألا ربّ يوم لو رمتني رميتها .. ولكنّ عهدي بالنضال قديمُ

---

(١) يمكن .
(٢) يتلعثم .
(٣) جمع رئم وهو الظبي .
(٤) الكناس بيت الظباء .

والمتلائم فى الطبقة العليا : القرآن كله ، وذلك بين لمن تأمله .

والفرق بينه وبين غيره من الكلام فى تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم فى الطبقة الوسطى ، وبعض الناس أشد إحساسا بذلك وفطنة له من بعض ، كما أن بعضهم أشد إحساسا بتمييز الموزون فى الشعر من المكسور ، واختلاف الناس فى ذلك من جُهة الطباع كاختلافهم فى الصور والأخلاق ، والسبب فى التلاؤم تعديل الحروف فى التأليف ، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤما ، وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد : وذلك أنه إذا بَعُدَ البُعْد الشديد كان بمنزلة الطفر ، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشى المقيد ، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك فى الاعتدال ، ولذلك وقع فى الكلام الإدغام والإبدال .

والفائدة فى التلاؤم حسن الكلام فى السمع ، وسهولته فى اللفظ ، وتقبل المعنى له فى النفس ، لما يرد عليها من حسن الصورة وطريف الدلالة ، ومثل ذلك مثل قراءة الكتاب فى أحسن ما يكون من الخط والحروف ، وقراءته فى أقبح ما يكون من الحرف والخط ، فذلك متفاوت فى الصورة وإن كانت المعانى واحدة .

---

(٤) من كتاب "دلائل الإعجاز"
لعبد القاهر الجرجاني
(المتوفى سنة ٤٧١ هـ)

ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة، والبيان والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ومَوضع الدفين ليبحث عنه فيخرج، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبني عليها، ووجدت المعول على أن هنا نظما وترتيبا، وتأليفا وتركيبا، وصياغة وتصويرا، ونسجا وتحبيرا، وأن سبيل هذه المعاني في الكلام — الذى هى مجاز فيه — سبيلها في الأشياء التى هى حقيقة فيها، وأنه كما يفضل هناك النظم النظم، والتأليف التأليف والنسج النسج، والصياغة الصياغة، ثم يعظم الفضل، وتكثر المزية، حتى يفوق الشيء نظيره والمجانس له درجات كثيرة، وحتى تتفاوت القيم التفاوت الشديد — كذلك يفضل بعض الكلام بعضا، ويتقدم منه الشيء الشيءَ، ثم يزداد من فضله ذلك، ويترقى منزلة فوق منزلة، ويعلو مرقبا بعد مرقب، ويستأنف له غاية بعد غاية، حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع وتحسر الظنون، وتسقط القوى، وتستوى الأقدام في العجز.

ومن المعلوم أنه لا معنى لهذه العبارات، وسائر ما يجرى مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة، وينسب فيه الفضل والمزية إليه

دون المعنى غير وضع الكلام حسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة ، ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين ، وآنق وأعجب ، وأحق بأن تستولي على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب ، وأولى بأن تطلق لسان الحامد ، وتطيل رغم الحاسد .

ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذى هو أخص به ، وأكشف عنه ، وأتم له ، وأحرى بأن يكسبه نبلا ، ويظهر فيه مزية ، وإذا كان هذا كذلك فينبغى أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها فى التأليف ، وقبل أن تصير إلى الصورة التى بها يكون الكلم إخبارا وأمرا ونهيا ، واستخبارا وتعجبا ، وتؤدى فى الجملة معنى من المعانى التى لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة ، وبناء لفظة على لفظة .

هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل فى الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذى وضعت له من صاحبتها على ما هى موسومة به ، حتى يقال إن " رجلا " أدل على معناه من " فرس " على ما سمى به ؟ وحتى يتصور فى الاسمين الموضوعين لشىء واحد أن يكون هذا أحسن نبأ عنه وأبين كشفا عن صورته من الآخر ، فيكون (الليث) مثلا أدل على السبع المعلوم من (الأسد) ؟ وحتى أنا لو أردنا الموازنة بين لغتين كالعربية والفارسية ساغ لنا أن نجعل لفظة (رجل) على الآدمى الذكر من نظيره فى الفارسية ؟ وهل يقع فى وهم — وإن جهد — أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم ، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية ، أو أن تكون حروف هذه أخف ، وامتزاجها أحسن

وما بكد اللسان أبعد ؟

وهل قالوا : لفظة متمكنة مقبولة ، وفى خلافه : قلقة ونابية ومستكرهة ، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تلق بالثانية فى معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية فى مؤداها ؟ ..

وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره ، والتنويه بذكره ، وإجماعهم أن لا فضل مع عدمه ، ولا قدر للكلام إذا هو لم يستقم له ، ولو بلغ فى غرابة معناه ما بلغ .. واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التى نهجت (١) ، فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك ، فلا تخل بشىء منها .

وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه :

فينظر فى الخبر إلى الوجوه التى تراها فى قولك : زيد منطلق وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، ومنطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد وزيد هو المنطلق وزيد هو منطلق ،

وفى الشرط والجزاء إلى الوجوه التى تراها فى قولك : إن تخرج

---

(١) مناهجه التى نهجت : طرقه التى رسمت .

أخرج وإن خرجت خرجت وإن تخرج فأنا خارج وأنا خارج إن خرجت وأنا إن خرجت خارج .

وفى الحال إلى الوجوه التى تراها فى قولك :

جاءنى زيد مسرعا ، وجاءنى يسرع وجاءنى وهو مسرع أو هو يسرع وجاءنى قد أسرع وجاءنى وقد أسرع ، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجىء به حيث ينبغى له .

وينظر فى الحروف التى تشترك فى معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية فى ذلك المعنى ، فيضع كلا من ذلك فى خاص معناه ، نحو أن يجىء بما فى نفى الحال ، وبلا إذا أراد نفى الاستقبال ، وبأن فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون ، وبإذا فيما علم أنه كائن .

وينظر فى الجمل التى ترد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء ، وموضع الفاء من موضع ثم ، وموضع أو من موضع أم ، وموضع لكن من موضع بل .

ويتصرف فى التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير ، فى الكلام كله ، وفى الحذف والتكرار ، والإضمار والإظهار ، فيضع كلا من ذلك مكانه ، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغى له .

هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا ، وخطوه إن كان خطأ إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم ، إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه ، ووضع فى حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة ، فأزيل عن موضعه ، واستعمل فى غير ما ينبغى له .

(٥) مقدمة الجزء الثانى من ديوان عباس محمود العقاد
(المتوفى سنة ١٣٨٤ هـ)
كتبها صاحب الديوان

قال الكاتب الإنجليزى توماس لف بيكوك (ب) فى رسالته عن أدوار الشعر الأربعة : " الشاعر فى عصرنا هذا هو نصف همجى يعيش فى عصر المدنية ، لأنه يقيم فى الزمن الحالى ، ويرجع بخواطره وأفكاره وخوالجه وسوانحه إلى الأطوار الهمجية والعادات المهجورة والأساطير الأولى ، ويسير بذهن كالسرطان زحفا إلى الوراء ...

" لقد كان الشعر نقرة تنبه الذهن فى طفولة الهيئة الاجتماعية ولكن من المضحك فى عصر النضج أن نعنى بألاعيب طفولتنا ، ونفسح لها موضعا من شواغلنا ، فإن هذا يشبه سخف الرجل الذى يشتغل بألاعيب الصبيان ، ويبكى لينام على رنة الأجراس الفضية " .

هذا هو الأساس الذى أقام عليه الكاتب رأيه فى رسالته وليس هو بالرأى الحديث ، ولكنه رأى قديم أورده أفلاطون فى جمهوريته ، ولهج به بعض الكتاب فى إبان النهضة الفرنسية ، مع أنها كانت فى مراميها السياسية والاجتماعية أشبه برواية شعرية تمثل على مسرح الفن منها بالحقيقة العملية التى تجرى فى عالم الحياة .

وقد أحسن فكتور هوجو* فى تفنيد هذا

* اكبر ممثلى المذهب الرومنسى فى الأدب الفرنسى ، ولد سنة ١٨٠٢ وتوفى سنة ١٨٨٥م .

الرأى [١] فى كتابه " وليم شكسبير " فقال : " ينادى كثير من الناس فى أيامنا هذه — ولاسيما الضاربون وفقهاء القانون — بأن الشعر قد أدبر زمانه ، فما أغرب هذا القول ، الشعر أدبر زمانه ، لكأن هؤلاء القوم يقولون : إن الورد لن ينبت بعد ، وإن الربيع قد أصعد آخر أنفاسه ، وإن الشمس كفت عن الشروق ، وإنك تجول فى مروج الأرض فلا تصادف عندها فراشة طائرة ، وإن القمر لا ينظر له ضياء بعد اليوم ، والبلبل لا يغرد ، والأسد لا يزمجر ، والنسر لا يحوم فى الفضاء ، وإن قلال [٢] الألب والبرانس قد اندكت ، وخلا وجه الأرض من الكواعب [٣] الفواتن والأيفاع الحسان .. لكأنهم يقولون : إنه لا أحد اليوم يبكى على قبره ولا أم تحب وليدها ، وإن أنوار السماء قد خمدت ، وقلب الإنسان قد مات " .

والحق أنه لا فرق بين القولين : إذ الشعر لا يفنى إلا إذا فنيت بواعثه ، وما بواعثه إلا محاسن الطبيعة ومخاوفها ، وخوالج النفس وأمانيها فإذا حكمنا بانقضاء هذه البواعث فكأنما حكمنا بانقضاء الإنسان ، وليس من العجب أن يوجد فى الدنيا أناس لا يهتزون للشعر .. وهى مكتظة بمن لا يهتزون للحياة نفسها .

---

(١) إثبات خطأ هذا الرأى .
(٢) جبال .
(٣) الفتيات .

غاصة بمن يمرون بها غافلين عن محاسنها وآياتها ، كأنهم يستعيدون بالمغامرة ، أو كأنهم يعودون إليها كلما شاءوا الأوبة .

إنني لا أرى في ضروب الخطأ رأيا أخطل من زعم الزاعمين أن الشعر يحن إلى الماضي ويحجم عن المستقبل ، هذا زعم ينم تجرد أصحابه من أريحية الشعر ومن أصالة الفكر ، فلا هم في الشعراء ولا هم في الفلاسفة الحكماء ، ولو كان الشعر عاكفا على الماضي — كما يزعمون — لكان خليقا ألا تظهر نهضاته إلا في أعقاب الدول وأنقاض الحضارة ، وهذا خلاف ما نشاهده بين أيدينا من حقائق التاريخ وحوادث الأمم .

وإنما يلبس (١) الصواب على بيكوك وأمثاله وبوهمهم أن الشعر خاصة من خواص الهمجية : أنهم لا يميزون بين اقتران السبب بالمسبب واقتران الأمرين في موضع واحد ، فالشعر عندهم لزيم الجهل ، لأن الهمج كانوا جهلاء وكانت أشعارهم من أبلغ الشعر وأقواه ، ولو قال قائل : إن العرب سمر الوجوه لأنهم يتكلمون العربية ، أو إنهم يتكلمون العربية لأنهم سمر الوجوه ، لما كان قوله أغرب في العقل وأبعد عن الصدق من قول هؤلاء الكتاب ، إذ الحقيقة أن الهمج لم ينظموا أبلغ الأشعار لأنهم جهلاء ، ولا كانوا جهلاء لأنهم نظموا أبلغ الأشعار ، ولكنهم طائفة من الخلق لها نفوس ومدارك قد بهرتها طلعة الطبيعة ، وأدهشتها بدائع الكون ، فماجت جوانبها بالإحساس

---

(١) يخفى .

وجاشت [١] غواربها [٢] بالخيالات ، واندفقت من الصدور إلى الألسنة ، وأفصحت عنها كما يفصح الجاهل عما يتلجلج في صدره ، أحست نفوسهم فتحركوا للتعبير عنها ، فكانوا جهلاء في تعبيرهم ولم يكن تعبيرهم عن أنفسهم لأنهم جهلاء .

ولقد انجابت عصابة [٣] الجهل عن حواسنا ، ودرجنا من الهمجية إلى المدنية ، ولكن الكون لم يصغر ، والدنيا لم تنقص ، ونواميس الطبيعة لم تضعف ، ولم يصبح هذا الكون اليوم أقل استحقاقا لإعجابنا ودهشتنا مما كان في أعين الهمج الجاهلين ، فهل من فضل المدنية على أبنائها ألا يشعروا ببهجة الأزهار ، وروعة البحار ، أو ببهاء النجوم ، ووحشة الغيوم ، وألا تتفتح نفوسهم لنضرة الوجوه المشرقة ، ولا تطرب آذانهم لخرير الجداول المترقرقة ، وعجيج الأواذى [٤] المتدفقة ، وألا يأسفوا ولا يحزنوا ولا يحبوا ولا يبغضوا ولا يتمنوا ولا يتذكروا — تنزها عن الهمجية ، وصونا لكرامة المدنية ؟ أم من فضلها عليهم أن يشعروا بهذه الأشياء ثم يسكتوا عن شعورهم بها ، متباهين بهذا البكم المدنى على ذلك المنطق الهمجى ؟ أم ينطقون بها همسا ، لئلا يعترضوا مطارق المعامل ومقارع الآلات ، ولئلا يحجبوا صفير القاطرات وأزيز المركبات التى لا ينبغى للمدنى أن يطرب لغيرها ، أو يتصنت لصوت غير صوتها ؟ .

---

(١) اضطربت .
(٢) أعاليها .
(٣) ما يوضع على العين ليمنع الرؤية .
(٤) الأمواج العالية .

يقول سيكوك " نحن نعلم اليوم أن لا جنيات في حديقة هايد بارك ولا عرائس في فناء الريجنت " وهو قول حق، لولا أن الرجل قد نسي أن الأقدمين لم يعجبوا بالآجام (1) والغدران لأنهم تخيلوا فيها الجنيات والعرائس بل هم تخيلوا فيها الجنيات والعرائس لأنهم أعجبوا بها وفتنوا بسحرها ، ونحن اليوم تسرنا حدائقنا كما تسر الأقدمين لو رأوها ، فهل يكون من العبث نظم قصيدة في وصف سرورنا بها ، ولا يكون من العبث غرسها وتعهدها للتمتع بهذا السرور ؟ .

إن المدنية لا تقتل النفس الإنسانية ، وما كانت المنافع المادية — التي يعبدها كارهو الشعر — ولن تكون غاية الإنسان القصوى في الحياة . ولو أن مطالب الجسم كانت هي وجهة الحياة الإنسانية لكان العالم قد بلغ حده منذ آلاف السنين ، ولكانت الأجيال المقبلة أجيالا فضولية لا تزيد العالم ولا العالم يزيدها ، لأن الإنسان عرف حاجات جسمه وبصر بوسائلها ، فماذا بقي عليه منها ؟ وفيم تتعاقب الأجيال بعد الأجيال لتكرير حالة واحدة لا تفاوت فيها ؟ لو كانت وجهته ما يسمونه بالمنافع المادية لكان حسبه ما بلغه منها وكفى ، ولكن الإنسان مسوق إلى وجهة بعيدة بميول نفسه وحوافزها ، وإنما منافعه المادية زاد ، إلى هذه الوجهة ، وكل هاتيك المنافع تنتهي إلى معنى من المعاني الشعرية التي يعدها البلداء لغوا وهي هي جوهر الحياة ومتاع النفوس .

---

(1) الغابات .

الإنسان شاعر في مبانيه ، وعروض لباسه ومطاياه [١] فلم لا يكون شاعرا في كلامه ، وهو مفتاح نفسه ، وأشرف مزاياه ؟ ولم لا يكون شاعرا في الكلام الموزون وهو أجمل كلامه وأشجاه ؟ يرفع الصروح [٢] باذخات [٣] تطاول الجبال الشماء ، وتخترق طباق الهواء ، فهل كانت تضيق بجسمه الصغير لو خفض من حجراتها ، ووطأ من أسوارها ؟ ويملأ الخزائن بذهبه وفضته ، فهل تراه يهلك جوعا لو اجتزأ من هذه الخزائن بعشر معشارها ؟ ويقتني الحلل المسومة [٤] ألوانا وأزياء ، فهل هو يتقي بها القر [٥] والهجير [٦] ؟ ويتخذ له المركبات الخاصة ، فهل هي أسرع في المسيرة أو أقل عليه كلفة من مراكب الجماهير ؟ كلا ، ولكنه يبتغي بها أثرا في النفوس لا يختلف في صميمه عن الأثر الذي يبتغيه الشاعر بقصائده ، أثرا يحسه قلبه لا أعضاؤه ، أثرا مداره عواطف النفس ورغباتها ، لا أحجام المادة

---

(١) ما يركبه .
(٢) القصور .
(٣) شديدة الارتفاع .
(٤) المعلمة .
(٥) شدة البرد .
(٦) شدة الحر .

وكمياتها ، هذه هى الميول والحوافز التى تدير دولاب المنافع المادية ، ولا ضير منها على الشعر لأنها عنصره وينبوعه ، ولأن الشعراء الكبار فى الأمة علامة على تيقظ هذه الميول والحوافز فيها ، وأن وراء منافعها المادية عاملا ينميها ويرقيها ، وأنها تجعل المنافع أداة لمطامعها وأمانيها . ولكن علام تدل المنافع وحدها ؟ تدل على أنها الغاية من حياة الأمة ، ولا مراء (١) فى مصير أمة أدركت من حياتها الشأو (٢) الأخير .

كذلك ترى الزهرة على غصون الدوحة (٣) الباسقة ، فتطلع منها على حياة نامية فى جذوعها وأطرافها ، وجرثومة كفيلة بتجديد أزهارها وثمارها ، فإذا أخطأت الزهر فيها فقد لا يتقلص شبر من ظلالها ، أو يسقط فرع من غصونها ، ولكنها ليست بعد بالدوحة المنتجة ، وإنما هى حطب منصوب تتوقعه النار ، وتتربص به الفأس والمنشار .

---

(١) لا مراء : لا جدال .
(٢) الشوط .
(٣) الشجرة العظيمة .

من القضايا النقدية

اختلاف الأحكام النقدية نتيجة لاختلاف الذوق الأدبي

سبق أن قلنا إن النقد يعتمد أساسا على الذوق الجمالي عند الناقد ، وسبق أن قلنا أيضا إن الذوق نوعان :

* ذوق عام ·
* ذوق خاص ·

— فالذوق العام : هو المحصلة الفكرية والثقافية للناقد ·
— والذوق الخاص: هو إحساس الناقد واستعداده الفطرى ، وهو ملكة موهوبة ،قوامها أصالة الطبع وصفاء القريحة ·

والذوق الأدبي (١) هو أكبر الكلمات دورانا على ألسنة النقاد ، وذلك لشدة اتصالها بما يصدرون من أحكام ، ولأن الذوق هو الذى

---

(١) راجع : أصول النقد الأدبي للأستاذ أحمد الشايب ، ص ١١٩ وما بعدها ، ومذاهب النقد وقضاياه للدكتور عبد الرحمن عثمان ص ٤٨ وما بعدها ، وفي النقد الأدبي للدكتور سعد ظلام ص ١٨ وما بعدها ، ودراسات في النقد الأدبي للدكتور حسن جاد ص ٢٨ وما بعدها ·

يعتمد عليه الناقد فى وصف الأدب وتذوقه ، ولذلك رأينا أنه لكى يكون الذوق سليما من الخطأ ومن النظرة الشخصية ينبغى أن يصقل بالدراسة ، ويثقف بالمعرفة ، ويتمرس بألوان الأساليب ، وفنون الصور ، وضروب البيان .

وإذا كان الاعتداد بالذوق العام ضرورة ، فإن الأخذ والاعتداد بالذوق الخاص أكثر ضرورة .. كل ما فى الأمر أنه إذا ما اختلف ذوق الأديب صاحب النص عن ذوق الناقد المفسر والمحلل له ، فإن هناك قواعد يجب أن يتم الرجوع إليها فى الاستحسان أو الاستهجان ، وهذه القواعد قررها الذواقون للأدب .

ونحن بهذه القواعد نريد أن نعلم الناقد كيف يحكم على الآثار الفنية فهى قواعد مستنبطة من الفن وليس الفن مستنبطا منها ، ولا يخفى أن هذه الضوابط لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تهدر الذوق الخاص بالناقد ، فالنقد الأدبى يعتمد على الذوق ، ونحن لا نستطيع أن نتعرف على صفات أو تقدير عمل أدبى ما لم نعرض أنفسنا عليه ، أو نعرضه على أنفسنا ونتركه يؤثر فينا .

وعن الذوق الأدبى يقول الدكتور طه حسين :

" صديقى أعود إليك الآن ، بعد أن فرغت من درس فى الأدب القديم ، أعجبنى موضوعه وأرضانى ما قيل فيه . أعود إليك إلى حيث تركتك منذ ساعات . تسألنى عن ذوق العصر : ما هو؟ وما الصلة بينه وبين الأدب ؟ وما الصلة بينه وبين المثل الأعلى فى الفن ؟ وأنا أتعجل هذه العودة إليك ليتصل آخر

الحديث بأوله ، وليكن هذا الكتاب تتمة الكتاب الذى أرسلته
إليك ضحى هذا اليوم .

وماذا تريد أن أصنع لك ، وقد قصُرت ذاكرتك أوتكلفت لها القصر ، فنسيت أو تناسيت ما كان لنا من مجلس ، وما كان بيننا من حديث ؟ إنك خليق أيها الصديق ألا تعتمد على الذاكرة وحدها ، وأن تتخذ لنفسك هذه العادة التى لابأس بها ، وهى تقيد الأحاديث العذبة اللذيذة القيّمة إنْ صادفتها ، فى يوميات تعود إليها من حين إلى حين ، فتذكر نفسك وأصدقاءك، وظروفكما المختلفة ، وتصل بينك وبين قديمك الخاص ، وتعينك على أن تتبّع تطور عقلك وشعورك ، وانتقالهما من حال إلى حال ، وتأثرهما بالظروف المختلفة التى تحيط بهما ، وتعمل فيهما ، دون أن تحس أنت ذلك أو تلتفت إليه : وكيف تريد أن تقضى بين قديم الأدب وجديده ، وأنت لا تستطيع أن تقضى بين قديمك وجديدك ، لأنك لا تلتفت إلى هذا القديم وذاك الجديد ولا تشعر باستحالة أحدهما إلى الآخر فى ظل ما تخضع له من المؤثرات المادية والمعنوية ؟

أفهم أن تتطور وتستحيل ، وأن تستبدل رأيا برأى وأسلوبا فى الفن بأسلوب . ولكنى أحب لك أن تشعر بهذا التطور ، وتقدر هذه الاستحالات ، وتحسب لهما حسابهما حين تكتب أو تتحدث ، فذلك خليق أن يدفع عنك ما قد تتهم به من التناقض والاضطراب ، وأنت الآن متناقض مضطرب بعض الشىء ، وإذا كانت أنا أفهم مصدر

تناقضك ، واضطرابك ، لأني أعرف من حياتك الماضية ما لم يعرفه
غيري فليس الناس جميعا مكلفين أن يعلموا أنك قضيت الصيف
في إيطاليا ، وكانت لك فيها مواقف هزت قلبك بادئ الأمر هزا
رقيقا ، ثم أخذت تتخلص إليه شيئا فشيئا حتى غمرته وعبثت به ،
ثم أخذت تتقلص عنه قليلا قليلا حتى انجلت عنه وتركته فارغا جافا ،
يكاد يحترق من الفراغ والجفاف ، ثم عدت إلى مصر ذاهلا مشرد
الخاطر مفطور القلب مضطرب المزاج ، ثم عكفت على نفسك تمتحن
وتحلل ، فخرجت بشيء من الشك هو إلى اليأس أقرب منه إلى الرجاء ،
وإذا أنت ترتاب بكل شيء ، وتنكر كل شيء وتزدري كل شيء ،
وما أحسب أنك ستسترد حظك من اليقين والرضا والأمل إلى أن تعود
إلى إيطاليا ، فلعل الله أن يجعل لك من العسر يسرا ، ومن الضيق
سعة ، ومن اليأس أملا : ولعل ابتسامة عذبة في " تورينو "
ترد إلى قلبك نضرته الأولى ، فتستأنف الحياة والتفكير في جد وثقة
واطمئنان ، وترى في الذوق الأدبي ما كنت تراه منذ أعوام ، أو شيئا
منه .

ليس الناس مكلفين أن يعلموا من أمرك هذا كله ، ولو قد
حاولوا ذلك لضقت بهم وضاقوا بك ، ولكنك أنت مكلف أن تعلم من
أمرك هذا وأن تقدر أثره في حياتك العقلية والنفسية معا ، بل في ذوقك
بنوع خاص ، فإن لذلك في ذوقك أثرا غريبا ، لقد كنت أراك قبل
" تورينو " تقدر الأشياء كما أقدرها ، وتشاركني في الرضا عن بعض
الشعر والسخط على بعضه الآخر ، وتحب أن تقف معي موقفا وسطا
بين أولئك المختصمين الفرنسيين الذين يرى بعضهم جمال الشعر

فى الموسيقا ، ويرى بعضهم الآخر جماله فى المعنى ، وكنت تقـول لى : وما يمنعنا أن نقف بين هؤلاء الناس ، ونرى جمال الشعر فى التئام الموسيقا والمعنى جميعا ؟ حتى إذا كانت تلك الليلة أخذت تصل إلى منك كتب لا رأس لها ولا ذنب — كما يقـول الفرنسيون — ثم لقيتك فإذا أنت قد تصوفت أو كدت ، وإذا أنت لا تذوق من الموسيقا إلا ألوانا خاصة تلائم مزاجك هذا المضطرب المحزون ، ولا تذوق من المعانى الشعرية إلا ضروبا خاصة ، تلائم أملك هذا الضائع المشرد .

صدقنى أيها الأخ العزيز ، أنك تخضع الآن لأزمة نفسية عنيفة ، فما أجدرك أن تتهم رأيك فى الناس ، والأشياء جميعا .

لا تبتئس ولا تظهر هذا الغضب الذى هو أقرب إلى الإذعان منه إلى أى شىء آخر ، فأنا راض بمزاجك هذا المضطرب محب له ، لأنى أفهمه وأذوق ما يحدث عنه من الآثار ، ولأنى أشاركك فى حب ما تحب من هذه الموسيقا وهذه المعانى التى تتصل بالماضى بائسة أو كاليائسة من المستقبل ، ومهما أنس فلست أنسى أننا قد أعجبنا معا إعجابا لأحد له بتلك القطعة الموسيقية البديعة التى أوقع بها الموسيقى " ديبارك " مقطوعة رائعة من شعر " بودلير "[1]

---

(١) شاعر فرنسى توفى سنة ١٨٦٧ .

هى الذكرى : أحسسنا معا أنا عشنا زمنا فى ظل تلك الأروقة الواسعة ، التى كانت تقوم على تلك الأعمدة الفخمة الضخمة ، والتى كانت تنعكس عليها من شمس البحر ألوان لا تكاد تحصى ، والتى كانت تخيل إليك إذا أقبل الأصيل أنها أغوار من البازلت .

نعم ، ورأينا معا أمواج البحر العنيفة الخطرية تعبث بصور السماء ، وتمزج أصواتها الموسيقية القوية بلون الأصيل الذى حكى العين ، نعم ،وشعرنا معا بهذه اللذة القوية الهادئة فى جو صفو ، وجلال لا حد له ، وبين هؤلاء الإماء المتجردات العطرات اللائى كن يروحن عن جباهنا بسعف النخل ، اللائى لم يكن لهن من هم إلا تعرف هذا السر المؤلم الذى كان يغنينا قليلا قليلا . ذقنا معا جمال هذا الشعر وانسجام هذه الموسيقا واشتراكهما فى تصوير هذا المثل الأعلى الذى نطمح إليه ، فإذا لم نظفر به فى حياتنا الحاضرة وقصرت بنا أجنحتنا عن أن نطير إليه فى المستقبل القريب أو البعيد التمسناه فى ماضينا ، فإذا لم نظفر به ، وما أحرانا ألا نظفر به ! التمسناه عند أسلافنا المترفين من أدباء اليونان والرومان وشعرائهم واستمتعنا به كما كانوا يستمتعون به هم أنفسهم ، يوم كانوا يحيونه حياة فيها الحق وفيها الخيال .

ذقنا معا هذا الشعر وهذه الموسيقا ، وأنت متأثر بمزاجك هذا المضطرب ، وأنا هادئ النفس فارغ البال ، فأنت ترى أن — اضطراب مزاجك لم يقطع ما بينك وبينى من صلة نفسية أو فنية ، وإذن فهون عليك ، ولا تخيل إلى نفسك أنى ساخط أو منكر لما

أنت فيه ، إنما أنا رفيق بك ، حدب عليك ، أحب أن تنسى "تورينو" أو أن تستأنف حياتك فيها إن وجدت إلى أحد الأمرين سبيلا ، وأحب بنوع خاص أن تقدر أثر "تورينو" فيما لك من رأى الآن في المثل الشعرى الأعلى ، وفي الذوق الفنى ، وفي مذاهب الشعراء في الشعر .

الذوق الفنى .. لقد بعدنا عنه ، أو كدنا نبعد . ومع ذلك فما كتبت إليك الآن إلا لأتحدث إليك فيه ، أو لأذكرك ما كان بينك وبيني فيه من حديث ، ألم نكن نتفق قبل "تورينو" على أن هناك ذوقين فنيين ، لكل واحد منا حظ منهما ، يختلف قوة وضعفا ، ويتفاوت سعة وضيقا باختلاف ما لشخصيته من القوة والظهور ؟ كنا نتفق على أن هناك ذوقا فنيا عاما يشترك فيه أبناء الجيل الواحد في البيئة الواحدة وفي البلد الواحد ، لأنهم يتأثرون بظروف مشتركة تطبعهم جميعا بطابع عام يجمعهم ويؤلف بينهم ، وكنا نتفق على أن هذا الذوق يتسع ويضيق ويقوى ويضعف ، فأهل مصر يشتركون فيه اشتراكا قويا ، وهذا الاشتراك هو الذى يجمعهم على الإعجاب ببعض الآثار الفنية دون بعض ، وهم يشاركون فيه إلى حد ما جيرانهم أهل الشام وفلسطين ، ويشاركون فيه إلى حد أضعف جيرانهم من أهل إفريقية الشمالية . ومن هنا يعجبون مع أولئك وهؤلاء ببعض الآثار ، ويعجبون مع أولئك دون هؤلاء ببعضها الآخر ، ويعجبون وحدهم بطائفة من الآثار الفنية ، وكنا نتفق على أن هذا الذوق يضيق أحيانا ، ويتأثر في ضيقه هذا بالظروف التى تحيط بالطبقات ، والجماعات ، فأهل مصر على

اشتراكهم فى هذا الذوق العام تتفاوت حظوظهم منه بتفاوت بيئاتهم وجماعاتهم ، فلأهل الأزهر ذوق خاص يكادون يستبدون به ، وقريب منه ولكنه يفارقه بعض الشئ ذوق مدرسة القضاء ودار العلوم ، وللجامعيين ذوق خاص أو قل أذواق مختلفة ، ذوق يتأثر بالذوق الإنجليزى وآخر يتأثر بالذوق اللاتينى ، ذوق يتأثر بالعلم ، وآخر يتأثر بالأدب ، وثالث يتأثر بالتاريخ ، ورابع يتأثر بالفلسفة ، وعلى هذا النحو ، ثم كنا نتفق على أن هناك ذوقا آخر فنيا يتأثر بهذا الذوق العام ولكنه مع ذلك متأثر بالشخصية الفردية ، أو هو مظهر ومرآة يمثلها تمثيلا صادقا يستبد به الفرد ، أو يكاد يستبد به لا يشاركه فيه أحد غيره . وكنا نتفق على أن هذين الذوقين هما اللذان يقضيان بأن القصيدة الشعرية الرائعة ، تنشد فنشترك فى الإعجاب بها ، أو قل فى مقدار من الإعجاب بها عام ، سواء ، أو كأنه سواء بيننا ، ثم لا يمنع ذلك أن يكون لكل واحد منا إعجاب خاص بالقصيدة كلها ، أو بالبيت من أبياتها ، لا يستطيع أحد أن يشعر به ، ولا أن يقدره .

كنا نتفق على هذا كله ، وكنا نتفق على أن الحياة الفنية إنما هى مزاج من هذين الذوقين ، فيه الوفاق حينا وفيه الصراع حينا آخر ، وكنا نتفق على أن هذا الذوق العام هو الذى يعطى الحياة الفنية حظا من الموضوعية ، وهذه الأذواق الخاصة هى التى تعطى الحياة الفنية حظا من الذاتية :

كنا نتفق على هذا كله ، ونحاول فى شىء غير قليل من التوفيق تطبيقه — كما يقول المعاصرون — على ما ينشىء شعراؤنا من الشعر وكتابنا من النثر ، وأراك الآن تسألنى عن الذوق ، ما هو ؟ فهل نسيت هذا كله ؟ لا ، ولكنها " تورينو " قد جعلت بينك وبينه ستارا ، وأنا زعيم أن أزيل هذا الستار ولو إلى حين .

تذكر يوم قرأنا قصيدة شوقى :

الله أكبر ، كم فى الفتح من عجب
يا خالد الترك جدد خالد العرب

كنا جماعة منا العمامة ومنا الطربوش ، منا المصرى ومنا السورى ، منا المسلم ومنا غير المسلم ، وكنا جميعا مرتاحين إلى انتصار الترك متشوقين إلى ما يسجل هذا الانتصار ، ويشيد به ، وتناول شاب منا الصحيفة ، فأنشد القصيدة فى شىء من الحماسة غريب ، وفى شىء من الاتقان فى الصوت ، وإخراج الحروف ، وتقطيع الوزن ، وقذف القافية كما تقذف الحجارة ، فرضينا وأعجبنا ، وتحمس بعضنا فصفق وافترقنا على أنها قصيدة رائعة ، ثم التقينا فى مجلس من هذه المجالس التى أخلو فيها إليك وحدنا فنتحدث فى حرية ، وينتهى بنا الحديث فى كثير من الأحيان إلى ما يكره كثير من الناس ، فأعدنا قراءة القصيدة ، وحينئذ لاحظت أنت ولاحظت أنا : أن إعجابنا الأول لم يكن إلا ظاهرة اجتماعية ، وأن بين الذوق العام وذوقنا الخاص تناقضا غير قليل هذه المرة ، ذلك لأننا كنا أثناء هذه القراءة

الثقافة قد تخلصنا من فوز الترك ، وتخلصنا من الجماعة التي كانت تحيط بنا ، ولم نحكم إلا ذوقنا الشخصي ، وذوقنا الشخصي معقد ـ كما تعلم ـ فيه أثر الأدب العربي القديم ، وفيه أثر الأدب الغربي الحديث ، وفيه أثر الثقافة مركبة مختلفة العناصر ، فليس غريبا أن يكون حكمه في الشعر مخالفا لحكم الجماعات المختلطة . وأذكر وتذكر أنت أيضا أننا لهونا يومئذ بإخضاع هذه القصيدة لهذا الذوق المعقد ، فضحكنا وأغرقنا في الضحك والسخرية من هذه الصور العتيقة البالية تتخذ لتصوير الحياة الجديدة الحاضرة ، وضحكنا بنوع خاص من هذا البيت :

قَذَفَتْهُمْ بالرياح الهُوجِ مُسْرَجَةً
يحملن أُسْدَ الشَّرى في البيض واليَلَبِ (١)

وأضحكتنا هذه الرياح المسرجة ، وإن كان المراد بها الخيل ، وأضحكتنا أسد الشرى على هذه الخيل ، وإن كان المراد بها فرسان الأتراك ، ثم قصدنا إلى الإنصاف وقلنا : شاعر يقلد القدماء ، فلا ينبغي أن ننظر إليه إلا بأعين القدماء ، ولا ينبغي أن يقاس إلا بمقاييسهم ، وكان هذا النوع من الإنصاف في نفسه قضاء على القصيدة ، فهو حكم بأنها لا تثبت أمام النقد الحديث ومقاييسه ولجأنا إلى النقد القديم ، فأما أنت فلبست ثياب أبي العباس أحمد

---

(١) اليلب : الدروع ، واحدتها درع .

ابن يحيى ثعلب ، زعيم النحويين في الكوفة آخر القرن الثالث للهجرة ، وأما أنا فلبست ثياب أبي العباس محمد بن يزيد المبرد زعيمهم في البصرة وفي العصر نفسه ، وكان هذان الرجلان يختصمان دائما ، وكنا إذا وضعنا أنفسنا موضعهما نريد أن نختصم لعل اختلافنا ينفع أمير الشعراء ، فأما أنا فزعمت أن هذه القصيدة فارغة إلا من الألفاظ ، ليس وراءها شيء ، وجعلت أضرب لك الأمثال بشعر القدماء وبشعر الأخطل خاصة في تصوير الهجوم والانتصار والهزيمة العامة والهزيمة الفردية ، وكنت أقف بك بنوع خاص عند الرائية التي مطلعها :

خفَّ القطينُ فراحوا منك أو بكروا
وأزعجتهم نوى في صَرْفها غِيَرُ

والتي مدح فيها الأخطل عبد الملك وبني أمية ، وصور جيش عبد الملك زاحفا على العراق ، وانتصاره وانهزام القيسيين أنصار ابن الزبير في الجزيرة ، وكنت أقف بك عند الرائية الأخرى التي مطلعها :

ألا يا اسْلَمى يا هندُ هندَ بني بَدْرِ
وإن كان حيَّانا عدًا آخرَ الدهرِ

والتي قصد بها الشاعر إلى مثل ما قصد إليه في الرائية الأخرى ، ولكنه أبدع في تصوير الهزيمة الفردية ، فصور لنا فارسا يلهب

فرسه والرماح تنوشه ، وهو ينغمس معها في السراب ، والسراب ينجاب عنه وعنها ، وهو يحثها ويفديها بأمه إن مضت في جريها إلى العصر ... كل ذلك فيما تذكر من لفظ متقن ، سهل رصين متخير ، وكنت أقول لك إن هذا الشعر يلائم ذوق العرب في عصره ، ويصور المثل الأعلى لهم فهو جميل ، وهو يعجبنا الآن ويرضينا فيمثل لناحظا من هذا المثل الأعلى ، وكنت تسمع لي فترض مرة وتنكر أخرى ، ثم سكت حينا وسألتني : وأين أنت من قصيدة أبي تمام التي يمدح بها المعتصم وقد فتح عمورية ؟ قلت ذلك فوجمت لك ، ثم رأينا معا أن شوقي إنما اتخذ قصيدة أبي تمام هذه نموذجا حين أراد أن ينظم قصيدة في انتصار الترك .

ومن غريب الأمر أن اتخذ القصيدة نموذجا في اللفظ والمعنى ، وفي الوزن والقافية ، فمطلع أبي تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب

فهي من البسيط وقافيتها الباء ورويها مكسور ، وكذلك قصيدة شوقي ، فأبو تمام إذن هو الذي قدم إلى شوقي قوافيه ، وشيئا غير قليل من ألفاظه ومعانيه ، وبخاصة هذا التشبيه الذي كان يلائم ذوق المسلمين وهم يجاهدون الروم بقيادة الخليفة المعتصم ، تشبيه يوم عمورية بيوم بدر لأن المعتصم خليفة الله وابن عم النبي وهو يجاهد للدين ، بينه وبين بدر قرنان ليس غير ، وانتصاره بمعجزة

كانتصار النبى يوم بدر ، أشرف له وأجدى عليه . أخذ شوقى هذا التشبيه من أبى تمام فألصقه بمصطفى كمال ، ولم يكن مصطفى كمال خليفة ، بل كان خارجا على الخليفة ، ولم يكن يجاهد للدين بل كان يجاهد للوطن ، ولم يكن يجاهد بالسيف والرمح والخيل ، وإنما كان هذا أقل أدوات الحرب خطرا ، وأساء شوقى اختلاس هذا التشبيه فقد كما نرى أن أبا تمام أورده مورد الشك حين استعمل أداة الشرط ، وأورده شوقى مورد اليقين ، وأن أبا تمام أورده فى بيتين وأورده شوقى فى أبيات . قال أبو تمام :

إن كان بين صروف الدهر من رحم
موصولة أو زمام غير منقضب

فبين أيامك اللاتى نصرت بها
وبين أيام بدر أقرب النسب

وقال شوقى :

يوم كبدر فخيل الحق راقصة
على الصعيد وخيل الله فى السحب

غُرٌّ تظللها غراء وارفة
بدرية العود والديباج والعذب

نشوى من الظفر العالى مرنحة
من سكرة النصر لا من سكرة النصب

تذكر الأرض مالم تنس من زبـــد
كالمسك من جنبات "السكب" (١) منسكب

حتى تعالى أذان الفتح فاتـــأدت
مشى المجلّى إذا استولى على القصب

وكنت تقول لى : إن البيت الأول من بيتى أبى تمام يعادل قصيدة شوقى كلها . وكنت أرى أن من الظلم أن يقاس هذا الشعر الـــذى لا يدل على شىء إلى بيت كهذا البيت فيه الشك واليقين معا ، وفيه المبالغة والاقتصاد معا ، وفيه اللفظ الرصين يدل على المعنـــى الجيـــد .

وكنت تقول لى : أليس من العجب أن يأخذ شوقى معنـــى قاله أبو تمام فى بيت واحد ، فيذيبه فى أبيات دون أن يصل إلـــى شىء ؟ قال أبو تمام :

فتح تفتح أبواب السمـاء لـــه
وتـــبرز الأرض فى أثوابها القشب

وقال شوقى :

لما أتيت ببدر من مطالعهـــــا
تلفت البيت فى الأســـتار والحجب

---

(١) السكب : أول فرس ملكه النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان كميتا أغر محجلا ، والسكب من الخيل ، الجواد الخفيف الروح النشيط .

ثم استمر شوقي يصف ابتهاج العالم الإسلامي في عشرة أبيات زلزلت فيها الأرض زلزالها ، فسعى بلد إلى بلد ، واصطدمت مدينة بمدينة ، وتخاطب الموتى في دمشق وحلب ، والأحياء في الهند ومصر ، كل ذلك ولم يظفر بقول أبي تمام :

فتح تفتح أبواب السماء له
وتبرز الأرض في أثوابها القشب

وكنت تقول لي : إن في قصيدة أبي تمام من الشعر ما لاءم الذوق القديم ، ويلائم الذوق الحديث ، ويعجب به الشرقي والغربي معاً ، لأنه الشعر في نفسه ، فيه قبس من هذا الجمال الخالد الذي هو فوق الزمان والمكان والجنسيات ، قال أبو تمام يصف اضطرام عمورية :

لقد تركت أمير المؤمنين بها
للنار يوما ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى
يشله[1] وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

---

(١) يشله : يطرده .

ضوء من النار والظلماء عاكفة
وظلمة من دخان فى ضحى شحب
فالشمس طالعة فى ذا وقد أفلت
والشمس واجبة فى ذا ولم تجب

وكنت تقول : إن بيتا واحدا من هذا الشعر يزن ديوان شوقى كله وهو قوله :

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

ولو أنك التمست الشعر فى قصيدة شوقى هذه لما وجدت منه شيئا ، فإن أبيت فدلنى عليه !

وكنت تقول : كان البديع فى عصر أبى تمام يعجب جمهرة المتأدبين ، فأخذ منه أبو تمام بحظ لا يخلو من إسراف ، وهو لا يعجبنا ، فما اضطرار شوقى إليه لولا التقليد السخيف ؟ وأى جمال فى قوله :

ما كان ماء " سقاريا " سوى سقر
طغت فأغرقت الإغريق فى اللهب

لو أنه وضع اليونان موضع الإغريق لاجتنب هذا الجناس الثانى ، ولاحتفظ لبيته بشىء من الجمال الشعرى ، فالصورة لا بأس بها ، ولكن جناسين خليقان أن يفسدا أجمل الصور وأروعها .

ثم أخذنا ننتقل في القصيدتين من بيت إلى بيت حتى انتهينا إلى أن ذوقنا القديم نفسه على تحرجه لا يستطيع أن يسيغ قصيدة شوقي ، بعد أن أبى ذوقنا الحديث أن يسيغها ، وكانت خلاصة رأيك ورأيي : أن هذه القصيدة إنما هي أشبه شيء بالتمرين المدرسي يذهب به الأطفال مذهب المحاكاة للنماذج الفنية التي تلقى إليهم ، فيوفقون في الصورة ويخطئون الموضوع .

أتذكر هذا كله ، وإذا كنت تذكره فأنت تذكر رأيك ورأيي في الذوق الأدبي ، أما أنا فما زلت محتفظا برأيي ، وأما أنت فقد نسيت رأيك حيث تعلم ، ولعلك تجده إذا أقبل صيف هذا العام[1].

---

(١) حافظ وشوقي ص ٢٧ ــ ٤١ ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٧٤م .

الخاتمـــــــــــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنــــا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه إلى يوم الديـــــن ، وبعد :

فهذه فصول فى النقد الأدبى ، ضمت :

* معنى النقد .
* ونشأة النقد الأدبى وعوامل تطوره عند العرب .
* وموضوع النقد الأدبى .
* وألوان النقد الأدبى .
* ووظيفة النقد الأدبى .
* ومؤهلات الناقد الأدبى .
* ومقاييس النقد الأدبى .
* واتجاهات النقد الأدبى فى العصر الجاهلى والإسلامى والعباسى .
* والعلاقة بين البلاغة والنقد .

وقد كتبتها ليحصل القراء قدرا من الثقافة النقديـــة إلى جانب ما يحصلونه من الثقافة الإسلامية والعربية ، وصنــوف المعرفة الأخرى ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فــإن الدارس لهذه الفصول يستطيع متابعة النشاط النقدى الـــذى

تطالعنا مظاهره كل يوم فى الكتب والمجلات والصحف .

ونحمد الله تعالى ، فقد أعاننا على عرض صور من النصوص والنماذج الأدبية الجيدة ، التى عنينا كل العناية بتحليلها ، وتفسيرها ، وتذوقها ، وتقويمها ، واستشفاف ما فيها من جمال ، وتحديد قيمها الشعورية والتعبيرية ، كنماذج للأعمال الأدبية الجيدة ، تساعد على تمثل الفن ، وتعين على تذوق الأدب ، وتنمى الإحساس بالجمال .

والله من وراء القصد ...

الدكتور
طلعت صبح السيد

أهـم المصادر والمراجـع

١ ــ أبو الفرج الأصبهاني وكتابه الأغاني ، محمد عبد الجواد الأصمعي. دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية .

٢ ــ اتجاهات وآراء في النقد الحديث ، الدكتور محمد نايـل . مطبعة الرسالة ١٩٧١م .

٣ ــ الأدب الأموي ، الدكتور إبراهيم أبو الخشب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٤ ــ أدب الخوارج ، الدكتوره سهير القلماوي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٥ ــ أدب السياسة في العصر الأموي ، الدكتور أحمد الحوفي ، دار نهضة مصر ، الطبعة الخامسة .

٦ ــ الأدب العربي الرؤية والفن ، الدكتور عز الدين اسماعيل ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٥م .

٧ ــ الأصول الفنية للأدب ، عبد الحميد حسن . نشر الأنجلو مصرية ١٣٦٨هـ ١٩٤٩م .

٨ ــ أصول النقد الأدبي ، أحمد الشايب . نهضة مصر ، الطبعة الثامنة ، ١٩٧٣م .

٩ — الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى :

* الأجزاء : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٨ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢١ .
طبعة دار الشعب .

* الجزء السابع عشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٨٩هـ ١٩٧٠م .

* الجزء الواحد والعشرون : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م .

١٠ — الأمالى لأبى على القالى :

* الجزء الأول : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م .
* الجزء الثانى : دار الكتب ١٩٢٦م .

١١ — البداية والنهاية لابن كثير :

* الجزء الثامن : القاهرة ١٣٤٨هـ .

١٢ — البيان والتبيين للجاحظ :

* الجزء الأول : نشر مكتبة الخانجى ، وطبعة وتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .
* الجزء الثانى : نشر مكتبة الخانجى .

١٣ — تاريخ آداب اللغة العربية ، جورجى زيدان : (الجزء الأول) الهلال ١٩٣٦م .

١٤ — تاريخ الأدب العربى ، الدكتور شوقى ضيف :

* العصر الجاهلى — دار المعارف ، الطبعة السابعة .

* العصر الإسلامى - دار المعارف الطبعة الثانية .
* العصر العباسى الأول - الطبعة السادسة .

١٥- تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى ، أحمد الشايب ، النهضة المصرية ، الطبعة السادسة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

١٦- تاريخ الشعر العربى ، د. الكفراوى :
* الجزء الأول . دار نهضة مصر .

١٧- تاريخ الطبرى :
* الجزء الخامس : الطبعة الرابعة .

١٨- تاريخ النقد الأدبى عند العرب ، طه أحمد إبراهيم : القاهرة ١٩٣٧م .

١٩- تاريخ النقد العربى إلى القرن الرابع الهجرى . الدكتور محمد زغلول سلام .

٢٠ - تاريخ اليعقوبى :
* الجزء الثانى . دار صادر بيروت ١٩٦٠م .

٢١- تطور النقد العربى الحديث فى مصر ، الدكتور عبد العزيز الدسوقى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧م .

٢٢ ـ التطور والتجديد في الشعر الأموى ، الدكتور شوقى ضيف .
دار المعارف ، الطبعة السادسة .

٢٣ـ التفسير النفسى للأدب ، الدكتور عز الدين اسماعيـــــل ،
دار المعارف بمصر ، ١٩٦٣م .

٢٤ـ جمهرة خطب العرب : أحمد صفوت :
* الجزء الثانى ، مطبعة الحلبى ١٩٣٣م .

٢٥ـ حديث الأربعاء ، الدكتور طه حسين :
* الجزء الثانى . طبعة دار المعارف ، الطبعة الثامنـة .

٢٦ـ الحيوان للجاحظ :
* الجزء الثانى ، طبعة الساسـى ، القاهرة ١٣٢٣هـ .

٢٧ـ الخطابة فى صدر الإسلام ، محمد طاهر درويش :
* الجزء الثانى ، دار المعارف بمصر ١٩٦٧م .

٢٨ـ دراسات فى النقد الأدبى ، الدكتور حسن جاد . طبعـة
عام ١٩٧٧ .

٢٩ـ دراسات فى نقد الأدب العربى ، الدكتور بدوى طبانـــه .
المطبعة الفنية الحديثة ، الطبعة الخامسة ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م .

٣٠ــ دراسات نقدية في الأدب المعاصر ، مصطفى السحرتي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩م .

٣١ــ دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، طبعة المنار .

٣٢ــ ديوان أبي نواس ، طبعة آصاف .

٣٣ــ ديوان البحتري :
* الجزء الثاني ، تحقيق حسن كامل الصيرفي .

٣٤ــ ديوان المتنبي (شرح العكبري) :
* الجزء الثالث . دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٨م .

٣٥ــ شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي :
* الجزء الأول . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م .
* الجزء الثاني . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م .

٣٦ــ شرح المعلقات السبع ، الزوزني . مطبعة الحلبي ، الطبعة الثالثة ١٣٧٩هـ ١٩٥٩م .

٣٧ــ شرح المعلقات العشر ، الشنقيطي ، دار القلم ، بيروت .

٣٨ــ شعر البصرة في العصر الأموي ، الدكتور عون قاسم . دار الثقافة بيروت ، ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م .

٣٩ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة :
* الجزء الأول ، تحقيق أحمد شاكر . الطبعة الثالثة ١٩٧٧م
* الجزء الثانى ، دار المعارف ، ١٩٦٦م .

٤٠ـ صبح الأعشى ، القلقشندى :
* الجزء الأول . القاهرة ١٩١٣م .

٤١ـ طبقات الشعراء لابن المعتز . تحقيق عبد الستار أحمد فراج ،
دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة .

٤٢ـ طبقات فحول الشعراء لابن سلام :
* الجزء الأول ، تحقيق محمود شاكر ، مطبعة المدنى
مصر .

٤٣ـ ظهر الإسلام ، أحمد أمين ، دار الكتاب العربى ، بيروت
الطبعة الخامسة ، ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م .

٤٤ـ العقد الفريد ، لابن عبد ربه :
* الجزء الثانى ، شرح أحمد أمين ورفاقه ، لجنة التأليف
والترجمة والنشر ١٣٨٩هـ .

٤٥ـ العمدة لابن رشيق :
* الجزء الأول ، تحقيق محمد محى الدين ، دار الجيل ،
بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢م .

٤٦- فجر الإسلام ، أحمد أمين ، مطبعة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية عشرة ، ١٩٧٨م .

٤٧- فصول في الأدب والنقد ، الدكتور طه حسين . دار المعارف بمصر .

٤٨- الفهرست لابن النديم .

٤٩- في الميزان الجديد ، الدكتور محمد مندور ، الطبعة الثالثة .

٥٠- في النقد الأدبي ، الدكتور سعد ظلام ، مطبعة السعادة الطبعة الأولى ، ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥م .

٥١- في النقد الأدبي ، الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٢م .

٥٢- قضايا النقد الأدبي الحديث ، الدكتور محمد السعدي فرهود ، مطبعة زهران ، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م .

٥٣- قضايا نقد الشعر في التراث العربي ، الدكتور محمد أحمد العزب :
* الجزء الأول ، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .

٥٤- قيم جديدة للأدب العربي ، الدكتورة بنت الشاطئ ، طبعة عام ١٩٦١م .

٥٥ـ الكامل لابن الأثـــير :

* الجزء الثانى : دار الفكر ، بيروت ١٩٧٨م .
* الجزء الثالث : مطبعة المعارف ، القاهرة ١٨٦٧م .
* الجزء الرابع : دار صادر بيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

٥٦ـ مذاهب النقد وقضاياه ، الدكتور عبد الرحمن عثمان ، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م .

٥٧ـ المذاهب النقدية ، الدكتور ماهر حسن فهمى ، دار الطباعة الحديثة ، نشر النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٢م .

٥٨ـ مروج الذهب ، للمسعودى :

* الجزء الثانى ، المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦هـ .

٥٩ـ المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول ، الدكتور عبد العزيز فهمى ، دار المعارف .

٦٠ـ مقالات فى النقد الأدبى ، الدكتور رشاد رشدى ، طبعـــة الأنجلو مصرية عام ١٩٦٢م .

٦١ـ مقدمة ابن خلدون . طبعة المطبعة البهية .

٦٢ـ الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، للآمدى :

* الجزء الأول ، تحقيق السيد صقر ، دار المعارف بمصـــر ، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م .

٦٣ـ نفح الطيب للمقرى :
* الجزء الثالث . طبعة عيسى البابي الحلبي .

٦٤ـ النقد الأدبي ، أحمد أمين :
* الجزء الأول ، مطبعة نهضة مصر ، الطبعة الثالثة ، والطبعة الرابعة ، ١٩٧٢م .
* الجزء الثاني ، مطبعة نهضة مصر ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢م .

٦٥ـ النقد الأدبي ، الدكتورة سهير القلماوي ، طبعة معهد الدراسات العربية العالية عام ١٩٥٥م .

٦٦ـ النقد الأدبي ، أصوله ومناهجه ، سيد قطب . طبعة دار الشروق .

٦٧ـ النقد الأدبي تاريخه ونظرياته ، الدكتور محمد عبد الرحمن شعيب ، مطبعة دار التأليف ، الطبعة الأولى ١٩٦٧م / ١٩٦٨م .

٦٨ـ النقد الأدبي ، الدكتور محمد غنيمي هلال ، الطبعة الثالثة ١٩٦٤م .

٦٩ـ النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، ستانلي هايمن ، ترجمة الدكتور إحسان عباس ومحمد يوسف نجم . دار الثقافة بيروت ١٩٥٨م .

٧٠- النقد المنهجي عند العرب ، الدكتور محمد مندور ، نشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨م .

٧١- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، للجرجاني ، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل وعلى محمد البجاوى ، طبعة عيسى البابي الحلبي .

٧٢- يتيمة الدهر ، للثعالبي ، تحقيق محمد محي الدين :
* الجزء الثالث والجزء الرابع ، القاهرة .

فهـــرس الموضوعـــات

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة